مجموعة قصصية

بلاغ قلق

الغرب بدون ~~مساحيق تجميل~~

أَمَةُ الرحمان زيتوني

الغرب بدون ~~مساحيق تجميل~~

أَمَةُ الرحمان زيتوني

لا إهداء

ومن العادة أن يكتب إهداء في الكتب

لكن كتابي هذا لا إهداء فيه

وهل يُهدي المرء آلام أمّته وجراحها؟!

أطفالنا في بورما استعبدوا في المعامل

في أفغانستان فُجر منهم حفظة القرآن

في غزة ذُوّبُوا بأفتك ما أنتجته إنسانيتهم

في السودان جوّعوا، قُتلوا وصُوروا

في سوريا ... العراق ... واليمن ...

وفي دول الغرب حدث ما هو أمرُّ وأقسى

اختطفوا أطفالنا، غيّروا أسماءهم، بدّلوا دينهم وألقوا بهم في غيابات الجبّ !!!

أما من بقي من أطفالنا فـ (جاري محاولة غسل أدمغتهم.....)

رسالة خاصة

إلى العائلات المتضررة ....

إلى الأمهات المنفطرة أفئدتهن على فلذات أكبادهن...

إلى الآباء المنكسرة قلوبهم على أسنادهم الذين غُيّبوا عنهم بدون حق .....

أعلم أنّ الخطب جلل والبلاء عظيم، ولولا فداحة الأمر وقلة الوعي ما كرسّت وقتي ولا حملت قلمي هذا لأعلم العالم بمآسيكم السوداء في هذا العالم المنافق.

العالم الذي يسقط القنابل الماحية للبشر ويطالب باحتواء حيواناتهم تحت بند حقوق الحيوان.

العالم الذي يتعاطف مع قرد يتعلق بدمية بعد أن تركته أمّه القردة ولا يتفاعل مع آلاف الأطفال الذين يُتّموا في الحروب الظالمة التي لم تبقِ حتى الدمى!

العالم الذي وضع وثيقة سمّاها حقوق الإنسان وجعل يلوّح بها أمامنا في كل محفِل، يفرضها علينا فرضا نحن الأمة التي يحكمها شرع أعاد للإنسان إنسانيته، الغرب الذي نسي أن يدعو نفسه قبل أن يدعو غيره.

بلاؤكم كبير ولكم رب عظيم، أكتب هذه القصص وهي غيض من فيض و لولا ضيق الوقت و الظروف لكتبت كل ما سمعت من قصص، كتبت القصص و جعلتها خالصة لوجه الله لا أريد من أحد جزاء ولا شكورا، أبرئ ذمتي أمام ربي يوم العرض ولسان حالي يقول ربي إني قد بلّغت، اللهم فاشهدْ.

أعتذر لأنني لم أطلب من الجميع إذن كتابة قصصهم؛ لأن ذلك يستحيل؛ لذا فقد غيّرت الأسماء وطمست بعضها لكي تبقوا بأمان عن أعين الخاطفين ولكيلا يكيدوا لكم المكائد مستقبلا.

ملاحظة: كل القصص حقيقية وليست من وحي خيالي، جمعتها من عدّة مصادر (قنوات يوتيوب، برامج تلفزيونية، تقارير إخبارية ....)، وللأمانة أكبر مصدر لهذه المجموعة كان سلاسل فيديوهات تحت عناوين (ماذا يحدث للأطفال في السويد؟)، (ماذا يحدث للأطفال في دول الغرب؟)، (المسلمون في الغرب) والتي سلطت الضوء لسنوات و لازالت على هذه الظاهرة، نقلي من هذه المصادر لا يعني ضرورة اتفاقي في كل ما تعرضه من محتوى.

أدعو -والله العظيم- رب العرش العظيم أن يقرّ أعينكم بعودة أولادكم إلى أحضانكم وإلى كنف الإسلام.

توضيح

بدأت فكرة الكتاب قبل أربع سنوات، حينما شاهدت يوما فيديو باليوتيوب تحت عنوان '' مصير أطفال المسلمين في الدول الغربية '' ! استغربت من العنوان و قادني فضولي إلى المحتوى فوجدته في البداية يتحدث عن مؤسسات تسحب أطفالا من آبائهم لأنهم يعنفونهم.... لم تكن المعلومة جديدة علي بمنع تعنيف الأطفال في الدول الغربية، لكنني صُدمت حينما أنهيت الفيديو. لم أكن أعلم أن العقوبة هي خطف الأطفال أنفسهم! كنت أحسب أن الأب المُعنف هو الذي يسحل ابنه، أو ذلك الذي يضرب الضرب العنيف فيجرح، أو يشوه أو يكسر لم أكن أعلم أن الصراخ فقط يعتبر تعنيفا نفسيا! كنت أحسب أيضا أن ذلك الولي المُعنف يُعاقب بغرامة مالية أو بحرمانه من امتيازات مادية أو حتى يعاقب بالسجن لشهر أو شهرين إن ثبت أن التعنيف الجسدي كان شديدا لكنني لم أكن أعلم أنهم يختطفون الطفل لأن والده صفعه أو صرخ عليه!

المصيبة الأخرى أنهم لا يكتفون بخطفه وحده بل يختطفون إخوته أيضا! آباء يشتكون من اختطاف أطفالهم الثلاثة، الأربعة .... السبعة، ويصل الأمر حتى تسعة أطفال دفعة واحدة ! بل حتى الذين لم ينجبونهم بعد! يتم إصدار القرار بسحب كل طفل من تلك العائلة، حتى الرضع حديثي الولادة، يخرج من بطن أمه إلى السوسيال مباشرة. في بلدان الحريات يحرمون الأم حتى من شم رضيعها أو ضمه تلك الضمة التي تنسيها تعب الأشهر الشديد وألم الولادة الصعب. و الأعجب أنك لن تجد منظري حقوق المرأة في تلك الغرفة، إنهم منشغلون بنسائنا وبناتنا في أوطاننا! و كل كلامي هذا موثق بالفيديوهات لمن أراد أن يتأكد. فقط ابحثوا و ستنصدمون مثلي.

كنت أنصدم من تلك الأخبار وأنصدم أكثر من تعليقات أشخاص مرضى فحواها '' هذا ما يعرفه العرب، الإنجاب والعنف والرمي إلى الشارع! إنه يستحقون ذلك ''. استغربت و لازلت أستغرب من تلك الردود الباردة و الحكم على الأشخاص ورمي التهم بدون تحر. ألهذه الدرجة من الخنوع بلغت بمسلم أن يرضى بالظلم و الهوان لأخيه المسلم؟!

بدأت أخبار خطف الأطفال تخرج إلى العلن و بكثرة! فيديوهات توثق لحظات الاختطاف من قبل الشرطة وموظفي السوسيال. تراهم كيف يدفعون الآباء بعنف وكيف يحملون الأطفال من نومهم

و يضعونهم في سياراتهم، ترى كيف يتوسل الأطفال و يتشبثون بآبائهم و صراخهم يصم الآذان .... لم نكن نعلم ما تتمة تلك القصص و لا أسبابها حتى خرج أصحابها و فجروا لنا المفاجآت ...

تتعدد أسباب الخطف و تتنوع، أول سبب يلصقونه بك هو التعنيف الأسري، جسديا كان أو نفسيا. إن ضربت ابنك تأديبا له فأنت مهدد بتهمة العنف، إن فقدت السيطرة على نفسك يوما و صرخت في وجهه فالتهمة تعنيف نفسي، إن سقط على ابنك شيء ساخن رغم حرصك و يقظتك الدائمين إلا أنك مهدد بتهمة الإهمال، إن سقط ابنك من الأريكة على ذراعه و تضرر فأنت مهدد و قد يشي بك أي شخص من المستشفى و تهمتك الإهمال أيضا، إن ربيت ابنك على العفاف و ابنتك على الحياء فأنت مهدد و تهمتك تقييد حريات الأطفال، إن سألك ابنك يوما عن مفهوم الجندر أو عن الصداقة بين الجنسين و شرحت له انطلقا من أحكام الإسلام فأنت مهدد لا محالة و تهمتك ثقافة الشرف! إن علمت ابنك الصلاة و حاول الانضباط في المسجد أو صام يوما أو أياما من رمضان إرادة منه و حبا فأنت مهدد بتهمة التشدد الديني! و أحيانا يُنتزع منك لأسباب عنصرية و يُلفق لك أي تهمة عابرة و إن حدث و حقق في الأمر و اكتشفوا تلاعب الموظف فإنه يحول إلى وظيفة أخرى و يُستبعد خيار استعادتك لطفلك لأنه اعتاد العائلة الجديدة و يُخاف على نفسيته!

يحيلون القضايا بعد ذلك إلى محاكم متواطئة و لا رأي للقاضي فيها غالبا بعد رأي موظف السوسيال! تبدأ الرحلة مع المحاكم و قد تطول المدة أو تقصر و قد يعيدون لك أولادك، و قد يمنعونهم عنك إلى الأبد، قد يسمحون لك برؤيتهم مرة أو مرتين في السنة و قد لا يسمحون لك بذلك، كل ذلك خاضع لمزاجهم.

لم أستطع تجاوز الموضوع، كانت أغلب القصص حزينة عدا تلك التي نجى أصحابها و فروا بدينهم و دين أولادهم فيما سمي بعد ذلك بالهجرة العكسية. الاختطاف لم يكن النهاية بل كان البداية لما عاشه الأطفال و العائلات فيما بعد. فهناك أطفال اغتصبوا، آخرون عُذبوا و نُكل بهم، هناك من أدمن جميع أنواع المخدرات، هناك أيضا من أصبحن بائعات هوى ليُحصلن مالا لشراء المخدرات أو لتأمين باقي احتياجاتهم اليومية و قد سلطت صحيفة فرنسية الضوء على ذلك تحت عنوان الأسر الحاضنة و الفنادق الاجتماعية! هناك من أصبح تاجر مخدرات في عمر صغير و هناك من مرض و فقد عقله بسبب الأدوية النفسية، هناك من انتحر و هناك من قُتل. هذا كله بالأدلة و البيانات و لم يختلقه دماغي، فواقع أولئك المساكين عصيٌّ على التصديق و لا يمكن أن يصدر من خيال إنسان سوي!

الإحصائيات مخيفة، ففي فرنسا هناك 377,000 طفل تحت الرعاية القسرية سنة 2023! و في ألمانيا يختطف اليوغند أمت من 40,000 إلى 60,000 طفل سنويا! و في السويد يختطفون من 20,000 إلى 30,000 طفل سنويا! الأرقام مخيفة جدا لذا من المهم جدا نشر الوعي بين المسلمين، كل بما يستطيعه.

أولادي رأس مالي

كنتُ مهندسة إعلام آلي وكانت لي حياة رفاهية يتمنّاها كل فرد، بيتان ونملك وزوجي سيارتَين، أمّ لطفلين، الأكبر ابن السادسة وأخته ذات الأربع سنوات، لكل واحد منهما غرفته الخاصة وأغراضه وألعابه، حياة وردية أقضيها بين عملي وأمومتي. كل شيء كان مثاليا ورائعا حتى جاء ذلك اليوم الذي ابتلاني الله فيه باتصال من السوسيال يجدولون فيه موعدا لنا. لن أنسى انقباضة الصدر التي أعقبها الكثير من الألم وقد كنتُ يومها في إجازة بإسبانيا، كانت المكالمة كفيلة بتحويل ألوان الطبيعة البهيجة إلى لونَين اثنَين ... الأسود والأبيض ... لكن سرعان ما طمأنتُ نفسي بأنّ الأمور بخير، حياتي كانت مرتّبة بمسطرة، منظّمة بورق وقلم كما يقال ... كان كل شيء تحت السيطرة أو هذا ما كنت أظنه.

عقدوا معنا ثلاثة مواعيد؛ الموعد الأول كان معي وكان هذا ما ورد فيه:

_ استدعيناكِ اليوم؛ فقد وردنا بلاغ قلق بخصوصك.

_ بلاغ قلق؟

_ نعم، لقد بلغنا أنك تعنّفين أولادك.

_ أعنّف أولادي؟! هذا غير صحيح.... إنه بلاغ كاذب، أنا لا أعنّف أولادي أبدا.

_ لالا، أنت تضربينهم.

_ من قال هذا؟

_ هناك شكوى.

_ أنا لا أضرب أولادي، أنا لا أضرب حتى الحيوانات، فكيف أضرب فلذات كبدي؟

_ هل يضربك زوجك؟

_لا، لا يضربني.

_ صارحينا فقط، هل يضربك؟

_ كيف أعيش معه وهو يضربني؟ كيف نتشارك أعمالنا ومشاريعنا وهو يؤذيني؟ زوجي لا يضربني.

_ لماذا تضغطين على ابنك في الدراسة؟ ألا تعرفين أنّ هذا الضغط قد يؤدّي به إلى الانتحار؟

_ انتحار؟ أضغط على ابني؟ من أين لكم بهذه المعلومات المغلوطة؟

_ أجيبينا فقط، نحتاج الصدق في أجوبتك فقط. (كانوا يريدون أيّ زلة لسان، أيّ عثرة، أيّ خطأ، أيّ فراغ، أيّ أمر ليكتبوه في تقريرهم لخطف ابني منّي، لم يكونوا يحتاجون ذلك بشدة، فالأمر يتطلب كتابة أيّ سبب، أيّ هراء، أيّ عبث، كانوا يكذبون، لم تكن إجاباتي تحتاج إلى ذلك الصدق، أسئلة روتينية ليقنعوك أنهم أحرص منك على أولادك!!)

_ أيّ ضغط هذا الذي تتحدثون عنه؟ أيّ انتحار؟ ابني ذكي جدا ـ بارك الله فيه ـ وهو يحب دراسته وطلب العلم ويُبلي بلاء حسنا في ذلك. أساعده وأوجّهه وهذه حسنة تحسب لي لا سيئة تحسب عليّ. أنا بذلك أساعده وأساعد المدرسة أيضا وهو المتفوق الأول على مستواها بالمناسبة.

_ حسن.

_ هل أصبح تدريس الأبناء جُرما؟ تدريسهم وإهمالهم سواء؟!

_ نحن نتحدث عن الضغط في التدريس.

_ ومن قال لكم أنّني أضغط عليه؟

_ هناك معلومات وردتنا بخصوص هذا الأمر.

لم يستغرب أحد من تفوّقه ولا من كلامي، لقد جمعوا الكثير من المعلومات عنّا. الصحيحة منها والخاطئة، يواجهونك بالخاطئ من المعلومات ليأخذوا الصحيح، أو بالأحرى يريدون سماع ما يخدم أجندتهم فقط.

_ كيف لك أن تجبري ابنك ـابن السادسةـ على صيام شهر رمضان معكم؟

استغربت من هذا الكلام ولكن بعد توضيحهم أدركت ما يقصدون. لقد سألوا ابني قبلا بالمدرسة ''هل تفعل رمضان؟ '' وقد أجاب الصبي بطفولته بالإيجاب عن سؤالهم الخبيث.

_ لِمَ سألتموه إن كان يصوم أو لا، لقد فهم بسؤالكم ''هل تحيون شهر رمضان في بيتكم؟ هل تعدّون الزينة؟ هل تحضرون المأكولات والحلويات؟ ''، ابني لا يصوم وبالمناسبة اسألوا مدرسته فهو يتناول وجبة الغداء في المطعم المدرسي.

كان الجواب الأخير والصفعة الأخيرة على وجوههم، تتلون وجوههم الماكرة، يتمتمون أو يسبون، يطمئنونك في آخر الموعد أنهم سيتعاونون معك، لكنهم كاذبون ويعلمون في قرارة أنفسهم أننا نعلم أنهم كاذبون.

الموعد الثاني كان مع زوجي وكانت الأسئلة تقريبا عن تعرض الأبناء للتعنيف وإجابته بالسلب عنها، عند يأسهم منا وفشلهم في جرّنا إلى خانة الأولياء المهملين المقصّرين والقساة، سألوا زوجي سؤالا مضحكا:

_ هل تضربك زوجتك؟

فلم يتمالكْ نفسه، وضحك:

_ ليس في ديننا ولا عُرفنا ولا ثقافتنا زوجة تضرب زوجها.

سكتوا وأنهوا اللقاء والابتسامة على وجهه.

لم يتبقّ لهم إلا الأطفال ليستدرجونهم، فكانت الأسئلة مكتوبة على بطاقات، هل تحبّ أمك؟ هل تحبّ والدك؟ هل أنت سعيد؟ هل أنت راض؟ أيزعجك أمر ما في البيت؟ هل تُضرَب؟ هل يصرخ عليك أحد في البيت؟ أسئلة تلخّص مدى رضاهم بحياتهم معنا. جنّ جنونهم حين علموا برضى أطفالنا وسعادتهم معنا، لم يتقبلوا الأمر واعترضوا على ذلك، قالت لي المسؤولة:

_ من غير المعقول أن تكون أجوبتهم كلها إيجابية، ربما هي أمنياتهم؟ قلت لها كيف ذلك؟ قالت نحن نرى أنهم يتمنّون أن يكونوا سعداء وأن لا يُضرَبوا.

_ لنفترض أنهم أجابوكم بالسلب، كيف كنتم ستتعاملون مع الأمر؟ وإن كنتم ترون أنهم مُهملون حقا، فأين هي أدلتكم على ذلك وأنتم تستطيعون الوصول إلى جميع أطبائهم وسؤالهم على ذلك؟ فهم يتابعون عند أطبّائهم (طبيب العيون، طبيب الأسنان، طبيب الأطفال) بشكل دوري ومستمر، ملفاتهم الطبية شاهدة على ذلك.

_ المشكل أنهم متفوقون دائما، كيف يتسنّى لهم ذلك دائما.

_ عجيب! أصبح التفوّق هنا مشكلة؟ هو يحب المدرسة، هو يشبهني فأنا كنتُ أحب الدراسة في صغري وكنتُ ذكية جدا.

انتهى اللقاء معهم وعدت بأولادي وصوت واحد يتردّد في أذني، أهربي بهم.

بعد أيام اتصل بي زوجي وقال لي:

_ سأخبرك خبرا لكن لا تخافي رجاء.

علمت أنّ الأمر متعلق بولدي، فخفتُ تلقائيا وسألته أن يخبرني فأجابني:

_لا تخافي؛ لقد أتانا استدعاء من الشرطة يطلبون فيه الأطفال.

_ألم يخبروننا أنّ الأمور جيدة؟ وأنّ القضية انتهت؟ ألم يسألوا الأطباء؟ ألم يسألوا المدرسة؟ سألته بهستيريا ولم أنتظر ردّه، فقد كان مثلي لكنه كان يتظاهر بالثبات. أنهيت المكالمة بحزم:

_ أنا سأسافر بطفلي إلى الجزائر.

خرجتُ من عملي متحجّجة بظروف طارئة، حملت جوازات السفر واتجهت في القطار بصغيريَّ إلى المطار. كنتُ أحسّ أنّ الطريق لا يريد أن ينتهي، وأنّ المسافة تتضاعف بدل أن تتناقص، والمطار يبعد كلما اقتربنا منه. سافرت بجوازاتنا الجزائرية لكيلا نلاحق. وأحمد الله حمدا متواصلا أنّ بلدي لا تملك اتفاقيات تخول لفرنسا مطاردتنا على أرضها واستعادة الأطفال، فكونهم مجنّسين يعدّون مواطنين يحقّ لفرنسا استعادتهم. كانت المرة الأولى التي لا نستمتع بها في المطار، كنت أتمنى لو تُعجّل الإجراءات أكثر ويُقدّم موعد الطائرة، ركبنا الطائرة وقد عشت فيها لحظات انتظار قاتلة، كل ثانية أنتظر دخول الشرطة إلى الطائرة ليأخذوا ولدي مني، وحينما أقلعت حلّق قلبي عاليا وهدأ. حينما حطّت الطائرة على مدرج مطار هواري بومدين، أحسست بشعور فريد، شعور مختلف، شعور النصر ... النصر بافتكاك أولادي من مطحنة السوسيال الفرنسي.

لقد اختفت رعشة اليدين التي أصابتني منذ الاتصال الأول في إسبانيا، لم يعد هناك ما يخيفني في بلدي الجزائر على الرغم من أني كبرت، تعلّمت، تزوّجت وأنجبت في فرنسا إلا أنّها سلبتنا الأمان بعد ذلك، لطالما أحسستُ بالعنصرية في كل مكان ولجته بالرغم من أنني فرنسية الجنسية، ولطالما كنتُ متفوقة في

دراستي ومحسنة في عملي، لكنهم دائما ما يعاملونني كوني عربية ... يشعروننا دائما أننا بالأسفل وهم فقط بالأعلى.

وصلتُ الجزائر برأس مالي الحقيقي وهم أولادي، أمّا متاع الدنيا الفاني فقد استثمرت كل ما أملك في فرنسا، لم أفكر يوما أنني سأغادرها يوما. حتى مستقبل أولادي أمّنته هناك. في البداية وجدتني وحيدة من دون أهل؛ فأهلي كلهم تركتهم خلفي ودون زوجي، لكن سرعان ما تلاشى ذلك الإحساس حينما أحسن الناس معاملتي وسهلوا أموري خاصة المدرسة التي فتحت أحضانها لأولادي بعد يومين فقط من وصولنا وأبدوا استعدادهم لتعليمهم اللغة العربية ومساعدتهم في الاندماج، وما لبثوا أن اندمجوا بسرعة مذهلة مع زملائهم.

لم يعد هناك سوسيال يتصل أو شرطة تستدعي الأطفال، لم يعد هناك قاضي يصدر قرارات جائرة، لم يعد هناك ذلك الخوف الذي يهز الكيان هزا، اختفى ذلك الصوت الذي يهمس مرارا في أذني "ماذا لو طرقوا الباب الآن وانتزعوهم منك كما انتزعوا أبناء من قبلك؟ ماذا لو تكررت تلك المشاهد التي رأيتها في منصة اليوتيوب وكان المسرح بيتك والأطفال أبناءك؟ ماذا لو؟ ماذا لو؟ ماذا لو؟".

استدعت الشرطة زوجي وسألوه عنا وأخبرهم أنني نزلت بطفلي إلى الجزائر حيث سأفتتح مشروعي الخاص، فأعلموه أنهم سيبلغون القاضي بعدم حضور الأطفال. واتصلت به موظفة السوسيال بعد ذلك وحاولت طمأنته وأن يعيد الأطفال إلى فرنسا ووعدته أنّ القضية ستغلق. حينما طلب منها أوراق تثبت أنّ القضية أغلقت تحجّجت أنّ الأمر يستغرق أشهر لإصدار هذه الأوراق. كنّا نعلم خبثهم ولم نكن لنصدقّهم فحتى لو أغلقت القضية ذلك اليوم، فما المانع أن يعيدوا فتحها في اليوم الذي نعود فيه إلى فرنسا؟ كنّا نعلم أنهم يستدرجوننا ليختطفوا طفليَّ عند آخر خطوة في سلّم الطائرة، لقد فعلوها مع عائلات غيرنا وثقوا بهم.

أنصح الجميع بالتفكير مرة، اثنين، ثلاثة وأربعة ... التفكير كثيرا بأطفالهم، أخاف الآن على الأطفال الذين أعرفهم من الاختطاف، أطفال العائلة، أطفال أصدقائي، كل الأطفال الذي يكيدون لهم من خلف مكاتبهم. أخاف عليهم جدا من هذا المصير المجهول. أنصح الجميع خاصة المهاجرين الذين تنعم أوطانهم بالأمان بالعودة إلى أوطانهم أو إلى بلدان مسلمة، أعرف جزائريا خطفوا أطفاله الثلاثة وزوجته فرنسية الأصل، لم يرحموا ابنة جلدتهم وأبلغوها أنهم سيفتكون بالطفل الرابع الذي ببطنها عند ولادته، غادرت إلى الجزائر بجنين في بطنها وثلاث حسرات في قلبها... التفكير بألمها فقط مؤلم جدا!

بلاغ ضد أولاد عقيم!

كنت أُحسَد على العيش في السويد، حياة الرفاهية التي كانت تظهر للعيان لكنني لم أنعم فيها بالراحة، كنتُ دائما خائفة جدا، خائفة في طريقي لجلب ابني من مدرسته، خائفة أن أستقبل مكالمة من السوسيال، خائفة عند الحديث مع صغيري، أنتقي معه الكلمات كلمة كلمة، خائفة من نظرات الجيران وتنصّتهم، خائفة في حركاتي وهمساتي وأقوالي مع أولادي خوف الاختطاف. بعد نومهم أدثّرهم بالأدعية وأحصّنهم بالأذكار وأبكي أول الليل كله. عندما رأى زوجي المتفهّم الحالة التي أضحيت عليها وأنني أصبحت جسما بلا روح بسبب شعور الخوف الدائم الذي لا يعلم كُنهه إلا من عايشه، راعى مشاعري وقرر أن يعيد لي روحي ببعثي مع الأولاد إلى وطننا الذي لم يكن لنا وطن غيره. وآثرنا على نفسه وراحته وقرر المكوث ليعيلنا؛ فقد كان قرارا مفاجئا ولم نحضّر له مسبقا ليذهب معنا.

خوفي بدأ منذ مشاركتي في مظاهرة أمام البرلمان في ستوكهولم، أردتُ التضامن مع أهالي الأطفال المختطفين من قبل السوسيال، سمعتُ قصصا لم أسمع بها في حياتي من قبلُ، قصصا يشيب لها الولدان، كيف لهذه المحن أن تبقى حبيسة الجدران؟ كيف لهذه المشاعر السيئة أن تبقى خبيئة الأفئدة؟ أهالٍ يبكون دما على أولادهم، هم المتهمون بإيذاء أطفالهم وعدم أهليتهم للتربية يصارعون الجليد وينامون بالعراء أمام البرلمان ويتحملون نظرات الشفقة وتضييق رجال الأمن.

لأكنْ صريحة معكم، لقد سمعتُ قصصا لم أصدّقها في بداية الأمر، مستحيل أن يحصل هذا الأمر في دول مصنفة في المراتب الأولى في مؤشر السعادة، هناك مبالغة في الأمر. تسمع الناس هناك يقولون أنت عليك عدم ضرب الأطفال والصراخ عليهم ولن يحدث شيء، لكن الأمر مغاير ... ستطالك أيديهم إن فعلت أو لم تفعل. لن يرضوا عنك ولو صبغت شعرك بالأصفر ولبست عدسات زرقاء وتحدثت لغتهم بطلاقة، قريبي مكث بالسويد أربعة عقود ونيف، أسس عيادته النفسية الكبيرة وحقق المال الذي يحلم به الكثيرون في بلداننا وعندما بلغ من العمر عُتيّا عاد إلى بلدنا. زرته في مرضه الأخير وقال لي بالحرف الواحد: "لن يرضوا عنك ولو انسلخت عن بشرتك، ها أنت قد رأيت مجدي الذي بنيته وسمعتي التي بلغت الآفاق وتزوّجت منهم وأنجبت أطفالا يشبهونهم، برعت في علاج مرضاهم ولكنني عُومِلت كالغريب حتى آخر يوم أقمتُ فيه بين ظهرانيهم، بنيّتي، احمِ نفسك منهم ما استطعت."

لقد كان كل ما قاله صحيحا إلى أبعد حدّ، وقد عشتُ تجربة تؤكد ما قاله فقد أجريت عملية جراحية مستعجلة على المرارة وتركت ولديَّ عند صديقة عربية لي تعيش وسط سويديين بحكم أنّ زوجي سيرافقني أثناء العملية، صديقتي هاته ـبارك الله فيها ورزقها من فضله- لم تنجب منذ خمس سنوات وهي تعالج وزوجها من أجل الإنجاب. عند التاسعة مساء؛ ذلك اليوم أتتها ثلاث سيارات شرطة وسيارة رابعة خاصة بالسوسيال، طرقوا بابها وأبلغوها أنّ ضدها بلاغ قلق من الجيران مفاده أنّها تعنّف أولادها منذ أسبوع، فسألتهم بدهشة: ''أحقا هذا الأمر؟ ''فأجابوها بالإيجاب، فسألتهم: ''ولمَ لَم يكن البلاغ أول الأسبوع؟ '' فأجابوها بأنّ المبلغين أرادوا التأكّد وخلصوا إلى أنك تضربين الأطفال وتصرخين وقد سمعوا صراخهم أيضا. فأخبرتهم أنها عقيم ولا تنجب أولادا مذ تزوجت، لم يصدّقوها بادئ الأمر ودخلوا البيت وفتّشوه وفتشوا حتى أسفل السرير ولا أثر للأطفال!

طالبتْهم باسم المُبلغ لكي تشتكي عليه كونه سبّب لها قلقا من إنجاب أطفال سيُختطفون لأنهم لم يعنّفوا ولم يُصرخ عليهم، أغلقت الباب وجلست عند أول كرسي في الصالة وانهمرت على رأسها الكثير الكثير من الأسئلة وانقبض قلبها لهذا الأمر، تستوحش بيتها لأنّه خالٍ من الأطفال، من بكائهم، صراخهم، ضحكهم، لعبهم ونشاطهم. الأولاد زينة الحياة الدنيا، هي وزوجها يعالجان ويتكبّدان مصاريف العلاج ومستعدان على إنفاق مال الدنيا لرؤية ابن لهما ومستعدان أن يفديانه بروحيهما ليعيش عيش السعداء، لكن ... ماذا لو طرق السوسيال بابهما يوما واختطف ابنهما مهجة الحياة وروح الروح بسبب بلاغ كيدي من جار سوء؟ كيف لهم ذلك؟ بهذه السهولة تحطّم حياة ثلاثة أشخاص؟! أتتها الشرطة والسوسيال في آن واحد وكأنّ الأمر محسوم وقرار السحب جاهز ولا يحتاج الأمر إلى تحقيق! التحقيق في تعنيف أطفال غير موجودين أصلا! حتى أنها تعجبّت من مصدر الضجيج الذي اشتكى منه الجيران، وولديَّ –بشهادتها- لم يصدرا ضجيجا، كانا هادئَين ومارسا هواية الرسم طوال مكوثهما عندها.

لم تبلغني صديقتي بالأمر إلا بعدما شفيت تماما خوفا عليّ، وأخبرتني أنها لم تعد تريد أطفالا بعدما كانت تفعل المستحيلات لذلك. طرقة خفيفة على بابها كسرت إرادتها في أن تكون أمّا.

قرار زوجي كان بعد تلك الحادثة، قرر حمايتهم وبعث بنا إلى بلدنا، لم يكن قرارا سهلا؛ فزوجي متعلق بولدَيه أيّما تعلق، لكنه قدّم حبه لهما على سعادته معهما، لم يكن مستعدا أن يجعل حياتنا مرهونة بمزاج موظف السوسيال، إن كان جيدا سيتركنا لحالنا ولو وساء مزاجه ذاك الصباح سيدّمر أسرة بكاملها. الأمر ليس

كما يعتقد بعضهم أنه يخضع لقوانين وشروط صارمة، فكما قلت سابقا بلاغ كيدي من جار عنصري ضد ضجيج أطفال غير موجودين وسينتهي بك العمر كله تبكي دما. لقد خفّ أمر غيابنا على زوجي مع تسارع الأحداث هناك وتكشّف الحقائق؛ فقد أصبح يحمد الله كثيرا وقال لي:

_ الحمد لله أنني بعثت بكم خارج هذا الجحيم، على الأقل أنا أستطيع الاتصال بأبنائي وقتما أردت وزيارتهم وقتما شئت وأنتم الذين تبعدون عني آلاف الكيلومترات، بينما هناك آباء هنا بالسويد يعاقبون إذا اقتربوا مسافة معيّنة من أبنائهم، يسمح لهم بزيارات قليلة متباعدة وإذا أخلّوا ببند من البنود _التي وضعت لإبعاد أطفالهم قسريا عنهم_ يحرمون من زيارتهم إلى الأبد ...

ما دمت في هذه الدولة فهناك دائما نسبة اختطاف لأطفالك خاصة إذا كنت لاجئا أو مهاجرا وكان أولادك صغارا. السوسيال لا يريد أطفالا كبارا يريد الصغار، فهم كالعجينة يشكّلونهم كما أرادوا، أطفال على الفطرة فيمنحونهم لأسرة نصرانية فتنصّرهم أو لأسرة يهودية فتهوّدهم أو لعائلة من أبوَين شاذَّين فلا تعرف الأم فيهما من الأب. طفل يكبر على قيمهم ومبادئهم المنحلّة حتى إذا بلغ سنّ الرشد القانوني عندهم خُيِّر فيه بين عائلته الحقيقية وعائلته الحاضنة، فسيختار الأخيرة؛ لأنه لا يتذكر من عائلته الحقيقية إلا السوء. لماذا؟ لقد تمت عملية شيطنتها بنجاح من قبل السوسيال أو العائلة الحاضنة، وكما أنّ صدمة اختطاف الطفل من والدَيه تفعل بنفسية الطفل الأفاعيل، فحتى زيارات الأبوَين له القليلة المسموحة لهما تفقد الطفل الثقة بهما، فيصبحان في نظره أنهما لا يريدانه ويأتيانه في الزمان الطويل مرة واحدة، صحيح أنهما يأتيانه بالألعاب في تلك الزيارات الطويلة وكل ما يحبه لكنهما لم يعودا جزءا من يومه، لم يعودا يصطحبانه إلى حديقة الألعاب، إلى المسبح حيث أصدقاؤه أو إلى المطعم الذي يبيع تلك البطاطا الشهية أو أصابع الجبن اللذيذة، لم يعودا يحبانه كما كانا، لم يعودا به في كل تلك المرات إلى البيت حيث كانوا يلعبون مع بعض، يأكلون، يشربون، يحتفلون، يصلون، يكتشفون الحشرات في حديقة المنزل، يرددون الأدعية والأذكار التي تحفظهم من الشرور، يخترعون تلك الألعاب المسلية، لمْ تعدْ هناك قصص قبل النوم، لمْ يعدْ هناك ذلك الأمان.

كان ابني ذو السابعة من عمره يعي ما يجري معنا فأخبرته أننا سنذهب إجازة إلى بلدنا وسنعود، لا يؤتمن الأطفال على الأسرار، وعند وصولنا استعنت بطبيبة نفسية ونصحتني أن أصارح ابني الكبير؛ فالصغير ذو الثلاث سنوات ما زال صغيرا لا يعلم، فصارحته أننا لن نعود للسويد لأنّ بها مشاكل ومعوقات، ابني بالرغم

من أنّه من أبوَين عربيّين ومولود فقط في السويد إلا أنّ له ولاء غير طبيعي للسويد لدرجة أنه يقول لي: أنا سويدي مسلم، فأحاول أن أصحح له أنه مسلم عربي، فيرفض ويقول لي: أنت وأبي عربيان، أمّا أنا فسويدي مسلم ولست عربيا، فاضطررت أن أخبره الحقيقة كاملة عن هذا البلد الذي لا يحبه وهو متشبث به، قال لي بالحرف الواحد: أنت تكذبين، كلام خطير من ابن السبع سنوات، قال لي لقد أتاني رجال الشرطة إلى دار الحضانة وتغدّوا معنا في طاولاتنا نفسها وقالوا لنا: أيّ أحد يتجرّأ أن يصرخ عليك أو يضربك اتصل بواحد .. واحد .. اثنين وأشار إلى فمه .. أنفه .. عينيه .... لكيلا ينسى الطفل الأرقام. تسمّرت في مكاني لِما أسمعه لأول مرة، ابني الذي يحكي لي كل شيء يحدث معه لم يحكِ لي هذي الحادثة من قبلُ، بعد استشارتي للطبيبة النفسية أريته فيديوهات لأطفال يبكون وقلت له ها هي الحقيقة أمام عينيك وها هو كلامهم السويدي الذي تفهمه، ذهل مما رأى وأخبرني أنه لا يريد العودة إليهم مجددا. ما زال مصرّا على عدم العودة حتى الآن ويصر على والده أن يعود هو أيضا، فلم تعد السويد في نظره ذاك البلد الآمن.

وأذكر في نهاية قصتّي قصة صديقتي التي أصيبت بالسرطان شفاها الله وعفانا- أول الأسئلة التي طرحت عليها عند دخولها المستشفى ''هل عندك أطفال؟'' وحينما أجابت بالإيجاب لمعت أعين الذئاب وسال لعابهم، اقترحوا عليها وضع بناتها أثناء علاجها عند أسرة حاضنة ترعاهم حتى تتعافى ولكنها رفضت بحجة أنّ لديها أقارب وصديقات سيتولون هذا الأمر، لم يرتاحوا لقرارها؛ فهم من عليه أن يقرّر لا هي. وتناوبْنَ عليها -نحن صديقاتها- واعتنين لها بالمنزل وبناتها، وعندما كانت الممرضة تزورها بالمنزل لتغيير الضمادات كانت تسترق السمع والبصر لعلها تجد سببا لخطف بنات المرأة المسكينة، وحينما تجدنا معها نساعدها تخيب ظنونها حتى أنّ يوما عادت فجأة بعد مغادرتها متحجّجة أنها جلبت فيتامينات لم تُطلب منها في الأساس فقط لتعرف إن كان وجودنا مرتبطا بوجودها فقط أم أننا نساعدها وبناتها طوال اليوم، إنسانيتها اللامتناهية دفعتها لمساعدة المرأة المريضة بالفيتامينات لتدكّها بخنجر مسموم في قلبها لاحقا بسرقة بناتها قانونيا ليوضعن في عائلة غريبة تربّيهن، لم ترحم عجزها ولا جسدها المنهك بالعلاج الكيماوي ومبضع الجراح وعادت لتتلصّص لا لتساعد. بعد ذلك اليوم أتت ممرضة أخرى ومرافقتها التي كانت تلبس مثلها لكن من أسئلتها الكثيرة حول البنات تبيّن لنا أنّها موظفة سوسيال، كنت قد هيّأت أنشطة تعليمية للبنات في غرفتهن كي ينشغلن عن ما يحاك بالخارج، لكن الموظفة الممرضة استأذنتنا لرؤية البنات ووداعهن! لا تعرفهنّ ولم تلتقِ بهنّ قبل ذلك، فلمَ تودّعهن؟ لكنها الإنسانية من تحرّكها! دخلت الغرفة وجال بصرها في كل زاوية بها وركن وكأنّها تبحث عن شيء أضاعته، خرجت من الغرفة وبقيت تدقّق بنظرها

في ما تبقّى من الغرف حتى خرجت أغلقت وراءها الباب، لا أدري هل وجدت ضالتها؟! هل وجدت سببا يكتب في التقرير أم أنها ستستحدثه!

أنصح جميع الأسر التي لا تشعر بالراحة أو حتى الأسر التي تشعر بالراحة الخادعة اتخاذ خطوة لحماية أبنائهم من ظلم السوسيال وظلمة مراكز الإيواء قبل فوات الأوان والبكاء على الأطلال.

نظرات العَداء !

جالسة على أريكتي الخاصة بالرضاعة، أنظر على يميني فيقابلني منظر الغيوم الرمادية الملبّدة وتحتها المنازل سوداء الأسطح المرصوصة على مد الأفق، الأشجار تقف وحيدة عارية، لا يتكلم بعضها مع بعض، تشبه السكان هنا في السويد! لا أحد يمشي في الشارع؛ فالوقت متأخر جدا، أنظر على يساري فأرى ملابس رضيعي التي غسلتها وطويتها، اشتريت له الكثير من الملابس، نصحني الأمهات بعدم الإكثار من ملابس الطفل، لكنني كنت متحمّسة لطفلي الأول وأنا ابنة العشرين.

كنت أعاني طوال فترة حملي بابني معاناة شديدة، فكنت أستفرغ كثيرا حتى أصبت بالجفاف. أثّر ذلك كثيرا على وزن جنيني وصحته، ولدته بعملية قيصرية في الشهر الثامن ووضع في الحاضنة الزجاجية، كانت العملية صعبة جدا وخُدِّرتُ بشكل كلي حتى أنني لم أستطع أن أحمل رضيعي حالما استفقت، خانتني قواي لكن قلب الأم نبض بداخلي، يقال أنّ الساعات الأولى للرضيع تعدّ ساعات ذهبية فأثناءها يتم تعزيز علاقتهما، أتتني الممرضة وطلبت مني حمله، فأخبرتها أنني لا أستطيع وضعه علي، فجسمي كله يؤلمني وأخاف أن لا أقوى على حمله. بدأتُ بإرضاعه بصدري وبقيت معه شهرا كاملا بالمشفى لينمو وتتحسن صحته، أرضعته بانتظام كل ساعتين، كم هو رائع إحساس الأمومة حينما تبدأ باكتشافه، ذلك الإحساس الفطري الذي جبلنا عليه نحن معشر النساء. كنتُ سابقا إذا نمتُ لن يستطيع إيقاظي لا المنبه المزعج ولا حتى الآدمي الملحاح، أمّا ليلتي الأولى بعد وضعي فقد بُرمِج مخّي تلقائيا على راحة رضيعي، يرنّ منبه الهاتف كل ساعتين فأستيقظ مباشرة وأتجه إلى أميري النائم، يؤلمني أن أفسد عليه نومته لكنني مجبرة لا بطلة، أرضعه ثم يكمل نومه وأعود إلى سريري، فأنام وأحيانا كثيرة يهرب النوم من جفني هروبا، لم يكن سهلا البقاء وحيدة أثناء فترة نفاسي حيث تحتاج الأم في هذا الوقت إلى مزيد دعم نفسي ومعنوي.

طرقوا باب غرفتي بالمستشفى فاستغربت من ذلك الطارق الذي يزورني، دخلت عليّ موظفة السوسيال لتبلغني أنّ هناك بلاغ قلق من ممرضة تتّهمني فيه بعدم منح الحنان الكافي لولدي!! قالت لي:

_ ربما أنت تعانين من نقص حنان، أو أنك لا تريدينه.

_ كيف لا أريد صغيري، عشتُ الويلات في حمله وتحمّلت كل ذلك من أجل رؤيته.

_ البلاغ واضح.

_ لقد كان صغيرا ولا أستطيع حمله إلا قليلا، كيف لي أن أحمله وهو في الزجاجة وقد ركّبوا له أنبوب الأنف ليدخلوا من خلاله الحليب بعد أن أشطفه.

_ سنأخذ ما قلت في عين الاعتبار.

وخرجت الموظفة من عندي ولم آخذ زيارتها عل محمل الجدّ.

بعد مرور شهر خرجت بابني لبيتنا الجميل، كنت أتطلّع إلى هذا اليوم الذي سيجمعنا فيه سقف بيتنا، لم تمر ساعات قلال حتى دق الباب، أمر غريب، لمْ يكن هناك زائر قد استأذننا للقدوم ولم يكن ثَمَّ جار يعرفنا ليدق بابنا ويأتي لنا بحلوى النفاس، لا أحد سيأتي! لكن السوسيال طرق الباب.

رنوا الجرس أسرع زوجي لفتح الباب خوف أن ينزعج ابني ويستيقظ من نومه، دخلت الموظفتَين، جلستا على الأريكة، وسألتنا عن ابننا، أجبناها أنه نائم، نطقت إحداهن: ''أنا أسمع بكاء''، فأجبتها أنني لا أسمع هذا البكاء الذي تسمعه، باب الغرفة مفتوح قليلا، توجّهنا بهما أنا وزوجي حيث يغطّ ذلك الأمير في نومه، كم كان رائعا وجميلا وبريئا، ابتسامته أثناء نومه كانت تأسر فؤادي.

كتبتا في تقريرهما أنّ ابني كان يبكي ولم أراع ذلك! يعني أنني تركت الابن يبكي! كان كذبهما عليّ أمر لا يصدّق!! لنفترض أنني حقا أمّ قاسية ومهملة وسيئة، كيف لي أن أقيم الحجة على نفسي أمامهما؟ كيف لي أن أتركه يبكي أمامهما وأثبت لهما أنني حقا أمّ سيئة؟ هل يعقل أمر كهذا؟ كانوا يعلمون أنني أمّ جيدة وأنني متمسكة بابني حتى النهاية، لم يجدوا دليلا يثبت ادعاءاتهم الكاذبة فكذبوا كذبة سخيفة، لكنها مؤسسة السوسيال، السلطة الجائرة التي إذا أرادت أمرا فإنها ستسخّر له كل إمكاناتها المتاحة، فحتى الكذب السخيف منهم يصبح حقيقة دامغة، لقد أرادوا ابني مذ كان جنينا في بطني وكنت حينها لا أقوى حتى على الوقوف من سوء تغذيتي.

اتصال من مركز السوسيال الرئيسي:

_ بناء على شكوى الممرضة وتقرير الموظفتَين سنضعك وابنك في '' الهوفي بيه''.

و''الهوفي بيه'' لمن لا يعرفه هو بيت قديم في قلب الغابة يقطنه ضحايا السوسيال، يبقونك تحت المراقبة كلّ دقيقة. حينما اعترضت على قرارهم خيّروني:

_ إمّا أن ننزع ابنك وتبقين في بيتك وتمارسين حياتك أو ترافقيننا معه إلى هذا المكان.

كانوا مصرّين على أخذه كثيرا فأجبتهم أنني سأرافق ابني حيثما أُخِذ، طمأنوني أنّي سأمكث شهرا أو شهرَين ليراقبوا تصرفاتي مع ابني وبعدها سيخرجوننا، رفضوا مرافقة زوجي لنا بحجة أنه سويّ ومعاملته لابننا جيدة ولم يسندوا له رعاية ابننا؛ لأنه لا يملك الجنسية السويدية ولا حتى الإقامة؛ فهو في نظرهم غير مخوّل لرعايته. أعطوني غرفة واحدة في ذلك البيت الموحش، اشتقتُ إلى بيتي، وكنت كلما سألتهم لماذا أتوا بي إلى هذا البيت -أو بالأحرى الكوخ-؟ ومتى سأخرج؟ كانوا يتجاهلونني ولا يجيبون، لم أكن لوحدي، كان هناك الكثير من الحالات التي تشبهني من المهاجرين، لم يكن ثَمَّ سويديون وإن حدث ووجدوا فبمحض إرادتهم ولا يخضعون للقوانين التي يخضع لها اللاجئون.

مرت ثلاثة أشهر في ذلك البيت الذي كان يعدّ جحيما دنيويا. أنت مراقب على مدار اليوم من قبل الموظفات السويديات، يكتبنَ متى تستيقظ، وماذا وضعت في فمك من أكل وشرب، يكتبن حركاتك وسكناتك، ضحكاتك ودمعاتك، كم حفّاضا غيّرت وكم منديلا مبللا استعملت، يكتبون عفويتك وجدّيتك، كتبوا أنني لا أطلع على ابني أثناء طبخي وقد كنت وضعته في مكانه ليلعب أمام ناظري. كتبوا أيضا أنني أرمق ابني بنظرات عدوانية، أحيانا يدفعونني للجنون بهذه الملاحظات، لو لمْ أُرِدْه لما أردت حمله وولادته من الأساس، لو لم أكن أريده لأعطيته لهم منذ اليوم الأول، لتركته في رعايتهم وأذهب حال سبيلي، هم لا يفهمون أنه قطعة مني، وأنني لا أستطيع الاستغناء عليه ولو لدقيقة واحدة، نعم لدقيقة واحدة.

كتبوا أنني أتماطل في تغيير حفّاضته! عندما سمعت هذه الملاحظة أحسست أنّ رأسي فارغ، لم يكن هناك دماغ يحلل ما يستقبل ويخرجه، في تلك الفترة تعمل الأمّ كلّ ما في وسعها لكيلا تسجّل في حقها ملاحظات سيئة، كنت أتركه حتى ينهي قضاء حاجته ثم أغيّر له بكل حب وسرور، هذا ابني، لو كان حيوانا بحفاضّة لما تركته في أدرانه كي يتأذّى، فما بالكم بابني؟! كيف لأمّ أن تعرض بشرة صغيرها الحساسة للتسلخّات! كيف أخاطر بسلب ابني مني بإهمال نظافته؟! وأين؟ في عقر مركز السوسيال، حيث الموظفات فوق رأسك يسجلن كل شيء، أو عند الباب يسجلن ما يسمعن، يدخلون الغرفة دون استئذان كأنّهم يلجون اسطبلا أو زريبة، لا يراعون خصوصية ولا عُرفا ولا أدبا. إذا أردت أن تشتري مستلزمات يسمحون لك بساعة واحدة في الأسبوع يرافقونك فيها، وعليك إمّا أن تتسوق أو تطالع ابنك!

لم يكن شهرا أو شهرَين، كانت ثلاثة أشهر من عمري، اتصل السوسيال بي وأخبروني أنهم سيزورونني، تعجبت من زيارتهم، لماذا يزورونني؟ انقبض قلبي لزيارتهم، فارق النوم عيني، أحسست أنّ هناك خطبا ما بالرغم من أنهم حاولوا طمأنتي على أنها زيارة للاطلاع على حالي وحال ابني، لم أعد أطمئن لطمأنتهم بل يتضاعف قلقي وخوفي، فكّرت في الهرب به لكن البيت كان تحت الحراسة ومزود بكاميرات مراقبة في كل ركن.

أتوا يوم الثلاثاء على الساعة الثامنة صباحا، أتت الموظفة وبرفقتها خمسة أشخاص، طار قلبي من مكانه، وحضرت الموظفات الأربع بالمركز.... تسعة أشخاص ضدّي أنا لوحدي وأحمل ابني، يا إلهي على كمّ الظلم والقهر الذي أحسسته في ذلك الموقف. تظاهرت بالجلد والهدوء وداخلي يغلي، سألتها:

_ لِمَ جلبت معك كل هؤلاء الأشخاص؟

_مجرّد زملاء. سألتهم لعلّي أجد أحدا صادقا:

_ لمَ أتيتم؟

أجابت ببرودهم المعهود:

_ لأخذ طفلك.

أتت اللحظة التي كنت أخافها مذ عرفتهم، الهروب كان الفكرة الوحيدة لإنقاذ ابني لكن كان هناك شرطيان يقفان خلف الباب. كل شيء كان مدروسا، كانوا يتحرّكون في الغرفة بأريحية تامة ولسان حالهم يقول:

_ سنأخذ الطفل ولتحترقي حتى الرماد!

خرجوا به وبقيت مصدومة، أخذوا حبيب الماما ووضعوه داخل سيارتهم، أحكم الشرطيان القبض عليَّ وصفّدوا يدي، لم أجد إلا دموعي عزائي في محنتي والصدمة أنهم يأمرونني بعدم البكاء، ليس أمرا وإنما هددوني بالحبس إن لم أتوقف عن البكاء! هذه حقوق الأمومة والطفولة عندهم! لمّا فكوا يدي من الأصفاد وقفت واتجهت نحو موظّفة السوسيال التي بالغت في طمأنتي في الهاتف وضربتها؛ لأنها بالغت في كذبها، ومثّلت دور الموظفة الطيّبة التي تريد الاطمئنان عليّ وهي قد أتت مضمرة كل شر العالم نحوي، أعادوا تقييدي وأمروني بالذهاب إلى بيتي عن طريق القطار وترك كل أغراضي بالمركز، أذهب لوحدي دون ابني، دون زوجي الذي سافر إلى دولة أخرى بعد أن ضيّقوا عليه الخناق، دون أهلي، دون قبيلتي، ودون أغراضي.

أوصلوني لمحطة القطار وقد حجزوا لي تذكرة مسبقا، حينما يضعون طفلا أو أطفالا بين أعينهم فإنهم يفعلون كل شيء ليخطفوه بسلاسة، أجبروني على دخول القطار ولم يغادروا حتى انطلق القطار، لقد تركت قلبي خلفي، ابني الجميل، حبيب الماما، لو جمعت الكلام المعبّر عن السوء والشر والأذى الذي تلقّيته ما كفته كلمات المعاجم.

وصلت البيت الفارغ بقلب فارغ ويدَين فارغتَين من ابني، جلست على عتبته واتصلت بالسوسيال أسألهم عن مكان وجود ابني ومتى يسمح لي برؤيته وعن سبب نزعه مني، أجابوني أنهم نزعوه لأنني لاجئة! وحتى بعد تعييني لمحامٍ للدفاع عني أخبروه أنهم سلبوا ابني؛ لأنّني لا أتقن اللغة السويدية ولا أغيّر حفاضة ابني مباشرة وأنني أنظر له بنظرات عدوانية، وأنام كثيرا، لم أكن أنام ليلا خوفا أن يسرق مني مكرا، كنت أبقى حتى الساعة الثانية فجرا أراقبه وأرقبهم، كنت تحت ضغط المراقبة اللحظية ولا أنام حتى أجهد من التفكير والتوتر والتعب. في الأخير قال لي المحامي أنني فعلت أقصى ما أستطيع فعله، لقد خسرتُ ابني في نهاية المطاف، وضعوه عند عائلة حاضنة تشتغل مع السوسيال، سمحوا لي أن أراه في الشهر مرّتَين، ساعة وأربعون دقيقة في الزيارة الواحدة، تمرّ دقائق الزيارة مرور الريح، لم يجلس بعدُ، لمْ أر حبوه ومشيته، لمْ أسمع كلمة ''ماما'' منه، لمْ ألعبْ معه بعدُ، لمْ نلعب لعبة المطاردة في حديقتنا الصغيرة ولا لعبة الغميضة ''الاختباء'' ولا حملته على كتفي. أصبحت الغريبة أمامه.

طالبتهم باستخراج جواز سفر له ورفضوا خوف أن أهرب به يوما ما. ربما بالغوا في ظلمهم؛ لأنني من دون الكويت وليس هناك من يردعهم.

أجرينا محاكمتَين وطلبتُ من المحامي المحاكمة الثالثة لكنه طالبني بالانتظار لتوقّعه أنني سأخسر في هذه المحاكمة أيضا ...

سارة ابنتي ... كفرت !

''سارة... سارة ابنتي، لقد تنصّرتْ وعلّقتْ الصليب على رقبتها... صليبا كبيرا على رقبتها'' لن يحس بهذه الكلمات إلا مسلم قد احترق قلبه على فلذة كبده، سأتحمّل ابنتي مريضة فأداويها وجائعة فأشبعها، عطشانة فأرويها، جاهلة فأعلّمها لكنني لا أتحمل مشهد ضياع دين ابنتي وهي ماثلة أمام عيني، ابنتي تنصّرتْ وأصبحتْ تأكل لحم الخنزير وتشرب الكحول، وتشبه بنات الليل المترنّحات في ظلام الشوارع الدامس، يلقيها جدار ويستقبلها آخر، نعم .... لقد وصل السوسيال إلى مبتغاه!

بدأت مشاكلي مع سوسيال السويد في عام 2012 حينما أخذوا ابنتي سارة وأعدتها بقوة المحكمة، لن أقول أخذوها بل اختطفوها مني خطفا، خطفوها للمرة الثانية عام 2015 وأعدتها أيضا، لكن سنة 2020 ذهبتْ لهم بمحض إرادتها. نصيحتي للجميع تجنبوا استعمال اللغة السويدية في بيوتكم، تحدّثوا بلغتكم الأمّ حتى حين تصل أموركم مع السوسيال إلى المحكمة تحدّثوا مع أبنائكم اللغة العربية كي لا يفهموكم. لقد غسلوا دماغ ابنتي سارة، ابنتي سارة ... قرّة عيني ... سعادة قلبي قالت لي بالحرف الواحد لا أريد العيش معك بعد الآن، قد تتقبّل الخيبة من الجميع، لكن خيبة الأبناء تكون مُرّة لاذعة لا يمكنك تجاوزها، لن تفارق المرارة حلقك حتى توافيك المنية.

أصبحت سارة مثل بنات الليل، يداها مملوءتان بآثار شفرات حادّة، ابنتي تغيّرت تغيرا جذريا، سارة التي ربّيتها على الإسلام وكلمة التوحيد، التي لقّنتُها الشهادتين في حداثة سنها وحفّظتها القرآن الكريم وحدّثتها عن الأنبياء والصحابة والصحابيات، علّمتها الحلال والحرام، فاتخذت من دينهم دينا لها وجعلت الحرام حلالا لها.

لقد هربتُ بأبنائي إلى دولة مسلمة خوف أن يواجهوا المصير نفسه، لقد استقرّينا هناك وبدأنا حياة جديدة بعيدا عن جشع السوسيال وخبثهم، السوسيال تلك المؤسسة الوقحة التي سألتني بتبجّح: ''لماذا تريدين ابنتك؟''، أيعقل أنْ يُسأل المرء سؤالا كهذا... أن يُسأل لماذا يتنفّس؟!''، لقد اغتصبت في البيت الذي نُقلتُ إليه. حضرتُ محاكمة المغتصب عن طريق الإنترنت وتشاجرت مع القاضي وموظّفي السوسيال وسألتهم: ''لماذا تختطفون أطفالنا نحن المسلمين والعرب؟ لماذا نحن بالذات؟ لماذا لا تختطفون أولاد السويديين الأصليين؟'' ولمْ يجيبوا عليّ ولو كانوا يملكون الإجابة. لقد اغتصبها الرجل الذي ائتمنوه عليها -حسب زعمهم- ووضعوها عنده لتربيتها ورعايتها فاغتصبها، لقد حكموا عليه بستة أشهر وخرج من السجن

معززا مكرما في بلده. وها هي ابنتي محطّمة نفسيا ومغتصبة وأسرتي مفكّكة وكل فرد يعاني ما يعاني من هذه الدولة الظالمة. لقد قضيت عمرا طويلا في أوروبا بين إيطاليا والسويد، عمرا أخذت فيه درسا قاسيا ومكلفا جدا، عرفت أوروبا على حقيقتها دون تلميع الإعلام ولا آراء المنبطحين لها ... رسالتي لسارة فربما يتسنّى أن تقرأها يوما ما:

سارة ماما، أنا أمك وأريد الخير لك فقط، لا أريدك أن تَضُلّي هذا الضلال، لقد أطعمتك اللقمة الحلال من جهدي في شغلي، أقسم أنهم شياطين إنس، اليوم يضحكون في وجهك وغدا سيطعنونك في ظهرك ويرمونك للكلاب. عندما تبلغين الثامن عشرة سنة سيخرجونك من بيت السوسيال، إلى من ستلتجئين؟ بمن ستحتمين؟ إلى أين ستذهبين؟ لقد غادرنا نحن هذا البلد، فأيّ باب ستطرقينه ويفتحون لك؟ لا باب سيفتح لك في غيابنا، أحبّك أكثر من نفسي يا سارة حبيبتي، ولا أريد لك الضرر أينما كنتِ، أحبّك حتى في اختيارك البُعد عني وعدم تقبّلك لي، أقسم بالذي رفع السماء بلا عمد أنني أحبّك. أبكي عليك في ظلام غرفتي كل ليلة، طلبت من أناس كثر التواصل معك كي تردّي على اتصالاتي وألا تغلقي الهاتف في وجهي، أتذكرين يوم أغلقت الهاتف في وجه أبيك؟ لقد بقي يبكي ويقول لي: ''المصيبة أنني أحبّ سارة أكثر من بقية إخوتها''، ستندمين يا سارة إن استمريت في هذا الطريق.

أريد أن أضيف قصة أخرى مع قصتي، التقيتُ ذات يوم جارة جديدة وكانت إيرانية حديثة العهد بالسويد تحمل ابنتها ذات العامين بيديها، لا أدري لماذا تذكّرت سارة وذكرياتي معها، لم تكن تتقن العربية ولا الإنجليزية فاضطررت أن أتواصل معها بواسطة تطبيق ترجمة وحذّرتها من السوسيال كثيرا ومضيت في حال سبيلي. بعد أيام وجدتها صدفة تبحث عن بيتي، أتتني برسالة لأترجمها لها، كانت من السوسيال، يبلغونها أنها تترك ابنتها في البيت تبكي وتغلق دونها الباب لتذهب إلى البقالة، نفت ما كتبوه لها، فذكّرتها أنني حذّرتها من السوسيال وأن تولي اهتماما بالغا بابنتها. أخبرتني بعد ذلك أنها لمّا قابلت موظّفي السوسيال اشترطوا عليها نزع الحجاب، فنزعت الحجاب، فنصحتها نصيحة أخت لأخت: ''أخرجي من هذا البلد''. لقد رأيتهم بعد ذلك يأخذون ابنتها منها.

لا يجب على المرء أن يخاف على الدريهمات التي تعطى له من قبلهم، مقابل ماذا؟ مقابل دينك؟ أولادك؟ دين أولادك؟ إنها التجارة الخاسرة.

لم أكن من المستفيدين من إعاناتهم، لقد كنت أمتلك شركة هناك، وكانت نسبة الأرباح 51% للدولة كضرائب و49% لنفسك، وبعدما تضطر لبيع شركتك فإنك لن تستفيد من أموال الضرائب التي كنت تدفعها لهم بل يقولون لك من الضروري أن تبحث لك عن وظيفة، كنت أسألهم: ''يعني أموال الضرائب لا نستفيد منها نحن بل تذهب للسوسيال؟''.

ستخسر كل شيء في ذلك البلد والجميع يحسبك رابحا ...

الوحش أحق بابنتي مني !

أنا مسلمة مقيمة بإسبانيا، ابتليت بمرض أجبرني على الدخول للمستشفى لفترة، ولم يكن لدي معارف أو أصدقاء أستأمنهم على ابنتي الوحيدة ابنة الخمس سنوات، فاقتُرح عليّ أن أضعها عند مؤسسة الخدمات الاجتماعية وقد فعلت، حيث إنني وقّعت على أوراق تفيد بأنّني سأسترجع ابنتي فور خروجي من المستشفى، وقد كنت أخرج من المشفى وأزورها عندهم كلما سنحت لي الفرصة، كان الأمر شاقا على كِلينا فقد كان هذا انفصالنا الأول بعضنا عن بعض، لكنه المرض .... وكنت أعدها أنّ ماما قوية وستتغلب على المرض وسنعود إلى بيتنا مجددا.

انتهت مرحلة المرض وابتدأ الكابوس الذي لم ينتهِ إلى الآن، الكابوس الذي كان أثقل عليّ من المرض نفسه. لقد خدعوني واختطفوا ابنتي، ابنتي لن تعود لي ... اغتنموا فرصة مرضي وخطفوا ابنتي ووضعوا كلّ العراقيل لكي لا نعيش تحت سقف واحد مجددا، لا أسباب واضحة، كل ما أذكره أنّ الأوراق كانت بيضاء وأنني كنت تحت تأثير الدواء، أقنعوني أنّ الأوراق هي ضمان لإعادة ابنتي لي، فوقعتُ بقلب مطمئن. لم يعيدوا ابنتي لي وأصبحتُ أنا من يزورها في مركز لرعاية الأطفال. كان سجنا كبيرا مخصصا للصغار المختطفين أو المهمَلين، أقلّ ما يقال عنه أنك ستشعر بالقشعريرة تغزو جسمك عند دخوله، مكان متسخ يعيش فيه مجموعة أطفال متسخين بثيابهم المتسخة، لا أدري ما شعور المرء حينما يضع مكانه مكاني ويتفكر في لحظات خروجي من المركز بعد زيارتها، اللحظات التي كانت تجذبني فيها فلذة كبدي من ملابسي ولسان حالها يقول لا تدعيني وراءك، تتشبّث بي ولا حيلة لي بفعل شيء سوى طمأنتها أنّ هذا الكابوس سينتهي يوما ما....

قبل مرضي كنت أعيش عيشة هنية مع ابنتي، نطبخ سويا، نعدّ الكعك المحشي بالمربى، كانت تحبّ مربى الفراولة كثيرا، نرتّب الصحون مع بعض، كانت تساعدني في نشر الغسيل، ألعب مع دميتها دور الجدّة، نخرج إلى الحديقة، نمشي ونلعب ونراقب الدعسوقات كيف تمشي على الحشيش، نقرأ اللافتات، نقرأ قصصا قبل النوم ونضحك على الذئب الذي خدعته المعزاة الصغيرة، كنا لا ننام إلا متعانقتَين، كنتُ أحكي لها عن الله وعن الرسول وعن الجنة والنار، كنتُ أحبّبها في الإسلام بالرغم من صغر سنها وكانت تحبّ الحديث عن الجنة كثيرا، كانت عزائي في هذا العالم الموحش، كانت أُنْسي في غربتي، حاولتُ أن أعوضها عن كل شيء بعد انفصالي عن والدها، ثم بين ليلة وضحاها وبسبب مرضي وضعفي وجدوا فيَّ ضالتهم، كانوا كمن

دخل على شخص في بيته فسرقوا مصدر الطاقة فيه وأوصدوا الباب عليه بعد خروجهم لكي يموت ببطء في الظلام الدامس.

انتقلت ابنتي إلى عائلة إسبانية حاضنة، ولم ألتق بها طيلة سبعة أشهر، قيل إنّها فترة ضرورية لتنفصل عني وتندمج مع عائلتها الجديدة، ابنتي التي لم نكن نفارق بعضنا إلا لمما، أصبحتُ محرومة حتى من رؤيتها ولو من بعيد. بعد زمن سُمِح لي بزيارتها مرة كل شهر لمدة ساعة واحدة فقط. أول لقائي معها عند العائلة الحاضنة كانت متغيرة جدا، كنتُ مشتاقة لها جدا، تمنيتُ لو باستطاعتي وقتها أن أهرب بها من الدولة الظالمة للأطفال التي تدّعي الإنسانية وحماية حقوقهم، تحرمهم من أهلهم وملاذهم الآمن. مسحتُ على رأسها، فإذا بي أفاجئ بقمل برأسها، كان ذلك أمام مرأى الموظفة بالمؤسسة، انقسم قلبي شفقة على ابنتي وما آل إليه حالها، ابنتي النظيفة الجميلة أنيقة الثياب العطرة أضحت في حالة يرثى لها، في الزيارة الثانية أو الثالثة -لا أذكر- قالت لي ابنتي إنّهم يعطونها لحم الخنزير وأنّهم يذهبون بها إلى الكنيسة، قد يستغرب أحدهم كيف لابنتي معرفة ذلك والحقيقة أنني علّمتها في سياق لعبها ما حلّل الله لنا وما حرّم علينا، كنا نشاهد لحم الخنزير وأُخبِرها أنّ الله أمرنا أن لا نأكله بينما حلل لنا لحوم الحيوانات الأخرى: كالخروف والبقرة والدجاج وكل الأسماك، كانت تعلم أنّ الكنيسة ليست لنا، وأنّ المسجد هو بيت الله وهو المكان الذي نقيم فيه الصلاة، كنتُ آخذها معي إلى المراكز الإسلامية كلما سنحت لي الفرصة لأذكّرها أننا مسلمون.

لقد كانت العائلة تعلم كل صغيرة وكبيرة عن ابنتي، كانوا يعلمون أنها مسلمة ولكن ما همّهم في ذلك؟ المهم عندهم أن تصبّ مستحقاتهم في رعاية ابنتي بداية كل شهر، لن يحافظوا على عقيدتها كما أفعل أنا ولن يهتموا بدنياها وآخرتها كما أفعل أنا، لن يذهبوا بها إلى المسجد ولن يطبخوا لها أكلا حلالا، المهم أن يتركوها تعيش بأقل قدر من الجهد واللعب، يريدون المال الذي يصبّ بسببها ولا يريدونها هي. كنت كلما احتججت عند المسؤولين تعاقب ابنتي ولم أكن أعرف ذلك.

أذكر أثناء زيارة من الزيارات دخلت إلى حمامهم لأغسل يديّ فتبعتني ابنتي ودخلت ورائي وقلّما أتواجد معها بمفردنا؛ لأنّهم جعلوا لها امرأة تتواجد معنا أينما وجدنا، اشتكت لي ابنتي من ألم أسفل ظهرها وحينما كشفت عليها كانت الطامة، لقد تعرضت ابنتي لاغتصاب شنيع، سألتها من فعل لك هذا الألم؟ ترددت في الإجابة، كانت خائفة جدا، حضنتها، طمأنتها أنني أمّها وسأكون بجنبها، أجابتني ''بابا'' وتقصد ربّ تلك العائلة، صدمت صدمة العمر، خانتني قدماي فجلست على حافة المغطس لأستوعب ما حصل وما

تتعرض له ابنتي في هذا البيت، أبعدونا بعضنا عن بعض ليرعوها الرعاية التامة، لكي تغتصب ويكتم صوتها وتعيش الآلام الجسدية والنفسية كل يوم لوحدها، لقد حرقوا قلبَينا. تمالكت نفسي ومنعت دموعي من السقوط كي لا أحرم من زيارتها، فضعفك أمام ابنك سيكلّفك الكثير في قانون الغابة!! ألبستُ ابنتي ملابسها ومن حسن حظي أنّ موظفة الرعاية كانت متواجدة، فأريتها من ابنتي ما رأيت، فشهقت شهقة واحدة وقد سجلت ذلك في هاتفي ليكون ذلك دليلا قويا لاستعادة ابنتي ولكن!

حينما اشتكيت عند السوسيال لم تأخذ الموظفة شكوايَ على محمل الجدّ! لم يكن لي الحقّ في إخراجها من ذلك السكن لكي أعرضها على طبيب للحصول على شهادة طبية تثبت تعرّضها للاغتصاب حتى لو هرّبتها إلى المستشفى لمنعتُ من رؤيتها سنتَين كاملتَين. تخيّل موقفي لحظتذاك، تعلم أنّ ابنتك الصغيرة قد اغتصبتْ ومهدّدة إنْ حكت أو اشتكت وليس هناك من يحميها وهي مهددة في كل دقيقة باغتصاب جديد وليس في يدك شيء تعمله، من الصعب أن ترى ابنتك تعذّب وأنت مكبّل اليدين.

بعد أن رأى السوسيال إصراري، وعدوني بالشهادة الطبية ولم أحصل عليها إلى الآن؛ أيْ بعد سنتَين من اكتشافي للحادثة، حتى المحامي الذي وكّلته في قضيّتي تغيّر جذريا وتراجع عن اتخاذ كل الإجراءات التي اقترحها عليّ، سألني الناس لمَ لمْ أخرج بقضيّتي إلى الرأي العام، فأجبتهم: خوف منعي من زيارة ابنتي، والحقيقة لم أكن لوحدي، هناك الكثير من العائلات التي اُختُطِف أطفالها منها ويخافون الإدلاء بدلوهم لكي لا يخسروا أبناءهم إلى الأبد.

يختطفون طفلك، يبتزّونك به ويجعلون قضاءهم الظالم الحكم الوحيد بيننا وبين مؤسسة اختطاف الأطفال. الأمر أكبر من مجرد شعار لحماية حقوق الأطفال، فقد سلبوا عقولنا بسلطة القانون في أوروبا واحترامه ولكن الواقع أمر مخالف تماما ولا يعرفه إلا من اُكتُوِي بناره. فمؤخّرا خرج قاض إسباني واعترف أنّ القضاة يأخذون مالا معتبرا على الطفل الواحد علاوة على الأسرة الحاضنة التي تأخذ قرابة 4000 يورو..... أصبح الأمر تجارة مربحة باسم قانونهم.

رفعت قضيتي إلى المحكمة وبعد أربعة أيام ذهبت لهم لأبحث عن المستجدات، فقيل لي: إنهم لا يملكون أيّ قضية باسمي، سمع مجموعة من الإسبان الشرفاء قضيتي وتضامنوا معي ولمْ يقبل القاضي باستقبالي إلا بعد صراخهم واحتجاجهم في أروقة المحكمة، بعد أن سمعني القاضي قال لي: ارتاحي وسنقوم بواجبنا. عشتُ أسبوعا على الجمر ولمْ يصلني منهم أيّ جديد يُذكر، ذهبت مع مجموعة الإسبان تلك،

فقيل: إنّ القاضي قد حُوِّل إلى مكان آخر، فذهبنا إلى ذلك المكان، فأصبحتْ أقوالهم تتضارب والكلّ يتهرب من الإجابة، فاحتج الإسبان وصرخوا، فقيل لي: أنْ اصبري وسيأتيك قرار القاضي ... يوم يأتي وآخر يمضي ..... في نهاية الأمر "تُحفِّظ عن الملف لعدم معرفة من هو المغتصب". كانوا يكذبون، لقد كانوا يعلمون كل شيء وتكتّموا. لم أجد حلا آخر إلا الخروج إلى العلن وفضحهم على وسائل التواصل الاجتماعي، ومنذ ذلك اليوم عُوقبت بحرماني من رؤية ابنتي ولا أعرف مكانها حتى الآن، منعتُ من رؤيتها؛ لأنني أمّ سيئة في نظرهم، وذلك الوحش البشري المغتصب أحقّ مني برعايتها، يضع الناس رؤوسهم على الوسادة ويغمضون أعينهم وأضع رأسي أنا وأفتح عيني كي لا أرى ابنتي في كوابيسي.

بدأت رحلتي في التوسّل لهم لرؤية ابنتي ولو في فيديو مصور أو صور أو حتى سماع صوتها لكنهم رفضوا، طلبتُ منهم ابنتي مقابل التنازل عن الجنسية الاسبانية والعودة إلى بلادي لكنهم رفضوا وأوصدوا دوني الأبواب. منذ أن وثقت بهذه المؤسسة وبحمايتها لحقوق الطفل واستودعت فلذة قلبي عندهم بسبب مرضي وغربتي وقلّة حيلتي، وإلى الآن وأنا أعيش جحيما لا يطاق، وفوق ذلك هُدِّدت بالسجن؛ لأنّي أريد ابنتي ...

إفلات من الشباك

جزائرية أنا لكنني ولدتُ وترعرعتُ في فرنسا، كانت شجرة عائلتنا تقريبا كلها في فرنسا إلا أننا بقينا متمسكّين بمبادئنا وقيمنا الإسلامية غادر أجدادنا الوطن لحاجة في تحسين معيشتهم وانتهجنا نهجهم لكن بقينا أوفياء لأصلنا. كانت حياتي حياة عادية كمواطنة فرنسية انفصلت عن زوجها ولديها منه ولدَين رائعَين، أعيش معهما وأبذل جهدي كي لا يحتاجا أيّ شيء، لكن بدأت بعض الصعوبات تلوح في الأفق فيما يخص مدرستهما، فقد أصبحوا يصرّون في مطاعمهم المدرسية على وضع اللحم غير الحلال، كان لحم خنزير أو لحم غير مذبوح على الطريقة الإسلامية للتلاميذ المسلمين، وقد احتجّ أولياء الأمور على ذلك في تلك المدرسة الابتدائية وطالبوا بإطعام أبنائهم الخضر والفواكه واستبدال اللحم بالبيض كبديل لمصدر البروتين وعدم إطعامهم حلويات تحتوي الجيلاتين الحيواني المستخرج من الخنزير ولكن لا آذان صاغية في هذا الموضوع.

ذات يوم وُضعت لابني عصيدة البطاطا مع مرقة لحم، فاحتجّ لدى المسؤولة في الطعم المدرسي فأخبرته أنّه في مدرسة الدولة ولا يوجد مكان للأديان هنا، فحاول ابني بطريقة مؤدّبة أن يغيّر دافعه للاحتجاج وأخبرها أنه لا يحبّ هذا النوع من اللحم، ثم غيّر السبب كليا وقال لها بأنه نباتي، لكنها كانت تعلم السبب الحقيقي وراء رفضه وأصرّت على وضع مرق اللحم على عصيدته، لم يسكت ابني واتجه إلى المدير وكله ثقة أنّ المدير سينصفه، فأجابه المدير أنهم مجبرون على وضع المرق في صحنه!!

ذهبتُ بعد هذه الحادثة إلى المدرسة وسألتُ مسؤولي الإطعام عن سبب عودة ابني جائعا إلى المنزل فتظاهروا بجهل السبب، سألتهم لِمَ لا يضعون له صحنَين، صحن به اللحم أو مرقه وصحن آخر به بقية الوجبة، فقالوا أنّ ذلك ممنوع، فطالبتهم بالقانون الذي ينصّ على ذلك فسكتوا، فعلمت أنّ إصرارهم كان من تلقاء أنفسهم وليس قانونيا، توجهت إلى المدير فاتهمني بتعقيد الأمور وخلق المشاكل. الحقيقة أنّه لم يكن لي الوقت لخلق المشاكل وإنما أردت أن استفسر عن حال ابني؛ فهو يعيش معهم في المدرسة أكثر مما يعيش معي في البيت، نحن نثق بهم ونأمنهم على أبنائنا، نحن لا نريدهم أن يهدموا ما نبنيه في أولادنا من قيم ومبادئ، علاوة على ذلك فقد كنت أدفع رسوم الطعام لكي يعود ابني شبعانا من عندهم لا جائعا، بعد أن ضاق المدير بي ذرعا أحالني إلى مراسلة المفتشية لأشتكي عندها والجميع يعلم أنّه بمجرد لجوئك لهذه المفتشية ستتعرض لبلاغ قلق وهذا ما يجعل الأغلبية يخاف التحدّث خشية التعرّض للبلاغات. هناك أولياء أمور سحبوا أبناءهم من قائمة التلاميذ الذين يأكلون في مطاعم المدرسة كون أمهاتهم ماكثات بالبيت

ويستطعن إطعام أبنائهن حال وصولهم للبيت، لكن بحكم عملي وتأخّري في العودة إلى البيت لا أستطيع تلبية احتياجات أولادي. وأخبروني أيضا أنّ جلب الأكل إلى المدارس ممنوع بموجب قوانين تنظيمية من البلديات الفرنسية إلا في حالة إصابة التلميذ بحساسية وقد كنت أريد استخراج شهادة مرضية لأبنائي لكن الإدارة رفضت ذلك؛ لأنهم يعلمون أنّ المانع ديني بحت وأنّي أحاول التحجّج بأسباب أخرى.

بدأت الأسئلة في الصف تنهال على ابني من طرف معلمته: ''أنت عربي مسلم، هل تسافرون في العطل؟ هل تسافرون إلى الجزائر؟ كم تمكثون هناك؟ ماذا تفعلون؟ هل تملكون جوازات سفر جزائرية أو فرنسية؟ هل تصلّون؟ هل تصومون؟ هل أعادت أمك الزواج بعد طلاقها من أبيك؟''. كانت أسئلة تطفّلية على حياتنا الشخصية والتي لا تقدّم ولا تؤخّر في مسيرة ابني العلمية، لكنها كانت تُطرح بهدف. بالرغم من أنّ المتداول عن المدارس الفرنسية أنها لا تقبل الدين بين جدرانها لكن خلاف ذلك هو الصحيح، هم مهتمون جدا بالتجسّس علينا وعلى مدى تمسّكنا بتعاليم ديننا. المتمسك بدينه في دول الغرب هو الخطر المحدق بهم، هو القنبلة التي يخافون أن تنفجر عليهم في أيّ لحظة. حينما كنتُ في سن ابني كنا نشعر بالاختلاف عن الفرنسيين الأصليين في المدارس لكن لم يكن هذا التضييق بهذا الشكل... لكن ما لاحظته مؤخّرا أنّه جن جنونهم.

استذكر هنا حادثة حدثتْ لابني، سمعَتْه يوما معلّمته يتحدّث مع زميله في باحة المدرسة أنه سيقيم رمضان وكان يقصد مساعدتي في تعليق زينة رمضان وفي التحضير لأجوائه، فاستُدعِيتُ من طرف المدرسة لسؤالي هل سيصوم ابنك؟! ابني لم يكن يدعو وأقرانه في المدرسة الابتدائية إلى الدين الإسلامي لكي يهدد أمنهم القومي ولكنه كان يتحدث مع صديقه ببراءة الأطفال عن فرحة قادمة إلى بيتنا.

حتى أسئلة السوسيال تكون حول خصوصياتنا وديننا: ''هل تعاقبك أمك؟ هل تهددك إذا أكلت اللحم المذبوح لدينا (يقصدون المذبوح على الطريقة غير الإسلامية)؟ هل عدم أكلك لذلك اللحم هو قرارك أم قرار والديك؟'' حينما زرنا إسبانيا لم يسألوا أولادي عن تفاصيل رحلتنا لها لكن ما إن سمعونا زرنا الجزائر حتى فُتح دفتر أسئلة التحقيق من جديد: ''ماذا تفعلون في الجزائر أثناء زيارتكم لها؟ هل لديكم عائلة هناك؟ هل تصلّون؟ وحينما أجاب أولادي بالإيجاب تعمّقوا في الأسئلة أكثر: ''هل تذهبون إلى المساجد في فرنسا؟ هل تذهبون لوحدكم أم مع أصدقائكم؟ هل ترغمكم أمّكم على الذهاب إلى المساجد؟''. أصبحت هذه الأسئلة هاجس أبنائي في مدارسهم، يذهبون ليتلقّون العلم فإذا بهم يفاجئون أنهم في غرف تحقيق! ربما

يفهم الكبار خبث هذه الأسئلة ويتخيّرون الإجابات خوف الوقوع في المشاكل لكن ماذا عن الصغار الذين يجيبون بوعي وقلة وعي؟

في الأيام التي تلت السابع من أكتوبر عام 2023 (بداية العدوان على غزة) لبس ابني قميص المنتخب الوطني الجزائري الأسود وذهب إلى مدرسته، سألته المعلمة الجديدة: ''ماذا تلبس؟'' لم يفهم ابن العاشرة ماذا تقصد معلّمته، فرد عليها:

_ ما الخطب؟

_ لقد خيّبت ظني.

_ ما هذا القميص؟ أتريد أن تستفزني؟

فأجابها ببراءة الأطفال:

_ كيف أستفزّك معلمتي؟ إنه قميص منتخب الجزائر وبدأ يتظاهر بالفخر أمامها كونه من أصل جزائري، والحقيقة أنّ أبنائي قد غرست فيهم حب الانتماء إلى أصلهم.

_ لكن من خاط علم فلسطين على هذا القميص؟

_ ليس خياطة، إنه قميص أصلي من الجزائر وهم من طبعوا عليه علم فلسطين.

_ اه، طبعوه عليه في الجزائر ... لكنك فرنسي.

_ لا، لست فرنسيا أنا جزائري.

_ لكنك ولدت في فرنسا.

_ نعم، لقد ولدت في فرنسا لكنني جزائري. وبدأ يبتسم أمام زملائه ويغني بصوت منخفض النشيد الوطني الجزائري ثم أكمل حديثه: معلمتي نحن الجزائريون رجال ونحن نفتخر بذلك. فردّت عليه:

_ هل تعلم ماذا تفعل حماس؟

لم يفهم ابني معنى السؤال، فأنهت سؤالها بتوكيد:

_ أنتم الجزائريون متواطئون مع الإرهابيين.

لحظتَها ابني وزملاؤه لم يتقبّلوا ما قالته المعلمة واعتبروه تهمة مهينة، فالفلسطينيون لم يكونوا يوما إرهابيين بل مدافعين عن دينهم ووطنهم. لكن المعلمة لم تكتف بذلك بل بدأت بسرد واقعة ذلك اليوم (7 أكتوبر) بلسان الاحتلال وراحت تصف بزعمها مشاهد الأطفال المذبوحين التي لم يرها العالم أبدا. كيف لها أن تحكي ذلك لطفل صغير؟ تحكي عن الذبح في حين أنني والدته أجنّبه دائما المناظر المريعة التي يتعرّض لها إخوته الفلسطينيين يوميا لكنه يرى معي أحيانا مشاهد القصف والدمار والبكاء ووداعات الشهداء _فيما نحسبهم_. لم يكن هناك مجال لابني للهرب، فأخبرها:

_ أنا أشاهد الدمار والخراب في غزة كل يوم، هناك أطفال يكفّنون كل يوم، وما بقي إلّا مصاب، يتيم، نازح أو مريض متعب، ألا يستحق هؤلاء الأطفال العيش بسلام كباقي أطفال العالم؟ لكن لا بأس ... سينصرنا الله ذات يوم.

جن جنون تلك المعلمة خاصة لما ذكر الله وبدأت تصرخ بجنون:

_ لا تذكر الله هنا.

اتجهت صوبه وغرزت أظافرها في رقبته حتى سال دمه فدفع الطاولة التي توسّطتهما كي يبعدها وحاول الفرار... وكل ذلك كان مسجلا على بث مباشر في تطبيق التيك توك من قبل ابني وقد حذف لاحقا لسياسة التطبيق ضد العنف.

أثناء اجتماعي تناولتُ هاتفي فإذا بي أجد مكالمات كثيرة فائتة من المدرسة، خفق قلبي وأحسست أنّ وراءها خطبا جللا. كانت اتصالات من المدير وأراد حضوري على الفور، شككت أنّ ابني أصابه مكروه وقد سمعت صراخه على الهاتف، لم يخبروني السبب وألحّوا على حضوري بقولهم: ''عليك الحضور، هناك مشكلة كبيرة، لن نسكت هذه المرة، سيصل الأمر بنا معكم إلى إرسال بلاغ قلق'' لقد متّ في تلك اللحظة؟ لا يوجد عربي في فرنسا لا يخاف من بلاغات القلق، نعرف جيدا ماهيتها وما تؤول إليه في الأخير... من عملي إلى المدرسة فكّرت في الطريق في كل الاحتمالات، ''هل تشاجر مع أحد؟ هل جرح؟ هل ضربوه؟ هل تنمّروا عليه؟ هل؟ هل؟ هل'' أعرف ابني جيدا، مسالم يتجنّب المشاكل ما أمكنه ذلك لكنه لا يرضى بالظلم .... هذا ما أعرفه أيضا لا يرضى بالظلم على نفسه ولا على غيره.

حينما التقيتُ ابني ارتمى في حضني معانقا وباكيا، هالني منظر دم في رقبته ولم يتركني المدير أستفسر منه بل اندفعت كلماته مثل طلقات رشاش:

_ ما حدث يعدّ فعلا شنيعا، سنبلغ مفتشية التعليم الوطني وسنعقد اجتماعا يحضره الكثير من بيداغوجيْ المفتشية بعد غد.

سألته بجدية:

_ ما هذا الدم على رقبة ابني؟ ما الذي حدث له؟ من سبّب له هذا؟

_ لا أدري؟

مدير المدرسة لا يعلم ما الذي حدث؟! يتصل ويهدد ويندد ويقرر ولا يعلم ما الذي حدث؟! تدخل ابني وحكى لي أمامه ما الذي حدث له. اتجهت بابني مباشرة إلى قسم الشرطة، يحبّون تحكيم القانون فاتجهت إلى القانون مباشرة، رفعت عندهم شكوى، استجوبوا ابني وحوّلوني إلى مستشفى خاص بهذه الحوادث حيث أكّدوا أنه تعرض لخدش من أظافر بالغ، تعذّر حضوري للاجتماع في المدرسة واعتذرت لهم كوني كنتُ أتابع الحادثة عند الشرطة، فأُجّل الاجتماع ثم عقدوه ثانية وحضرته وحضره كل من مفتشة التعليم الوطني، مدير المدرسة، المعلمة، موظفة السوسيال، الاختصاصية النفسية العاملة بالمدرسة، طبيبة المدرسة. كنت أواجههم وحدي بالرغم من أنّ فيهم عربا مسلمين. أعادوا ذكر تفاصيل الحادثة التي سمعوها، ففنّدت ما قالوا وأخبرتهم:

_ أنا رأيت فيديو الحادث على منصة التيك توك قبل حذفه.

احتجّوا:

_ قانون المدرسة ينص على منع التصوير داخل المؤسسات التربوية.

_ ليس ابني من صوّر الفيديو بل زميله.

وتحفّظت عن ذكر اسم زميله خوف تعرّضه وعائلته للتضييق كونه فضح منظومتهم الهشّة. قالت المفتشة:

_ إنه من المريع أن يمتنع عن الوقوف دقيقة صمت على ضحايا إسرائيل الذين سقطوا في السابع من أكتوبر.

توجّهت بسؤالي لها:

_ هل هناك ورقة رسمية من الوزارة تلزم التلاميذ الوقوف دقيقة صمت على الضحايا؟

غيّرت حديثها مباشرة:

_ أنا أريد الحديث عن العنف الذي مارسه ابنك داخل الصف، لقد دفع الطاولة.

_ أنا عندي سؤال، لماذا دفع ابني الطاولة؟

_ لأنّ معلمته طلبت منه أمرا ورفض تنفيذه.

_ جيد، هل من الممكن استدعاء ابني للاجتماع ليحكي ما حدث معه؟

_ وهل نحن في محكمة حتى يتم استدعاءه ليحكي؟

_ لكن طريقة استقبالكم لي توحي بأنني في محكمة. ابني من تضرّر وأنتم تعاملونه كمذنب.

اتجهت بنظري للمعلمة وسألتها:

_ ماذا فعلت برقبة ابني؟ لقد عنّفتيه.

نفت ما نسب إليها:

_ كنت أريد أن أمسكه، كان يريد الهرب.

_ لماذا كان يريد الهرب من القسم؟

نظرت المعلّمة للمدير وقالت:

_ أنا لا أريد التحدّث معك، لقد قيل لك أنك معقدة، وأنك تدقّقين كثيرا في أمور المدرسة كالمطعم.

تذكرُ أمورا مضى عليها عام كامل ولم ترد الخوض في حادث وقع منذ أيام!!

_ أنا أسألك وأريد جوابا صريحا، أنت من كنت مع التلاميذ في القسم وأنت من تملكين الجواب.

أجابني المدير:

_ الحاضرون هنا سيتخذون إجراءات.

_ لماذا؟

تدخّلت المختصة النفسية التي كانت متعاونة معي وطلبت منهم إحضار ابني نزولا عند رغبتي، دخل ابني ورأيت في وجهه خوفا شديدا، وقف أمامي، أنزل رأسه فقلت له:

_ ابني ارفع رأسك، أنت لم تفعل شيئا. انظر إلى المختصة النفسية فهي تريد الحديث معك.

تدخّلت موظفة السوسيال وقالت:

_ اتركيه يتحدّث لوحده، لماذا تشرحين له؟

_ هذا ابني وأنا أمهّد له الحديث كي أخفف من روعه. لقد خاف وجودكم.

تحدث ابني مع المختصة ورأت الندبات على رقبته وصرحت:

_ هذا ليس طبيعيا ... الطفل مصدوم.

أشارت لها المفتشة بعينَيها أن توقّفي وأكّدت لها بحديثها:

_ هل أنهيتِ حديثك مع الطفل، أنا سأكمل ما تبقّى.

فهمتُ أنهم يغطّون أخطاء بعضهم بعضا.

قال لهم ابني:

_ أنا لن أعود إلى المدرسة، أنا خائف، لقد آذتني.

بدأت المعلمة تصرخ:

_ هل أنا آذيتك؟ هل أنا من آذيتك؟

واجهتُها:

_ لا تصرخي في وجه ابني. لمَ تصرخين بهذا الصوت العالي في وجه طفل، إنه متوتر ومصدوم مما فعلته به، الأجدر بك أن تعامليه بمستواه، أن تنزلي إلى مستواه لا أن ترفعي صوتك في وجه صغير.

غيّرت مسار الحديث:

_ هل تحدثت معه البارحة؟

_ نعم تحدثتُ معه، إنه مصدوم مما وقع له، لا يريد العودة إلى المدرسة، حتى أولياء أمور زملاء ابني مصدومون مما حدث له.... لقد ساندوني وساندوا ابني.

تدخّلت المفتشة وناولتني ورقة:

_ هل بإمكانك كتابة أسماء أولياء الأمور الذين تواصلوا معك.

فامتنعت عن ذلك بالطبع خوف أن يلحقهم أذى بسبب دعمهم لي ومساندتي، لكننا حينما خرجنا من المدرسة رأتهم المفتشة متجمهرين ينتظرون خروجي بلهفة للاطلاع على المستجدات.

بعد ثلاثة أيام من الاجتماع اتصلت بي موظفة السوسيال لتطلب لقائي وبعد ذلك زيارتي في بيتي ثم تعقد جلسة، سألتها:

_ كيف تعقدين جلسة؟ لمْ أفهم؟

_ لا أقول لك أيّ شيء في الهاتف.

_ حسن سأحضر إلى مكتبك.

_ لا تنسي طفلَيك.

_ تقصدين ابني؟

_ الاثنان.

بعد أسبوعين ذهبتُ مع ابنيَ إلى مقر السوسيال وهناك التقينا مع الموظفة التي اتصلت بي والاختصاصية النفسية ومديرة السوسيال، قالت لي الأخيرة:

_ أنت تعرفين لمَ أنت هنا اليوم؟

_ لا أعرف.

فردّت مستهجنة ردي:

_ لا تعلمين لمَ أنت هنا؟!

_ ربما، لا أعرف بالضبط.

كان أسلوبهم مستفزا مُمنهجا لكي يخرجوا أسوأ ما فيك ويدعموا به روايتهم ضدك. سألوني بداية التعريف عن ابنيَ، فعرّفتهما لهم بداية بالتفاصيل المملة فهم يحبون التفاصيل كثيرا. قالت لي:

_ مدير مدرسة ابنك ومديرية التربية الوطنية قدّموا بلاغ قلق وقد أرسل هذا البلاغ للمحكمة.

_ بهذه السرعة؟! في العادة تأخذ الإجراءات ثلاثة أشهر أو أربعة حتى تصل إلى المحكمة... ليس بهذه السرعة.

_ موضوع السجال في القسم هو الأمر الأكثر حساسية في فرنسا، موضوع فلسطين وإسرائيل.

_ لكنني لم آت إلى هنا لأتحدّث عن إسرائيل وفلسطين.

_ بالضبط سيدتي، أنت هنا لتحكي لنا عن ما أحدثه ابنك.

_ هل كنتم بالقسم معه؟

_ لا، لكن لماذا تتحدّثين بعنف؟

_ أنا أتحدّث بطريقة عادية.

كانتْ تلعب لعبة نفسية معي ... لكنني حرصت على ضبط أعصابي والتحدّث بهدوء مطلق. قالت لي:

_ نريد معرفة حكايتكم.

_ أيّ حكاية تقصدين؟

_ كيف أتيتم إلى فرنسا؟

_ أنا ولدتُ في فرنسا.

_ مولودة في فرنسا! لكن لديكم أصولكم؟

_ نعم، جزائرية.

_ وتذهبون في العطل إلى الجزائر؟

_ نعم.

_ وأين والدهم؟

_ في الجزائر.

_ هل يلتقون به؟

_ بين الحين والآخر.

_ هل تملكين رقم هاتفه؟

_ من الأفضل أن نعود إلى موضوعنا.

_ كيف تعيشون حياتكم؟ هل تعملين؟

_ نعم أعمل.

_ اه، لم أسمع أنّك تعملين.

_ كيف أنك لم تسمعي بذلك، لقد حدث ما حدث مع ابني وأنا بعملي، واستأذنت منهم بعدما استدعيت. أصلا في بداية السنة المدرسية نملأ نحن الأولياء معلوماتنا الشخصية بما في ذلك طبيعة عملنا، فمستحقات المطعم تختلف من راتب أسرة إلى آخر ونصرح أيضا بمعلومات عن رواتبنا ورسوم الضرائب. غريب أنك لم تعلمي.

_ أين تعملين؟

هنا تملّكني بعض الخوف، لقد كانت تسألني كثيرا عن عملي وفكرت أنها تريد فتح تحقيق في مقر عملي وأنا لا أريد لأبنيَ أن يكونا موضوعا للحديث فيه، إنّ من حقي حفظ خصوصية أسرتي.

_ أنا أحتاج معرفة مقر عملك.

_ لن أجيبك. سأجيبك على المعلومات التي تخصّ ابني فقط.

التفتت إلى ابني وسألته:

_ عندي سؤال لك.

_ تفضلي.

_ هل أنت خائف؟

_ نعم. أنا خائف.

_ هل أنت خائف من أمك؟

_ لا، أنا خائف؛ لأنّني في مقر السوسيال.

_ لماذا؟ ماذا أخبروك عن السوسيال؟

_ إنهم يسحبون الأطفال من آبائهم.

التفتت نحوي وسألتني:

_ هل هذه الفكرة التي رسّختها في رأسه؟

_ لا، أنا شرحت لهم أسباب وجودنا هنا.

ولم أفصل في جوابي، لأنني فهمت منها أنها تريد التفصيل في كل سؤال، تريد أن تسمع مني الكثير.

حكى لها ابني تفاصيل الحادثة فصرخت في وجهه:

_ ليس صحيحا.

_ أنت لم تكوني معي.

_ ليس هذا ما حكته معلّمتك.

_ انظري إلى الندبات في رقبتي. إنها آثار أظافرها.

وضعت الشهادة الطبية التي تثبت أنّ الأظافر أظافر إنسان بالغ، فاستأذنت لتصوير الشهادة وقد أذنت لها.

تدخلت المختصة النفسية:

_ أريد فقط الاستفسار، كيف لطفل أن يعلم عن موضوع (فلسطين/إسرائيل) بهذه التفاصيل؟

_ العالم كله يعلم بهذا الموضوع، حتى الصغار هنا خرجوا في المظاهرات المناهضة للعنف الذي يتعرض له أقرانهم في غزة. ألم تشاهدوا نشرات الأخبار والأخبار على المنصات الاجتماعية؟

_ اه، يعني أنّ ولدَيك خرجا في المظاهرات؟

_ لسنا وحدنا من كنّا نخرج، كان الجميع يخرجون. مسلمين وغير مسلمين، عربا وعجما، صغارا وكبار، كانت الإنسانية تخرج ضد الظلم والعدوان الغاشم على قطاع غزة.

_ يعني أنّك أطلعت ولدَيك على كل ما يحدث هناك؟

_ العالم أجمع يعلم أنّ الجيش الإسرائيلي يقتل الشعب الفلسطيني ويدمر أرضه.

_ أتدري أنك تتكلمين بكلام خطير؟

_ أنت سألتني وهذه أجوبتي وأنا في بلد يكفل حقوق التعبير. أجبتها ولم أكن أؤمن بما قلت.

كانت تكتب وتكتب، لقد كتبت الكثير. ثم طلبت مني الخروج ليتكلموا مع ابني، كان هذا قانونهم. التكلم مع الأطفال على انفراد. خرجتُ وتركتُ هاتفي أمام ابني يسجل كلامهم، أعلم أنّ التسجيل فعل غير قانوني لكنني كنت أريد حماية نفسي وولدي بأيّ ثمن. كان يمكنني تقديم التسجيل في المحكمة كدليل لأواجههم به أمام القاضي.

سألوه عن موضوع اللحم المذبوح عندهم (غير حلال):

_ هل هو قرارك بعدم أكله أم أنّ أمك هي من تمنعك من أكله بالقوة.

_ أمي لا تجبرني بالقوة، أنا لا أريد أكله بمحض إرادتي. من الممكن أن آكل دون أن أخبرها ولن تعلم لكن الله يسمعنا ويرانا.

_ سمعنا أنكما خرجتما في المظاهرات ضد إسرائيل.

_ نعم، لقد خرجنا وكان ذلك أمرا يدعو للفخر، أن تفعل ولو فعلا صغيرا تضامنا مع إخوتك في دين.

_ سمعنا أيضا أنك امتنعت عن الوقوف دقيقة صمت على ضحايا إسرائيل (السابع من أكتوبر)، أجابها ابني بكل ثبات واتزان:

_ ليس أمرا ضروريا بالنسبة لي، لكل منّا رأيه. لقد درسنا في مدرستي حرية التعبير.

_ سمعنا أيضا أنك تعارض دروس التربية الجنسية.

_ نعم، لقد وجدت الأمر مقرفا.

_ما المقرف في الأمر؟ إنها دروس مهمة، المنهاج الفرنسي صادق عليه البرلمان الفرنسي، إنه برلمان يعرف مصلحة التلاميذ الفرنسيين.

_ لكنهم يعرضون علينا صورا مخلة بالحياء... إنه عيب، إنهم يعرضون علينا صور أشخاص بالغين في وضعيات غير محتشمة، لا أكون مرتاحا عندما تُعرَض علينا تلك الصور. أتدري بماذا أصاب حين عرضها؟

_ بماذا؟

_ بالغثيان، أكاد أستفرغ كل ما في بطني.

_ ألهذه الدرجة؟ ألا تحكي مع أمك عن هذه المواضيع؟

_ نحن نتحاور عن التربية الجنسية. لكننا لا نتحدث عن الوضعيات المخلة بالحياء.

في الحقيقة أنّ ابني لما درس هذا الدرس أتى إلى البيت مشمئزا، أخبرني أنهم أروهم كيف لمراهق أن يمارس أمورا مقززة لوحده ومع مراهقة أخرى، أخبروهم أنّ المراهق محمد يستطيع أن يلبس تنورة، وأنه يستطيع أن يحبّ البنت جوليا. كانوا يحرصون على استعمال الأسماء العربية ليرسّخوا هذه الأمور في أذهان أبنائنا. أخبروهم أنّ في استطاعة الرجل أن يتحول إلى امرأة وأنّ المرأة هي الأخرى تستطيع أن تتحول إلى رجل. بدأوا الدروس من صور في الكتاب وأنهوها بفيديوهات، حتى أنهم يحضرون لهم الشواذ جنسيا إلى المدرسة ليكسبوهم تعاطفا وأنهم أشخاص طيبون وعاديون مثلنا. أذكر أنه دخل إلى البيت مصدوما، لم يكن مرتاحا وذهبت إلى معلمته بلطف وشرحت لها، وقتذاك تعرضتُ لبلاغ قلق ولم أكن أعلم. بعد مدة علمتُ أنّ هناك تلميذا في مدرسة ابني تحول جنسيا وأصبح تلميذة. كانت هذه الدروس تبدأ من سن السادسة؛ أيْ

تدرس في الصفوف الأولى بالمدارس الابتدائية، لكن الآن أقرّوا قانونا لتبدأ الدروس في السنة الرابعة؛ أيْ في الروضة! تخيّل معي أنّ ابنك الذي لا يعي ما يجري حوله وهمّه الأكبر في الحياة أن يلعب دون أن يسقط، أو أن يتكلم ارتجالا دون أن يلحن في كلمة، أو أن يفوز على صديقه في لعبة جماعية، هذا الطفل البريء عليه أن يرى ويسمع ما يستحي العاقل الراشد أن يشاهده أو يراه وحده!! هذه جريمة في حق الأطفال.

لقد أرادوا إفساد تربيتنا، أن يهدموا ما بنيناه ونبنيه، أرادوا تشويه الفطرة، إنهم يعملون على ذلك بإصرار واجتهاد، إنهم يعملون من أجل هدف محدد، هدف سيء يريدون الوصول إليه بأيّ ثمن. وهذا الكلام ليس مني وحدي لكنها الإحصائيات التي تسجل ارتفاعا ملحوظا في الهجرة العكسية، الهجرة من دول الغرب إلى الدول الإسلامية. إنهم يعلمون جيدا أنّ ديننا خط أحمر يمنع المساس به، يستهدفون أبناءنا ويريدون سلخهم من دينهم، تشويه فطرتهم ومحو هُويّتهم.

ختمت الموظفة اللقاء بسؤالها ابني الصغير عن رأيه في محتوى تلك الدروس:

_ نحن بصفتنا مسلمين وجزائريين لا نقبل هذه الأمور ونعدّها غير لائقة.

هذا الجواب الذي كانت تريد أن تسمعه، عندما دخلت لاستكمال التحقيق، قالت لي:

_ حسن لقد انتهى تحقيقنا اليوم، خذي ابنَيك وسنزورك في منزلك.

بعد أسبوعين أو ثلاثة، أتت موظفة السوسيال لوحدها بعد أن طلبت مني أن أبقى في البيت ولا أذهب إلى عملي. دخلتْ بيتي، فتشتْ ثلاجتي، دخلتْ غرفة أبنائي، فتشتْ خزائنهم، رأتْ ملابسهم، اتجهتْ إلى أسرّتهم، تفحصتْ الشراشف ومدى نظافتها، قالت لأبنائي:

_ هل تريدون قول شيء لي؟

سألتها:

_ إذا أردتِ الانفراد بهما سأذهب إلى الغرفة الثانية.

_ لا، ابقي معنا.

أجابها ابني:

_ ليس لديّ ما أقوله.

_ حسن. أنا سأذهب الآن وسنبقى على اتصال بالهاتف. سأفتح تحقيقا في المدرسة.

اشتكى ابني من معلمته وقال لي أنها تتجنبه بعد تلك الحادثة وأنه ليس مرتاحا لذلك، طلبتُ تغيير المدرسة فطلبتْ مني مديرة المدرسة الجديدة تجنّب المشاكل عندهم وأن يلتزم ابني الصمت ولا يذكر ما حدث له في المدرسة القديمة. ولكن الله شاء أثناء تلك الفترة أن أمنح بيتا وظيفيا. وقد توبعت أيضا هناك، فهم ملمّين بكل تحركاتنا.

في يوم ما، اتصلت بي صديقتي من سلك الأمن وأخبرتني أنها ستأتيني وعليّ إبعاد هاتفي علينا قدر الإمكان، خبّأت الهاتف والتقيتُ بها بعيدا عنه، سألتها إن كان على ولدي سماع ما تقوله، أجابتني بالإيجاب

_ هناك بلاغ قلق ضدك.

_ نعم أنا أعلم ذلك.

_ لديك محكمة في 26 فيفري 2024.

_ نعم، أعلم هذا.

_ يعني غدا.

_ نعم، غدا.

_ هناك أمر غير طبيعي، ملفّك لم يحوّل بسبب انتقالك إلى المنزل الجديد.

_ نعم، لدي محامٍ، وهو متكفل بهذا الأمر.

_ربما أنت لم تفهميني، سيأتي غدا موظفو السوسيال ورجال الشرطة لخطف الطفلَين.

تجمّدتُ في مكاني وبدأتُ أبكي وبدأ أولادي يبكون ويصرخون: "لا نريد أن يأخذونا، لا نريد الابتعاد عنك يا أمي". أخبرتني أنّ هاتفي تحت المراقبة. لم أكن مجرمة، لم أكن مدمنة، لمْ أعتدِ على أحد، لمْ أؤذ أحدا، لاأضرب أبنائي تهمتي الوحيدة أنني أردت حماية أبنائي في بلد يكفل حرية الرأي والتعبير في سبّ ديننا والإساءة لنبينا وحرق كتاب ربنا فقط!

أخبرتني أنها خاطرتْ بعملها وستطرد في أيّ لحظة ثم أرتني ورقة منع السفر، لقد منعوني من الخروج من أراضي الدولة! كان عليّ الخروج عن طريق إسبانيا أو بلجيكا. حملتُ معي حقيبة صغيرة فيها ملابس ابنيَّ وتركتُ كل شيء خلفي، ذكرياتي، عائلتي، عملي، بيتي بما فيه، تركتُ كل شيء واتجهنا إلى بيت والدتي، لم أخبرها أنني سأغادر فرنسا إلى الأبد لأنّ هواتف معارفي كلها تحت التنصّت والمراقبة. سلّمنا عليها واحتضناها، كان وداعا دون كلام، أخبرتُ أختي سرا ولم أخبر أمي المريضة. ودّعناهم واتجهنا إلى القطار الذي استغرق سبع ساعات إلى برشلونة، كان قلبي يدقّ طيلة الرحلة، خفتُ أن يتتبّعوا هاتفي بتحديد موقعي بالرغم من أنّي حذفتُ تطبيق تحديد المواقع منه. ساعدني أناس طيبون وحجزوا لي ببطاقاتهم البنكية رحلاتي فلم أستعمل بطاقتي، عندما وصلنا اتجهنا إلى الفندق وحينذاك بدأتُ باستقبال اتصالات الشرطة الفرنسية، أخبرتهم أننا في عطلة وقد صادف ذلك العطلة المدرسية في فيفري، أصرّوا على تواجدي في البيت لحضور المحكمة وأردت طمأنتهم أنني سأعود في الغد للحضور، لقد كذبت كثيرا لحماية أولادي. اتجهت إلى المطار مبكرا وقد كانت رحلتي في وقت متأخر من ذلك اليوم، طلبتُ تعجيل رحلتي وأخبرتُهم أنّ عندي حالة استعجالية عائلية ودفعتُ مالا على ذلك، صعدتُ الطائرة فوصلني اتصال من القاضي وبرفقته كانت موظفة السوسيال:

_ أين أنت؟

_ أنا في الميترو قادمة.

_ في الميترو أم في إسبانيا؟ سنصدر مذكرة توقيف بحقّك، ما تفعلينه خطير للغاية ... أنت تسرقين الأطفال.

_ أنا لا أسرق ابنَيَ، أنا أحميهما من الخطف.

_ كيف عرفتِ ذلك؟

_ لقد أخبرتني موظفة السوسيال أنها ستطلب سحب أطفالي بسبب تلك المواضيع المثارة.

_أنت ستذهبين إلى الجزائر، إنه بلد غير آمن.

_ من أجل إبنيَ سأدخل بلدي مجدّدا. أوقن أنّ بلدي ستحميني، فرنسا لم تحمني ولم تحمِ ابنيَ.

_ لقد بالغت في الأمر، أنتم فرنسيون.

_ أنا جزائرية وأكرر ذلك.

أغلقتُ عليها الخط، فاتصلتْ بي أمي:

_ ما الذي فعلته يا ابنتي؟ رجال الشرطة داهموا البيت.

لقد هدّدوا أمي المريضة التي لا دخل لها من قريب ولا من بعيد، هدّدوها بالسجن واتهموها بالتواطؤ معي.

_ لماذا ذهبتِ يا ابنتي؟ كان علينا إيجاد حلّ معهم.

_ لا حل معهم يا أمي، أنت لا تعرفينهم جيدا. لقد استحالت معهم الحلول.

خانتني شجاعتي، تساقطتْ دموعي الواحدة تلو الأخرى ولم أستطع إيقافها:

_ سامحيني يا أمي، لم أكن لأفرّط في إبنيَ، لقد تحاملت على نفسي وعانيت الأمرَين من أجلهما. لن أسمح لهم بأخذ روحي مني... لقد كان يتوسل لي ابني قبل نومه أن لا تدعيهم يأخذوننا بعيدا عنك وقد قطعت له عهدا أنني سأعمل ما استطعت لحمايتهم من أنياب السوسيال.

أقلعت الطائرة ولم تكن الرحلة طويلة لكنها كانت أطول رحلة يمكن لأمّ أن تقطعها، رحلة الخوف من اختطاف أطفالها، رحلة الترقب، رحلة التوتر والقلق، رحلة الهروب من المجهول نحو المجهول، رحلة النجاة، رحلة الحرية من القيود. هبطت الطائرة نزلت مع ابنيَّ وعند بوابة الوصول حيث يلتقي المسافرون مع أحبائهم وأهلهم، حيث باقات الورد ولافتات انتظار الأشخاص سقطت مع ابنيَّ على أرض الوطن وتقيّأنا مرارة الظلم. تجمّع الناس حولنا يسألون عن حالنا، فطمأنت الغرباء أنني أنقذت ابنيَّ، لكن أحدا لم يفهمني. نظرات ابنيَّ لي وهما في حضني كانت تعني لي الكثير وأول ما نطقه ابني وهو يبكي:

_ شكرا جزيلا أمي، شكرا جزيلا.

أتى خالي ليصطحبنا معه من المطار، وعندما فتحت هاتفي، كانت الاتصالات الواردة كثيرة، اتصلت بي والدتي وأخبرتني أنّ الشرطة ما زالت بالبيت ويتهمونهم بالتواطؤ، فطلبتُ منها وضع مكبر الصوت:

_ أمي لم يكن لديها خبر بسفري، فرجاء خلّوا سبيلهم واتركوهم لحالهم.

لم تمر أيام كثيرة في الجزائر حتى لجأتُ لمحكمة جزائرية ورفعت قضيتي إلى وكيل الجمهورية، عقدنا عدة جلسات، تحدّث ابنيَّ مع قاضي الأحداث، أُستُدعي طليقي أيضا وساند ولدَيه.

أعانتني أمي كي أستأجر شقة بالجزائر، فتح الله لي بعمل في مجال الترجمة بعد أسبوعين من وصولي، سجلت ابنيَّ في المدرسة حيث كلّ ما فيها مجاني إلا رسوم التسجيل التي كانت رمزية، حكيت قصتي في وزارة التربية الوطنية فتعاطف معي الجميع، استضفت في بث مباشر على منصة التيك توك وقد تضامن معي الجميع وأرادوا مساعدتي في كل ما أحتاجه لا أتحدث عن شخص أو شخصَين، لقد وصلني ما يقارب خمسة آلاف اتصال ورسالة، أضحى الجميع يريد زيارتي ومعانقة أبنائي، أولياء الأمور في المدرسة الجديدة وكذا طاقمها الإداري ومعلمّوها كلّهم دعموا ابني دعما لا يتخيّله عقل بشر، عوملنا كأبطال، لقد منحوني ما حرمتنيه فرنسا طيلة حياتي، العيش بأمان، بحرية حقيقية لا مزيفة.

طالبت السفارة الفرنسية الدولة الجزائرية باسترجاع ابنيَ، لكن الأخيرة رفضت رفضا قاطعا كونهما مواطنان جزائريان على أرض جزائرية، لكن لم يقفوا عند هذا الحدّ وإنما لُوحِقَ ابني عند باب المدرسة واستجوابهم من قبل موظفين في السفارة ولم يكن يحقّ لهم ذلك وقد رفعت عليهم شكوى، فهم في بلد ذي سيادة وعليهم أن يلتزموا بقوانينه، لن أنسى ما حييت خير بلدي عليَ.

آخر ما أذكره، لقد اتصل بي فتى صغير جزائري محتجز في مراكز حماية الأطفال القصّر بفرنسا، يعلم بقصتي من مواقع التواصل الاجتماعي، اتصل بي ليحكي لي وأقرانه ما يعانونه في تلك المراكز، وكذا عند العائلات الحاضنة، أخبرني عن الضرب الذي يتلقاه من قبل الموظفين الذي خوّلوا بحماية حقوقه، أخبرني عن الماء الساخن الذي يوقظونه به ويهدّدونه؛ لأنّ والده خرج في مظاهرات، أخبرني عن الضغوطات النفسية وعن الذين ماتوا بسببها، عن الآباء الذي انتحروا حينما يئسوا من استرجاع أبنائهم -والله المستعان- شكرني كثيرا؛ لأنّني كسرت حاجز الصمت وصدحت بقصتي على العلن وشاركتها مع الناس، شكرني لأنني أريت للناس جزءا من حقيقة فرنسا التي يموت من أجلها الشباب في عرض البحر. ولن يصدّقك إلا من اكتوى بنفس النار الذي اكتويت بها.... يطالبني المسكين الآن أن أساعده! أتمنى حقّا أن ينقذه أحد ما من براثن تلك المراكز.

شجار بسيط قاتل !

أمسية كباقي أمسيات الأسبوع عدتُ فيها إلى البيت من عملي واتجهت مباشرة إلى المطبخ لأطهو العشاء، مررت على ابني وهو يتصفح هاتفه، فأرسل لي قبلة في السماء فرددت له بواحدة مماثلة، نزلت ابنتي من غرفتها وأرادت مساعدتي لكنني امتنعت لكونها عادت متعبة من المدرسة، ذهبتْ إلى أخيها كعادتها كي تعكّر صفو مزاجه حيث يتصرفان كالطفلين لا المراهقين، لم يكن ربما مزاجه ذلك اليوم صافيا كي يتعكر بل كان معكرا بالفعل، تشاجرا وتلاسنا، صرخ عليها وغضبتْ منه وانزوى كل أحد إلى غرفته، اجتمعنا على طاولة العشاء بعدها مع أخيهم الصغير وأشركناهما في حوارنا وانتهى الخلاف البسيط وعادت الأمور إلى نصابها وخرجنا مع بعضنا لنمشي كعائلة صغيرة أقصى أحلامها أن تعيش في سلام بعد أن هربت من عراقها المكلوم الذي مزّقته الحروب ودمّرته الخلافات.

في اليوم الموالي غادر أبنائي الثلاثة البيت إلى المدرسة بعد أن تناولنا إفطارا عراقيا لذيذا، وخرجت بعدهم إلى عملي، تأخّرت ابنتي في العودة إلى البيت، لم يكن تأخّرها أمرا طبيعيا. انتظرتها حتى وصلني اتصال من مركز السوسيال:

_ مورين من السوسيال، اتصلتُ بك لأخبرك أن ابنتك عندنا.

_ ما المناسبة؟

_ هناك بلاغ قلق من أحد الجيران أنّ شجارا قد وقع في البيت وقد سمع صوت صراخ.

ذهبت إليهم، توسّلت لهم أن يخرجوا لي ابنتي، فرفضوا رفضا قاطعا، أخبرتُهم أنها لم تبتْ يوما خارج منزلنا بعيدا عني، لكنني لو كنتُ أتكلّم مع الجماد لعطف على حالي، هدّدتُهم بأنني سأقتل نفسي، استهزؤوا بي قائلين:

_ هل تهدّدينا؟ سترين ابنتك غدا على الساعة العاشرة.

ذهبتُ إلى المنزل وكل هموم العالم جاثمة على صدري، ما الذي حدث؟ ما الخطأ؟ ما هذا الظلم؟ لمَ هذا الاستبداد؟ ألم يجعل السوسيال لحماية حقوق الطفل؟ أيّ حق هذا الذي يجعل الطفل يخطف من أمّه بسبب شجار بسيط بين أخوَين؟ هل الصراخ يعدّ جريمة في السويد؟ هل السلطة مطلقة لكل شخص كي

يدمر حياة عائلة ولو كان جارا انزعج أثناء نومه بصوت عالٍ صادر من جاره؟ ذهبتُ إلى البيت لأحكي همّي لابني فلم أجده هو الآخر، لقد سمع ما حدث، فخاف من بطشهم هو الآخر وهرب إلى المجهول، لا أعرف مكانه إلى الآن. ابني الذي كان يلقي علينا النكت الليلة التي سبقت ذلك اليوم لم يعدْ موجودا، ابني الأكبر الذي ملأ البيت بوجوده بعد انفصالي عن والدهم، الرجل الذي أعتمد عليه، السند الذي أتكئ عليه، عكّازتي التي أهشّ بها على ضعفنا نحن الثلاثة، لقد هرب وتركنا. بتُّ ليلتي محتضنة ابني الصغير وخائفة أن يُطرَق بابي ويُختطَف هو الآخر. كنت أطمئنه وكل حواسي تقول له لا طمأنينة أحس بها. جسدي يرتجف، صوتي يتقطع، دقات قلبي تسرع تارة وتتباطأ حتى أحس أنها ستسكت إلى الأبد.

ذهبت قبل الساعة العاشرة علّهم يرحموا قلب أمّ لم ينمْ ليلة كاملة خوفا على ابنَيه، وكانت صدمة العمر، أخبروني:

_ أنتِ أخطأت في فهمنا، لن تري ابنتك قبل ثلاثة أشهر أو أربعة.

كيف لعاقل أن لا يفهم كلامهم؟ طلبوا مجيئي لرؤيتها وحينما ذهبت أبلغوني أنني مخطئة؟ في أيّ نقطة أخطأت؟ هل أخطأت أذناي السمع؟ هل قالوا كلاما يراد به معنى آخر؟ أم أنني أخطأت حينما اخترت السويد كبلد آمن وسعيد؟

فتحوا معي تحقيقا استمر لثلاث ساعات وعوملت كأمّ مجرمة، لم يصدّقوا أنه كان شجارا عاديا بين أخوَين وأنني لم أتدخّل فيه؛ لأنه كان حقا عاديا، عاديا ... لماذا لا يريدون أن يفهموا أنه كان عاديا!! أخبروا ابنتي أنّ أمك غاضبة الآن ولا تريد رؤيتك وأخبروني أنا أنّها لا تريد رؤيتك لأنك لم تحمها، لقد كانوا يكذبون؛ فالأمر لم يكن فيه تهديد لها أو أذية وأنّ الأمور عادت لمجاريها كأنّ شيئا لم يكن، حتى أنها حضّرت له شايه المفضّل ذلك الصباح.

اتصلتْ بي مورن خلال ذاك الأسبوع وأخبرتني أنها ستسحب ابني الصغير ابن السادس، فسألتها من قدّم بلاغ القلق هذه المرة، فأجابت أنها هي من ستقدّمه، لأنه في خطر بحسبها، فكوني لم أدافع عن ابنتي فلن أحمه هو الآخر، ممن يحموه؟ إن كانوا يعرفون أنّ ابني الكبير قد غادر البيت، فممن سيحمونه؟ ابن السادسة يُودَع في مركز الأطفال؟ حرقوا قلبي على ابنتي ولم أكن أعلم عنها شيئا وكانوا سيحرقون قلبي عليه هو الآخر. دخلتُ بعد المكالمة مباشرة إلى تطبيق حجز التذاكر وحجزت تذاكر سفر إلى أمريكا حيث يقيم

والده، وتركتُه عنده لحمايته من السوسيال التي جُعلَت لحماية الأطفال! عندي عودتي وجدتُ السوسيال يطالبُ بابني فأخبرتُهم أنني أودعته عند والده كوننا نتقاسم حق حضانته، ظاهريا رحّبوا بقراري لكن باطنيا جنّ جنونهم، لو كانوا ينوون بنسبة 1% أن يروني ابنتي، فقد تبخّرت تلك النسبة لأنّ ابني ضاع من أنيابهم.

في لحظة مرح، لحظة مشاكسة، صبيانية تحوّلت حياتي إلى جحيم واختفى أبنائي الثلاثة من البيت، كانوا أُنسي في غربتي، كانوا روح البيت، كانوا دفئه، أظلم البيت بالرغم من أنّ مصابيحه كلها مضاءة، السوسيال دمّر حياتي كليا.

استمرتْ اجتماعاتي معهم لمدة شهرين وفي كل مرة كانوا يكذبون علي ويخبرونني أنّ ابنتي لا تريد رؤيتي، أصبح ذلك الكذب الساذج يضايقني، دخلتُ لصفحتها في السناب كعادتي فوجدتها قد حدّثت حالتها كاتبة ''ضجرة، كئيبة، في عالم آخر'' وأخيرا هناك خيط يربطني بابنتي، لو كانتْ مجرمة وارتكبتْ جرما عظيما ما كنا نعامل هكذا، تواصلتُ مع حبّة قلبي وأخبرتُها أنني أمها، كأنّ أرواحنا رُدّت إلينا ... بعد حديثنا أصرت على رؤيتي فناولوها المهدّئات واتهموها بالعصبية! لماذا؟ لأنها تريد أن ترى أمها التي لم تفارقها يوما منذ ولادتها! بعد إلحاح كبير سمحوا لنا باللقاء، قرروه ساعة واحدة لكن ابنتي أصرّت على أن يكون يوما كاملا، لا كلمات تصف شعوري ذلك اليوم، لن يعيش ألمي أحد، أريد أن أحكي قصتي لأنني أريد أن يعرف الناس حقيقة الحياة في السويد، لا أريد شفقة من أحد، كل ما أريده أن لا يعيش أحد ما عشته أنا أو عاشه أولادي الذين شرّدهم السوسيال من مكانهم الآمن.

ابنتي لم تكن طبيعية ذلك اليوم، نحيفة جدا، خسرت تقريبا 20 كغ من وزنها! عزمتها على غذاء فأخبرتني المفاجآت عن عائلتها الحاضنة، لقد كانوا يدخّنون شيئا يشبه السجائر لكن لم تكن سجائر، لم يكونوا يطعمونها من أكلهم وإنما يكتفون بإعطائها علبة أندومي واحدة ليوم كامل، كانت تحكي بألم وهي تتناول أكلها، كيف كانت تصف أكلهم وكيف جوّعوها، وضعوها في مخزن تابع للمنزل لا يصلح للعيش، كان باردا جدا، كانت تأكل وتردد ''أمي أنا باردة، أكاد أتجمد هناك ''، لمْ تعدْ تذهب إلى المدرسة، لا أحد يأخذها. تنام الساعة 12 ظهرا وتستيقظ الساعة 8 ليلا لتبقى ساهرة معهم، كانت تحكي معاناتها وسهام القهر تنغرس في قلبي، ابنتي التي أفنيت عمري من أجلها وأجل أخوَيها أجلس عاجزة أمام الظلم الذي سلّط عليها... افترقنا ذلك اليوم وكلّي أمل بإنصاف القانون السويدي؛ فأنا حقا لم ألحق أيّ أذى بابنتي.

بعد أيام هربتْ ابنتي من العائلة الحاضنة إلى البيت أثناء عملي، اتصلتْ بي وفرحتُ جدا لذاك الخبر، لم تدمْ فرحتي سوى دقائق معدودة حتى اتصلتْ بي موظفتَي السوسيال واتهموني أنني ساعدت ابنتِي على الهروب؟! لم يكنْ لدي علم بالأمر أصلا، لكن تلك هي اتهامات السوسيال، صادقة صحيحة ولو أجمع الكل على غير ذلك. بقيت ابنتي بالبيت لإصرارها على ذلك واستمرت مقابلاتنا اليومية مع السوسيال في البيت، أريتُهم غرفتها، ملابسها، أجهزتها، كل ما يخصها ليوقنوا أنني أفعل ما بوسعي لإسعادها، وكذا أخبرتهم ما يحدث لابنتي عند العائلة الحاضنة فقابلتني الموظفة بضحكة! تضحك على ألمنا؟ لمْ تعشْ ما عشناه ولن تعيشه لأنها في بلادها، سنعامل دائما كمواطنين من الدرجة الثانية ولو لمْ يصرّحوا بذلك.

لقد دمّرت العائلة الحاضنة في شهرَين ما بنيتُه في ابنتِي لسنوات، لم تعدْ ابنتِي قادرة على الذهاب للمدرسة، لا تحب الخروج وتخاف الناس، لقد تعب مخها من كثرة المهدّئات، ابنتي الطالبة المنضبطة المجتهدة التي كانت تتفانى لتصبح طبيبة أسنان أضحت جمادا تغلق الغرفة على نفسها وتسكن في سكون الغرفة. اشتاقت إلى إخوتها، ربما كانت تُحمّل نفسها ذنبا لم ترتكبه، أخذتُها إلى المستشفى وعالجوها بالمهدّئات أيضا، أنواع عدة فلم يكتفوا بنوع واحد... أصبحت مريضة نفسية، هذا ما فعله السوسيال بها... زادت حالتها سوءا وتوقف قلبها، نامت في غرفة الإنعاش لستة أيام ثم انتهت قصتها، رحلتْ عن عالمنا الظالم، عن العالم الذي يدعي حماية حقوق الطفل، لم أر ابنتِي بعد موتها، لم أقبّلها القبلة الأخيرة، لم أودّعْها الوداع الأخير، لا أعلم حتى أين دفنوها، لم يصرّحوا أيضا بسبب الوفاة وحينما ألححتُ عليهم أبلغوني في تقرير أنها تسمّمت بالأدوية، قتلوا الصغيرة بالأدوية، ابنتِي التي لم تأكل حبة دواء في حياتها، ابتلعت في شهرَين أو ثلاث ما تعجز عنه أجسام الرجال الضخام.

حينما أُخبِرتُ بوفاتها أظلمت الدنيا في وجهي أُغميَ عليّ وحُوِّلتُ إلى قسم آخر، ساءت حالتي وأجروا لي التحاليل والصور الإشعاعية واكتشفوا أنّ السرطان قد انتشر في جسمي. بدأت علاجي وحينما أحسستُ بالقليل من التعافي ذهبتُ إلى السوسيال أجرّ قدماي من الوهن والتعب والحزن، قابلتني موظفة الاستعلامات بتجهّم، لم أهتم لتعابير وجهها، فهمّي آنذاك هو الوصول إلى ملف ابنتي، طلبتُ منها بهدوء: ''أريد ملف ابنتي ''، كأنّ شخصا ضربها، بدأتْ تصرخ: ''لماذا تريدين الملف؟ لماذا تريدين الملف؟ أخرجي من هنا، هيا أخرجي''، حرموني من ابنتي وحرموني حتى من معرفة حقيقة وفاتها وحقيقة ما تعرّضت له عند العائلة الحاضنة. ما طبيعة الأدوية التي أجبرت على تناولها ومن سمح لهم بإعطائها تلك السموم؟ وكّلت

محامية لرد حق ابنتي، أخذتِ المعلومات والنقود وبعد مدة اتصلتْ لتخبرني أنّ القضية أغلقتْ!! القضية أغلقتْ!! لا تذكّرني قصتي إلا بقصص العصابات والمافيات الذي يلفّها الغموض... أنا أقولها أمام الملأ ولا أخاف ''السوسيال عبارة عن عصابة متجذرة محمية بالقانون السويدي''.

ويذكرني كلامي هذا باحتجاجات قام بها سياسيون رومانيون أمام السفارة السويدية في بوخارست ضد السوسيال الذي اختطف طفلَين من عائلة رومانية مقيمة في السويد، وتوسط حتى سياسيو رومانيا عند سياسيْ السويد من سفراء، برلمانيين ووزراء للتدخل وإرجاع الطفلَين لعائلتهما، لكن سرعان ما خرجتْ وزيرة الخدمات الاجتماعية لتصرّح أنّ الحكومة السويدية لا تتدخل في قرارات الخدمات الاجتماعية الخاصة بكل قضية، مدّعية أنّ مبدأ مصلحة الطفل هو الأساس في التشريعات السويدية. من هذا التصريح الكبير تدرك مدى سلطة السوسيال في السويد ومدى صدق كلامي.

لو كنت أعلم حقيقة هذه البلاد لما هربت من الحرب، ليتني استشهدت مع ابنتي، كان ذلك أشرف لنا، لكان لنا -على الأقل- قبرَين معروفَين، لا أدري أين هو قبر ابنتِي ولا أدري من سيدفنني، لا أدري هل سيمهلني المرض حتى أكحل عيني برؤية ولديَ أم أنني سأموت قبل ذلك. حتى الطبيب المسؤول عني عندما دخلت المستشفى أخبرني: ''أنت هنا في قسم الميؤوس منهم، على أكثر تقدير ستعيشين شهرَين فقط'' هذه بلاد الرفاهية والعيش الكريم، يخبرني ببرودة عن حالتي ويشرح كأنه يشرح درسا لتلميذه، بقلب بارد، بمشاعر باردة، بلكنة جافة. لقد أخبرتهم: ''أنتم لا تملكون لا حرية ولا ديمقراطية ولا حقوق الطفل ولا حقوق المرأة ولا حقوق الحيوان، أتفق معكم أنكم عملتم جاهدين على تجميل صورتكم فانبهرنا نحن اللاجئين بكم وبشعاراتكم لكننا حينما عشنا معكم واكتوينا بناركم علمنا متأخّرين أننا كنا واهمين، استقطبتم اللاجئين ودمّرتم عائلاتهم واختطفتم أطفالهم. لو أستطيع فقط الوقوف على قدمي الآن لصعدت طائرة متجهة إلى العراق، لن أبق دقيقة عندكم ...''

لا أحد يعلم مصير فاديا اليوم.... اللهم فرّج عليها إن كانت حية وارحمها إن وافتها المنية.

طلب اللجوء ... فخ!

أنا أمّ مسلمة كنت أقطن مع أبنائي في بلدي الأمّ أعيش حياة هادئة مليئة بالرضا، ما يميزني أنني كنت حالمة ولا سقف لأحلامي، قررتُ في يوم ما -مدفوعة من زوجي- الذهاب بأبنائي إلى إسبانيا حيث تتزاوج مناظر الطبيعة الخلابة ومظاهر حياة الرفاهية أو كما كان يصوّرها لنا الإعلام. إسبانيا حيث مستقبل الأطفال المزدهر، حيث حقوق النساء محفوظة وحقوق الأطفال مكفولة من قبل القوانين الصارمة، حيث الحضارة والتمدن، الصحة وجودة المرافق، النظافة والنظام، حيث العلم وفرص العمل، ذهبنا بتأشيرة سياحية لنجرّب بداية العيش هناك ثم نحاول تسوية أوضاعنا إن أعجبتنا الإقامة بين أظهر المشركين. أردت مزاولة عملي هناك كممرضة استعجالات والعناية بأبنائي وتدريسهم والحفاظ على هُويّتنا الإسلامية فهي رأس مالنا، كانت هذه تصوراتي وعليها بنيتُ قراراتي.

وصلنا إسبانيا واستقرينا عند أقربائنا نعرفها ريثما نستقل بمسكن خاص لنا. قدمتُ على تربص في أحد المؤسسات فأعطوني جدولا مكتظا بحيث لا يوجد هناك متسع من الوقت لأبنائي، فسألتهم التخفيف من الحجم الساعي لكي أتفرّغ قليلا لأولادي فأرادوا تأجيل التخفيف، أرادوا بذلك أن يشغلوني عن أبنائي وهم يتكفلون بتربية أبنائي على معتقداتهم الخاصة. بحثت عن مسكن، فلم يرض أحد أن يؤجّرني بيته لأنني أملك أبناء ثلاثة! اقترح عليّ قريبي الذي استقبلنا في بيته -بعد أن ضاق بنا ذرعا- أنْ ألجأ لمؤسسة لتساعدني في إيجاد منزل للسكن، لقد بعثني إلى مؤسسة تدعى برأس الأفعى، نعم لقد ذهبتُ بقدمي وبأولادي إلى السوسيال، المؤسسة التي تدّعي أنها تقدّم مساعدات وتساعد الأهالي والأطفال ليعيشوا حياة سعيدة ملؤها الصحة والعافية!!

أتوا بمترجم كوني أتحدّث اللغة الفرنسية فقط وتركوا أبنائي خارجا يلاعبهم الشرطي ويتحدّث معهم وقد تجاوبوا معه كونهم أتقنوا اللغة الإسبانية في أشهر -اللهم بارك-، سألتني موظفة السوسيال:

_ ماذا تريدين منا؟

_ أريد تدريس أبنائي وأريد شغلا لي.

_ حاليا نحن لا نستطيع توفير مناصب شغل.

_ هل من حلّ آخر تنصحوني به؟

_ الحلّ الوحيد أن تطلبي لجوءا في إسبانيا.

_ لماذا عليَ طلب لجوء؟ اللجوء هو طلب الحماية من الاضطهاد في البلد الأصلي وأنا لم أضطهد وإنما أتيت لتحسين مستوى معيشتنا فقط.

_ إذا لمْ تريدي لجوءًا عندنا فتستطيعين تقديم اللجوء في فرنسا.

نظرتُ لمرآة قبالتنا، فوجدتُ الموظفة تغمز إلى الشرطي، فأحسستُ أنّ ما رأيتُه وسمعتُه عن خطف الأطفال في دول الغرب ماثل أمامي، أحسستُ لحظتها أنّني الضحية التالية. جذبتني من تلك الدوامة السوداء بقولها:

_ أنت تعرفين قوانين إسبانيا؟

_ نعم أعرفها.

_ قوانين إسبانيا تلزمك بتوفير سكن للأطفال، نحن لا نريد أطفالا في الشارع.

_ نعم سأوفر لهم.

علمتُ أنّ هناك أمرا يدبّر سرا، فأردت طرد الشكوك عني. فقلت لها:

_ لقد أعجبتني فكرة اللجوء، سأحزم حقائبي وأعود إليكم.... ماذا سيكون مقابلها؟

_ ستكون هناك جنسية، شقة، أموال، سندخل أبناءك أفضل المدارس.

_ إنه لأمر رائع.

السؤال الوحيد الذي يجب أن تطرحه على نفسك في موقف كهذا: ''هل هناك من يعطي دون مقابل في هذا المجتمع المادي؟ '' .

لاحظت أثناء عودتي أنّ موظفة السوسيال تتبعني أنا وأبنائي بسيارتها، فتعمّدت عدم العودة إلى بيت قريبـي كي لا يعرفوا مكاننا وعلى الرغم من ذلك لاحظتُ أنّ دوريات الشرطة قد كثّفتْ تواجدها في ذلك المكان، كان ينقصهم معرفة مكان تواجدنا فقط، أمّا عن معلوماتنا فقد أخذوها من جوازات سفرنا أثناء تلك الزيارة.

لقد حدثتْ قصتي هذه أثناء جائحة الكورونا حيث كانت الرحلات الجوية معلّقة والمجال الجوي بين بلدي وإسبانيا مغلقا، لم يكن هناك مجال للهرب بل مجال للاختباء، خبّأت أبنائي في البيت لمدة شهرَين كي لا تختطفهم مني مؤسسة رعاية الطفل وحماية حقوقه.

اقترح عليّ مضيفي مجددا أن يأخذ ابني إلى الجمعية الخيرية حيث يتكفّلون بالأطفال ويدرّسونهم، كانت في مخيلتي أنها تشبه دور التحفيظ أو دور الشباب في بلدي، مؤسسة أطفال تهتم بتدريسه مؤقتا حتى تتحسن ظروفي وأجد المسكن المناسب والمدرسة المناسبة، استخرتُ الله ودفعتُ بابني وقلبي يتقطع على حالتنا، بعد أيام هرب ابني منهم وعاد إلى البيت، لقد ساعده شخص وأخذ منه عهدا ألا يفضحه؛ فذلك سيعرضه لخطر وأذى وقال له بالحرف الواحد: "إنْ أخبرتهم أنني من ساعدك في الهروب سيقتلونني"، المسكين خاطر بحياته ونقل ابني بسيارته لمدة ثلاث ساعات في الغابة!! منزل رعاية الأطفال يقع في منتصف الغابة!! أطفال بطبعهم يخافون الظلام والسكون الموحش في الليل ويخافون أصوات الحيوانات، يضعون الأطفال في غابة لحمايتهم ممن؟! لم يكن لابني أن يهرب لولا أن سخّر الله ذلك الرجل الرحيم، لا أدري أيّ قلوب مجرمة يملكون؟ لماذا لا يضعون هذه المراكز في قلب المدينة بمحاذاة المرافق التي يحتاجونها؟ لماذا لا يضعونهم وسط المجتمع؟ لماذا يضعونهم في وسط الأشجار ولا أدري حقيقة أيّ حيوانات تسكن تلك الغابات؟ أيّ مدارس علم نفْس انتهجوها بأن يسكنوا الطفل المعنّف من قبل والدَيه في غابة كثيفة الأشجار؟ هل يعزلونهم كي لا يهربوا؟ لكن لمَ يهربون؟ ألم يكونوا لهم البديل الرائع؟ أبعدوهم عن عائلاتهم الشريرة التي تصرخ في وجوههم، فلمَ يريد الأطفال العودة إلى أهليهم؟ أليس للطفل الحق في تقرير مصيره ومع من يعيش؟ يقولون أنّ الطفل صغير لا يعرف مصالحه وأوصياءه؟ لكن لماذا منح للصغير الذي لا يعرف مصالحه الحق في تقرير جنسه؟ إنْ قال الطفل أنه يريد أن يضع مكياجا أو يلبس تنورة أو أنه يحب دمية أخته بدل شاحنته لأدخل في عجل إلى غرفة العمليات كي يغيّرون جنسه؟ التفكير فقط في الأمر يجلب للرأس الصداع.

المهم أنّ ابني ذهل من هذا المركز، وُضِع وسط المجرمين والشواذ جنسيا، عرضوا عليه الحشيش ليتناوله وحاولوا سرقة هاتفه ولولا لطف الله بنا لفقدتُ ابني إلى الأبد.

حينما استحال السفر جوا وبحرا إلى بلدي بسبب الحجر الصحي، حاولت مجددا مع جمعية بأن يبحثوا لي عن بيت وأنا من سيسدّد مصاريف الإيجار، أردت منهم مساعدتي في البحث عن منزل فقط، لم أردْ

مساعدات، أخبروني أنّ المديرة غائبة ذلك اليوم وطلبوا مني أن أعود في يوم لاحق، كان هناك شاب من بلدي يعمل في تلك المؤسسة طلب مني رقم هاتفي، فرفضت بادئ الأمر لكنه أصرّ وأخبرني أنّ الأمر في صالحي، أعطيته رقمي وغادرت مع أبنائي، في الليل اتصل رقم مجهول:

_ السلام عليكم أختي.

_ وعليكم السلام، من معي؟

_ أنا الشاب الذي أخذ رقمك هذا الصباح يا أختي، عليك بالمغادرة مع أبنائك فورا هذه المدينة، لقد أجمعوا على خطف أبنائك.

خفق قلبي بشدة، انسدّت أذنَاي فلمْ أسمعْ ما كان يحكي، لقد قرّروا، سيطرقون الباب في أيّ لحظة، ربما علموا بمكاننا وسيأتوننا، سألته بذعر:

_ هل علموا بمكاننا؟

_ لا يا أختي، عندما تذهبين لهم غدا سيخطفون أبناءك، هناك أمر من المسؤول أن اِخطفوا أبناء تلك المرأة ذات الثياب الرثّة.

_ ثياب رثة؟!

_ من الجيد أنهم لم يصفوك بصفة أخرى، هل حسبت أنهم سيحتفون بحجابك الشرعي؟ أُنجوا بأنفسكم ولا تصدّقوا أنكم في بلاد الحرية.

_ بارك الله فيك أخي، جزاك الله الجنة، لا أراك الله مكروها في أحبابك.

بعد أن تبخّر صوته قرّرت الهروب من تلك البلدة.

التقيت قبل مغادرتي لتلك البلدة بشيخ إسباني نصراني، استوقفني في الطريق فخفق قلبي، حسبته بادئ الأمر جاسوسا للسوسيال، خفتُ منه فحاولتُ تجاهله لكنه قال لي:

_ مهلا، مهلا .... لقد دعوتُ لكم البارح أن يحفظكم الله.

سألتُه بتلقائية:

_ لِمَ؟

_ لقد رأيتُك البارح تخرجين مع أبنائك من تلك الجمعية، من الصعب أن تخرج امرأة مثلك مع أبنائها بعد أن دخلتْ عليهم. لقد أخذوا البارحة بنتَين مسلمتَين عربيتَين من أمّهما، قالوا لها: ''نحن من سيربّيهما، أنت لستِ أمّا مثالية. لقد أخبرنا الجيران أنّك تتخاصمين معهما كثيرا'' وحينما نفت ذلك، قالوا لها: ''لن نصدقّك ونكذّب الإسبانيين''!!

_ هل حدث ذلك البارحة؟

_ نعم، لقد حدث أمامي بعد أن غادرتهم.

_ يا إلهي، اِحفظنا.

_ لقد رأيت ذلك الموظّف الذي كان يلبس قميصا أسود.

_ نعم، صحيح.

_ ذلك متّهم باغتصاب فتاة سحبوها من أمها، كان يطفئ الكاميرات قبل أن يعتدي عليها، حينما اشتكت الفتاة إلى أمّها، أخذتها أمّها إلى الطبيبة وأكّدت لها ذلك بتقرير، اشتكت بالسوسيال، أتدري ماذا فعلوا؟

_ لا أدري، لكن أظن أنّ الموظف لمْ يعاقبْ؛ فهو لا يزال على رأس عمله؟!

_ نعم، لقد نقلوا البنت وأبعدوها عن أمّها إلى بلدة أخرى وغيّروا اسمها.

_ يا إلهي!

_ نعم، وبما أنّها لجأت للقضاء لتفضحهم أرادوا إغاظتها، فاعترفوا لها أنها قد اغتصبت ولكن لا أدلة تثبت دعواها. حتى الطبيبة التي أصدرت التقرير اختفتْ!

_ اختفتْ؟

_ نعم اختفتْ، هناك أيضا امرأة مسلمة نصحتْ ابنتها بإطالة الفستان، فسحبوا منها الطفلة وطفلا آخر كان متفوقا في دراسته.

_ يا إلهي!.

_ نعم، لقد منحوهما إلى زوجَين شاذَّين لتربيتهما.

_ قلبي يعتصر حزنا عليهم.

_ لقد تدهورتْ حالة الطفل وتوفي... لا أدري صراحة هل توفي أم قُتل؟

_ من أين تعرف كل هاته القصص؟

_ أعرف الكثير عن بيت الأفعى هذا... أعرف الكثير. من الجيد لو اختفيتِ من هنا.

من الواضح أنه كان على علاقة بالسوسيال، لا أدري نوعها، ربما كان موظّفا بها أو رجل أمن؛ فهو كان يعرف الكثير، وتلك التفاصيل يحرصون على حبسها داخل جدران مؤسستهم، إنه إجرام منظم، عصابات فوق القانون.

هربتُ مع أبنائي إلى مدينة أخرى بالقطار، مدينة أقرب إلى المطار، طريق الذهاب كانت طويلة جدا، كنتُ أراقب أبنائي أمامي وأحدّث نفسي: ''هل هذه هي الرفاهية التي كنت أسعى لها؟ هل هذا هو رغد العيش الذي وعدتُ به أبنائي؟ أجري بهم من مكان إلى آخر، أتعبتُهم وتعبتُ أضعاف ما تعبوا، ذهبتُ على نفقتي الخاصة لمْ أطمعْ يوما في مساعداتهم المالية، كلّ ما أردته أن يبحثوا لنا على منزل فقط وأردتُ دفع الإيجار من مالي الخاص، لكنهم لمْ يكونوا يرونني من الأساس، كانوا يرون أبنائي كصيد ممتاز''.

حين وصولي للبلدة الجديدة حبست أبنائي في البيت ولمْ أخرجهم منه، جلبتُ لهم امرأة ترعاهم عند خروجي، لمْ يتذمرْ أحد منهم من البقاء بالبيت، كانوا يتعاونون معي في جميع قراراتي؛ لأنهم رأوا أنّ الخطر محدق بهم من كل مكان. لمْ يجدوا في إسبانيا مستقرّهم الآمن. لقد شاهدوا فيديوهات الخطف في بلدان عديدة، رأوا كيف يسحب موظفو السوسيال والشرطة الأطفال والآباء على حدّ سواء، كانت الأم تتشبث بابنها وكانوا ينتزعونه منها انتزاعا وحشيا لا يقوى المرء السوي حتى على إكمال تلك المشاهد، لقد رأوا حتى كيف يسحب الرضيع ابن الساعة من أمّه في غرفة الولادة!! هل يعقل ذلك يا دعاة الحرية وحاملي راية الإنسانية؟! يسحب الرضيع الخائف المسكين من ظلام الرحم إلى ظلام عالم السوسيال؟! أين حقوق المرأة؟ لا توجد. أين حقوق الطفل؟ لا توجد. تذكّرت ساعتها الحديث الذي سمعته عن والدي في صغري حيث روى الصحابة: ''كنّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ فانطلق لحاجته فرأينا حمَّرةً معها فرخان فأخذْنا فرخَيها فجاءت الحُمَّرةُ فجعلت تفرشُ، فجاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقال: من فجع هذه

بولدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها''، آه يا رسول الله _ عليك صلوات ربي وسلامه_ أه، ما فعلوا في أطفال أمتك.... خطفوا الأطفال وتركوا قلوب أمهاتهم ترتجف عليهم.

بدأت في البحث عن عمل ولو لمدة قليلة كي أوفّر مصاريف أبنائي، فقد امتنع زوجي عن مساعدتي، وجّهني رجل إسباني إلى مكان عمل وقال لي بأنه مقهى تعمل فيه نساء عربيات، اتجهتُ في يومها إليه كي تسنح لي فرصة العمل فيه وللأسف وجدته بيت دعارة لا مقهى ولا مطعم، نساء يبيعون دينهم ولحومهم بعرض من الدنيا قليل. بعد ذلك لجأت إلى أخي، فكان نعم الأخ ونعم الرجل ونعم من خلّف أبي، لقد كان يعرف أوروبا أكثر مني بحكم إقامته فيها قبل أن يهاجر الهجرة العكسية إلى وطنه الأمّ، لم يمنعني من السفر؛ لأنه أراد أن أرى الحقيقة بأمّ عيني، خشي أن يأتي اليوم الذي ألومه فيه، لمنعي أوروبا المصوّرة بالإعلام على أنها جنة، لقد سخّره الله لي وساعدني ولمْ أعدْ أحتاج إلى المال بعد ذلك.

عندما طال الوقت على أبنائي أرادوا الإضراب على الطعام ليضغطوا عليّ، فقد حسبوا أنني أماطل في إخراجهم من إسبانيا، إذ لمْ يكونوا يفهموا معنى الحجر الصحي وإغلاق المطارات، ابني الكبير قال أنه لا يمكنه العيش مع غير المسلمين، يريد أن يسمع الآذان ويصلي في مسجد الحي ويحفظ ما تبقّى له من القرآن الكريم، ابنتي المتوسطة قالت لي أنها حين تكبر قليلا فلن يتركوها وشأنها؛ لأنها سترتدي الحجاب مثلي وقد رأت ما عشته من تضييق وتحرش بسبب حجابي، أمّا الصغيرة التي لا تفقه في الحياة شيئا قالت لي أنّ بلدنا الأصلي أجمل؛ فالناس هنا يفعلون الأفعال السيئة -والعيب- في الشارع على مرأى ومسمع الجميع. أخبرتهم أنّ الأمر خارج عن سيطرتي، أمرتُهم بالدعاء ليفرّج الله كربتنا ووعدتهم أنني سأستقلّ أول طائرة ستقلع إلى وطننا.

وكّلتُ محاميا كي يرافقني عند مغادرتنا لإسبانيا، فلم أعد أأمنُهم خاصة أنهم أخذوا معلوماتنا من جوازات السفر ولهم كامل الحق لخطف أطفالك في أيّ مكان، من الروضة، المدرسة، المطار، البيت ومن أيّ مكان آخر.

وفيّتُ بوعدي لأبنائي ففور استئناف الرحلات الجوية حجزت تذاكر السفر واتجهت مع المحامي إلى المطار، وفور وصولنا أبلغونا أنني وحدي من يستطيع السفر ومُنع أبنائي، صرخت في وجوههم وطلبت تدخّل قنصلية بلادي، فأنا قد ذهبت بتأشيرة سياحية إلى إسبانيا، ذهبتُ لأرى حقيقة الغرب حيث حريات الأشخاص مكفولة بالقانون، هناك حرية لكن ليست لكل الأشخاص! وهناك حرية المعتقدات باستثناء

المعتقدات التي لا تناسبهم! وعندهم حرية الفكر والرأي لكن ليست لأفكارنا وآراءنا! أخبرتُهم أنني أكملت رحلتي السياحية مع أبنائي وسنغادر إلى موطننا حيث الأوضاع الاقتصادية متدنّية لكن هناك حرية لديننا، نعبد الله في كل مكان ولا نتعرض لأيّ عنصرية أو تضييق، نلبس ملابسنا الفضفاضة المحتشمة ولا يزدرينا على ذلك أحد، لا أقول أنّ شوارعنا مثالية لكن ليس فيها مظاهر تخدش فطرة أطفالنا أو يستحي المرء المشي فيها.

تكلم معهم المحامي وقد كان عضوا سابقا في مؤسسة الخطف والتنكيل بالأطفال "السوسيال"، أخبرهم أنني سائحة ومن حقي المغادرة مع أطفالي. لو أنني فقط قدمت اللجوء لسحب أطفالي لسجنت؛ لأنني حاولت خطفهم، اللجوء خطّتهم الخبيثة للاستيلاء على الأطفال ولولا الله الذي عرّفني بأمر اللجوء من قبلُ لكنت قدمت عليه من أجل أولادي وتوفير الحياة السعيدة لهم. لولا لطف الله بنا لكانوا تعساء في مراكز الرعاية ولكنتُ في أحد المراكز النفسية التي تعالج الآباء الذين لا يرضوا لأطفالهم الاختطاف والعيش في الذلّ والمهانة.

ركبتُ الطائرة مع أبنائي وأنا أدعي وأكرر ''اللهم إنني عدتُ في سبيلك، اللهم إني تركتُ هذه البلاد من أجل ديني ودين أبنائي، تولّني أنا وأولادي في رزقنا ومالنا وأهلنا يا رب العالمين''، كانت رحلة النجاة، لساني لم ينقطع عن حمد الله وشكره، لمْ ننبهرْ هذه المرة من جمال المدن من الأعلى ولا بطبيعتها، لمْ نندمْ ولا جزء من الثانية أننا غادرنا، نام أبنائي وأنا أنظر لهم نظرة شفقة وأحمد الله أن أخرجنا من تلك الدولة الظالم أهلها. ناموا هذه المرة ولمْ يعودوا خائفين أن يطرق السوسيال علينا بابنا وحينما وصلوا بكوا ثلاثتهم، يبكون ويحمدون الله أن عدنا إلى بلدنا المسلم، إلى النعمة التي غفلنا عنها، البلاد التي يعبد فيها الله بلا قيود، التي يرفع فيها الآذان وخطب الجمعة، البلاد التي يُلبَس فيها الحجاب ويُرخَى فيها النقاب والستار، البلاد التي لا نتعب ونحن نبحث فيها عن لحم حلال أو مطعم حلال، البلاد التي نشتري فيها السلع دون أن ندقّق في المكوّنات هل تحوي دهن خنزير أو كحولا؛ لأنّ بها مؤسسات تسهر على المراقبة، البلاد التي تجرّم الشذوذ واللواط والسحاق والزنا وبيوت الدعارة ومحلات بيع الخمور وجميع مذهبات العقل حتى أنّ بعض العطّارين ببلادي لا يبيعون جوزة الطيب؛ لأنّ العلماء اختلفوا في حكمها، حتى أبسط الأمور تؤخذ بعين الاعتبار في بلاد الإسلام، البلاد التي تحترم المرأة حقا، فلا تجد المرأة العجوز تحمل سلّة ثقيلة بنفسها في الشارع، تجد الشباب والصغار يتسابقون لحمل الثقل عنها، لا تجد أغلبهنّ يسكنّ بمفردهنّ، ولا حتى بدور

المسنّين بل محاطات بأبنائهنّ وأحفادهنّ وجيرانهنّ، لا تجد الوالد يطرد ابنته عند سن الثامن عشر بحكم أنها بلغت سن الرشد وعليها تحمّل نفقاتها لوحدها، بل تجدها تعيش معززة مكرمة ولو بلغت السبعين في بيت والدها ولا تجد البنت تأتي بصديقها إلى المنزل في أيّ سنّ كانت، الأمور مضبوطة عندنا بشرع الله لا بشرع البشر، في بلادنا الكلّ ينصح بداية من الأبوَين حتى جميع أفراد الأسرة مرورا بالجيران انتهاء بالمعلّمين والأساتذة، الكلّ ينصحك، يرغّبك بالجنة تارة ويرهّبك بالنار تارة أخرى، هناك في بلاد من السهل جدا أن توضع خلف القضبان لمجرد أنك نصحت ابنك أو بنتك. أصبحت أرى بلادنا بنظرة أخرى بعد العودة إليها. أصبحت أرى أنها نعمة من نعم الله علينا لا نقمة كما كنّا نظن.

بعد العودة إلى الوطن الحبيب استغربها الجميع إلا فئة قليلة -عاشت بينهم قبل ذلك- أصبح همّنا أن ننصح من أراد الهجرة إلى بلاد غير المسلمين متسلّحين بفائدة عظيمة "لن نصدّق ما يقال عنهم ونكذّب ما رأيناه بأعيننا".

محمد الليبي

اقترب شاب ذو ملامح عربية من موقع اعتصام الأهالي المختطفة أولادهم بستوكهولم عاصمة السويد، كان يؤدّي رقصات توحي لناظره أنه فاقد لعقله . تقدّم له أحد الشباب المعتصمين وسأله:

_ السلام عليك يا طيب.

_ وعليكم السلام.

_ من أين أنت يا طيب؟

_ من ليبيا، طرابلس ....أنت تعرفها؟

_ نعم، أهل الطيبة والشرف .... مرحبا بك، تفضل.

_ لماذا تنامون في هذا البرد القارس؟

_ الأهالي هنا معتصمون من أجل استرداد أولادهم، لقد خطفتهم دائرة الشؤون الاجتماعية السويدية "السوسيال". أسمعت بها من قبل؟

وأراه لافتة كتب عليها "الخدمات الاجتماعية تتحكم وتتلاعب بالقانون بأيديها والقضاء صامت"

The Social services take the law into their own hands while the judiciary is SILENT !

_ سمعتَ بها؟ ضحك باستهزاء ثم أكمل لقد دمروا حياتي، كنتُ محتجزا عندهم وحرموني من أمّي.

لو لم يقل أيّ شيء لفهم المخاطب وجعه من عينَيه البائستَين .

كان الحوار سويديا ثم أصبح عربيا بعد سؤاله هل يجيد اللغة العربية، فأجاب أنه يجيد ثلاث لغات.

_ أشكر جدتي -رحمها الله- وأمي لأنّهما علمّتاني.

_ أمّك السويدية أم العربية؟

_ عندي أمّ واحدة ... أمّي العربية، أمّي الليبية.

_ لكنكَ قلتَ أنّك تربّيت في عائلة سويدية.

_ عندي أمّ واحدة، لا يأخذ أحد مكانها.

_ أنت بطل، أقسم أنك بطل .... هل نسيت أمّك؟

_ هل تنسى أمّك أنت؟

_ لا، لا أنسى أمّي أكيد.

_ وأنا أيضا مثلك، لا أنساها ولن أنساها.

_ لقد أحببتك في الله يا رجل.

_ شكرا لك.

خجل الفتى من عبارات الحب والإطراء، وضع يده على فمه كي لا تظهر من وراء ابتسامته تلك ما تبقى له من أسنان مبعثرة. يبدو أنّه فقد أسنانه في سنّ مبكرة جدا. لكنه في الوقت نفسه فتح ذراعَيه ليعانق محاوره.

فضّل أن يبدأ اللقاء بطريقته التي تظهر استماتته في الحفاظ على ما أبقاه له السوسيال في ذاكرته:

_ قبل كل شيء، رمضان كريم، يجعلكم من عوّاده، كل سنة وأنتم طيّبون.

ثم بعث بقبلة في الهواء لكل من يتابعه.

_ كم لك من الزمن وأنتم مقيم عندهم؟

_ الكثير ....

_ عشر سنوات؟

_ لا .. لا .. أقل من ذلك، أربع إلى خمس سنوات. .... السنوات طويلة جدا في السوسيال، يسرق عمرك كله، يكذب عليك ذاك الذي يمدح لك أوروبا.

_ أنت نظيف يا صديقي، أسألك سؤالا ولا تغضب مني.

_ اِسأل وسأجيبك عنه.

_ لماذا تشرب الخمر؟ أنت مسلم.

_ أشربه من الهمّ ... لا أريد أن أنتحر .

_ لا تنتحر ... كيف تنتحر ... أنت إنسان مسلم.

أغمض عينيه، يخفي ألمه، يخفي وجعه ... إنهما تفضحانه... يجيب:

_ لهذا أنا أشرب... أعلم أنه ليس سببا لكنني ضعيف. ضعيف جدا.

_ أنا أحببتك...

_ أنا بشر، أنا لست بطلا.

_ أنت أقوى من البطل نفسه.

وعانقه المحاور :

_ أين كنت أنت من قبلُ؟

وضحكا للتشويش عن كمّ الألم في المحادثة، كمّ العناق في اللقاء تدفع للسؤال عن كمّ العناقات التي حُرِم منها هذا الشاب في طفولته، عناق أمّه عند الاستيقاظ من النوم، عناق قبيل خروجه للمدرسة، عناقه عند الرجوع منها، عناق والده عند العودة من العمل والكثير جدا من العناقات...

يقول وهو يترنح:

_ يعطونك إقامة وبعد ذلك يضيّعون حياتك، يدخلونك في حلقة مفرغة.

يطلب منه محاوره إغلاق الموسيقى الصاخبة بهاتفه ليسمعه بوضوح، لمْ ينجحْ في الهروب من كوابيسه بالخمر، فلجأ إلى الموسيقى الصاخبة لعلّها تنقذه.

_ يريدون المهاجرين عندهم ليبقوهم -مع احترامي لكم- عبيدا تحت إمرتهم، عندهم نسبة شيخوخة كبيرة، بعد عشرين سنة ستختفي السويد من دوننا، العائلة السويدية تملك طفلا واحدا، بهذا المعدل ستختفي السويد تدريجيا، هل يحسب المهاجرون أنّ السويد تقبل لجوءهم لأنّها تحبهم؟ مخطئون هم... يريدونهم عبيدا.

_ أنتَ فهمتَ هذا الفيلم، لماذا تستسلم إذن؟

_ لمْ أفهمْ الفيلم من البداية ... فهمتُه متأخرا.

_ من المفترض أن تقاومَ انطلاقا من وعيك بالأمور... عليك أن تستيقظَ.

_ لقد استيقظتُ، وها أنا ذا أصارحك بما في جعبتي.

_ ما اسمك؟ إذا لم يكن هناك مانع.

_ محمد.

_ ما شاء الله ... محمد؟ اسمك أجمل اسم تسمعه أذناي.

هزّ الشاب رأسه بالإيجاب وقد ارتسم الوجع هذه المرة على وجهه النحيف الذي برزت وجنتاه.

_ أتعرف اسم من هذا؟

أدار رأسه، تنهّد تنهيدة المقصّر في حق الله

_ اسم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

_ عليه الصلاة والسلام.

_ أستحي أن يكون اسمي محمد.... يقشعرّ جسمي عند ذكر اسمي.

_ هذا الاسم عظيم، له هيبة في النفوس.

_ لكنني أخاف هذا الاسم.

_ لماذا؟ من أجل السويديين؟

_ لا... لأنه اسم رسول الله، أحس أنني لا أستحقّه، لأنني أشرب الخمر..... أنظر إلى ما آلت إليه.

_ لقد سمّيتَ بهذا الاسم لحكمة... عليكَ أن تمثّل هذا الاسم أحسن تمثيل.

_ كل شيء يحدث لسبب في هذه الحياة Everything happens for a reason in this life.

_ عانقني يا أخي، بالله عليك.

أبعدوه عن حضن أمّه فنسي بعدها معنى الأمان، أبعدوه عن التي كانت تشجّعه على كل إنجاز في حياته، تشجّعه ليأكل أول لقمة، ليخطو أولى خطواته في المشي، ليذهب إلى الروضة، التي صفّقت له عند أول تقدير من المعلمة، عن أول صلاة صلّاها، عن أول يوم صامه في رمضان، عن أول صدقة منحها لمحتاج، عن أول فعل إيثار قام به، عن الكثير جدا من الأمور التي ما عاد يُشجَّع عليها.

اتجه به المحاور إلى بقية المعتصمين وأخبرهم بحالته بإيجاز.

_ يا جماعة أعتذر منكم عن سُكري ... من قبيل الاحترام، ربما يودّ أحدكم أن يصليَ هنا ... أو ما شابه.

_ لا تحترمنا نحن، اِحترمْ الذي في السماء.

_ له أعظم الاحترام.

_ أحسن بشر هم أهل ليبيا.

_ ليس شرطا أن تكون ليبيا لتكون الأفضل، في كل مكان هناك الجيد والسيء، الأمر ليس مقترنا بمكان محدد... أكثر المجرمين حاليا هم من صنع السوسيال... هل تعلم ذلك؟ أغلب المجرمين متواجدون اليوم بسبب السوسيال.... السوسيال هو صانع المجرمين.

_ ليجعلهم عبيدا له؟

يخاطب المحاورَ وشخصا آخر:

_ لنفترض أنّك والدي ... (أستسمحك عذرا) وأنت والدتي، وأنا ابنكما الذي اختطفته السوسيال منكما، وأنّي كنت أعيش بينكما وفي كنفكما، وأدرس وأتعلم، وتظن السوسيال عند أخذي أني سأنجح في العائلة الثانية... مخطئون، سأبقى طول حياتي أفكّر في أمي وأبي.

_ هم يعلمون ذلك؟

_ نعم يعلمون، يتعمدون تدمير حياتك ويجعلونك تكره المدرسة.....(كلام بذيء) .... وعندما تكبر ستصبح مجرما، هناك امرأة انتحرت ... مغربية.

_ لينا؟

_ نعم. حرام ما فُعِل بها.

_ هل سمعتَ بها؟

_ نعم، كيف لمْ أسمعْ بها، لقد رأيتها لأول مرة على الفيسبوك، لقد أبكتني، لمْ أعلمْ وقتذاك ماذا أفعل... أنا أيضا مظلوم من قبل السوسيال، لكن أقسم بالله والله على ما أقول شهيد، لقد أوجعتني.

_ أوجعتنا كلنا.

_ نعم. ابنها الصغير. المختطف من قبل السوسيال، لا أدري ما كان اسمه؟ ياسين... أعتقد ذلك، ماذا سيقال له حينما يكبر؟ لقد رأيته بالفيديو كيف يهيلُ التراب عليها وهو يضحك. المسكين لا يعرف.

_ لا يعرف؟

_ لا، لا يعلم أنه يدفن أمّه.

وضع محمد يده على وجهه وبكى بكاء الأطفال، بكى وكأنه ياسين، بكى ذلك اليوم الذي أبعد فيه قصرا على والدته... كفكفَ دموعَه ليخبرهم:

_ لقد ضحكوا عليه بلعبة فيديو وأوهموه بالحياة السعيدة.

ضحك ضحكة استهزاء ثم أكمل:

_ لكنه سيكبر وسيرى هذا الفيديو.... سينتقم لنفسه.... ستكون ردّة فعله كبيرة.

_ كم كان عمرك لمّا اختُطِفتَ؟ أتتذكر؟

يتلفت محمد يمينا وشمالا:

_ فلتتركني الشرطة وشأني.

نعم، سيارة الشرطة البيضاء وبها شرائط صفراء وزرقاء، الشرطة التي يستعان بها لخطف الأطفال وترهيب أهاليهم، رجالها الذين ينتزعون القلوب من أقفاصها انتزاعا، نزعت الرحمة والإنسانية من قلوبهم.

_ لن يأتوا إليك ما دمت معنا.

كانت تسير سيارات الشرطة بالقرب من مكان الاعتصام، تغيّر لون وجه محمد، اضطر محاوره ليوجز الكلام:

_ ماذا توجه للأطفال الذين اختطفتهم السوسيال؟

_ اِرجعوا لماما وبابا.

_ لا تستسلمْ، أنا أخاطب عقلك.... لا تستسلمْ.

_ أبدا.... أبدا (Never..... never).

أعطى رقمه للمحاور، وعده بأن يجري معه لقاء بغد ذلك اليوم ليخبره بتفاصيل قصته الحزينة، كيف عُنِّفَ من قبل العائلة الحاضنة، كيف غيّروا اسمه من محمد إلى ميكائيل، وكأنّ اسم محمد أيضا نوع من العنف اللفظي ضد الأولاد، وكيف أُجبِرَ على أكل لحم الخنزير وشرب الكحول.

غادر محمد ورآه الشباب حينما استوقفته الشرطة.

اتصل به الشاب كثيرا كما وعده، لكن هاتفه كان مغلقا ولمْ يظهرْ محمد الليبي مجددا.

بطولة شيشاني

تدور قصتنا هذه حول زوجة مسلمة شيشانية التحقتْ مع طفلها بزوجها في السويد عام 2015 وعاشوا هناك حياة عادية وأنجبتْ طفلا وطفلة هناك، لاحقتهم مؤسسة السوسيال بتهمة إهمال الأطفال، كالعادة التّهم مجهزة ومعلبّة، فالدول الغربية إذا أرادت أن تعرف من هي الأسر التي تسيء معاملة أطفالها وتهمل رعايتهم تتجه مباشرة للاجئين المسلمين، فالعائلات الأصلية عندهم لا تنجب إلا لمما كما هو معروف حتى أنهم مصنفين كمجتمعات مسنّة، فكيف يحافظون على نسلهم إذا اختطفوا أطفالهم؟ هم يحتاجون اللاجئين كيد عاملة وكذا الأدمغة المهاجرة لضمان سير حياتهم لكنهم يعدّون المواطنين غير الأصليين كالسرطان النائم في المجتمع، عليهم أن يبعثروا هذه الخلايا السرطانية، عليهم أن يضربوا تماسك هاته الأسر، يريدون أفرادا لخدمة وطنهم تابعين لهم معتنقين أفكارهم ومعتقداتهم. مهما دعوا إلى التسامح والمحبة بين الأديان واعتنقوا دين الإنسانية -كما يزعمون- فلا تصدّقهم لأنهم لن يرضوا عنك حتى تتبع ملّتهم.

اختطف السوسيال أطفالهم الثلاثة ووضعهم عند أسرة أخرى. لمْ يدّخر الأبوان جهدا لاسترجاع الأبناء الثلاثة وبلطف من الله وحده عاد الأبناء إلى حضن والدَيهم، ومنذ ذلك الحين قرر الوالدان مغادرة السويد إذ لمْ تعدْ بالنسبة لهم الدولة المثالية لتربية أبنائهم وتحسين مستوى معيشتهم. أصبحت دولة كوابيس بالنسبة لهم، لكن العقبة التي كانت تحول بينهم وبين عودتهم لبلدهم هو خوفهم من أنّ السويد وضعتْ أبناءهم تحت المراقبة وقد تمنعهم من سفرهم خارج دول الاتحاد الأوروبي إنْ أرادوا ذلك، انتقلوا إلى بولندا ليبتعدوا قليلا عن السويد ويقتربوا أكثر من حدود بيلاروسيا، خطة لتشتيت انتباه أيّ أعين تراقبهم، استقرّوا لعام كامل في بولندا حيث صبروا، جمعوا أوراقهم، خططوا وتمالكوا كثيرا أعصابهم، فأيّ خطأ صغير قد يجعلهم يخسرون أطفالهم إلى الأبد، خوفهم الكبير كان على الولدَين الذي وُلِدا في السويد ويحملان الجنسية السويدية عكسهم الذين كانوا يحملون الجنسية الروسية؛ فالجنسية لا تعني أنّ لك حقوقا مطلقة على هذه الدولة وإنما تعني أنك لها، تستدعيك متى أرادتْ وتمنعك متى شاءتْ وتبقى رهن إشارتها دائما. وأحيانا تقحمك في حرب ضد إخوانك في المعتقد لأجل مصالحها، تجنّدك لتموت من أجلها لا من أجل إعلاء راية دينك، فتجد نفسك تلبس لباسهم العسكري وتحمل رشاشهم وتُسيّر مسيّراتهم الانتحارية وأنت تقول من أجل بقائك يا بلدي، لن تستطيع حينها أن تهتف: "الله أكبر، الله أكبر .... حيّ على الجهاد، حيّ على الفلاح"، لأنّهم دائما ما كانوا يربطون هاته العبارات في حياتك بالإرهاب والتطرف!!

حملت العائلة حقائبها واتجهت بسيارتهم إلى الحدود البرية البولندية_ البيلاروسية حيث يكون هناك تساهل في الإجراءات عكس المطارات المتشددة التي يحدث الكثير من الخطف على مستواها. الجميع في السيارة جامدون كأنّ على رؤوسهم الطير، يعلمون أنّها رحلة غير عادية، رحلة خطرة، يدعون الله في سرهم أن يسّرْ -يا رب- طريقنا، إنها الهجرة في سبيلك يا رب، هجرة من أجل ديننا، رأس مالنا، من أجل آخرتنا يا رب. يحاول الأب أن يخفي ارتعاش يدَيه بالضغط بهما على مقود السيارة والله وحده يعلم بارتعاش قلبه، أمّا الأمّ فهي في عالم آخر من الخوف والترقّب... لكن لا حل آخر إلا حسن الظن بالله والمخاطرة.

عند الحدود طلبت الشرطة البولندية جوازات سفرهم للاطلاع عليها، طالتْ مدة الاطلاع وأحس الأب أنّ ثَمَّ تحركات مريبة تحدث وأنّ هناك مؤامرة تُطبَخ في مقرهم. لمْ يمهلْه حسّه الأبوي أن يقرأ مآلات ما سيحدث، فانطلق مباشرة بسيارته وكسر الحاجز البولندي واستمر بطريقه، تضررت العجلات حتى استقر في منطقة تتوسط الدولتين وتوقف بعرض السيارة معيقا تقدّم السيارات البولندية وانطلقت زوجته من السيارة تجري بأبنائها بكل قوتها إلى الحاجز البيلاروسي ودخلت الحدود وهناك تجمّعت عليها الشرطة البيلاروسية وأخبرتهم بأنّها هربت بأطفالها من بطش دولة السويد. كأنّه مشهد من فيلم إثارة، تكاد تسمع احتكاك العجلات على الإسفلت، القلوب تخفق، الأطفال يبكون ويصرخون فهم قد تذكّروا ذلك اليوم العصيب الذي اختُطِفُوا فيه من عائلتهم، هل ستعاد تلك المشاهد مجددا؟! هل سيعيشون جحيم الاختطاف مرة أخرى؟! تذكّروا أفراد الشرطة الذين درسوا عنهم في المدرسة، الذين يحمون الأطفال مما يضرّهم أو يسيء إليهم، هم أنفسهم الذين صاحبوا موظفي السوسيال عند اختطافهم ذلك اليوم وهم يتواجدون على الحدود أيضا، هم ذاتهم الذين نراهم في الفيديوهات وهم يسحبون الأطفال من أحضان والديهم، وهم من يقيّدون الآباء ويحولون بينهم وبين أبنائهم!! أيّ قلوب يملكون ليكونوا بهذه القسوة؟!

دفع الأب بأولاده نحو الأمان، دفع بهم إلى الحرية التي سيفقدها بعد دقائق من ذلك المشهد، لمْ تكن الكاميرات التي صوّرت المشهد بالدقة الكافية لتصوّر قطرات العرق على جبهته ودموع الفرحة بعينَيه وهو يرى أنه نجح في عتق أولاده من رقّ عبودية السويد المقيتة. لمْ يكنْ يحسّ بالألم وقد وضعوا وجهه على الإسفلت مكبّل اليدين، كان منتشيا بنصره، كان قلبه يخفق عزة وفخرا؛ لأنه نال وسام الشجاعة على إنقاذه لأطفاله. كلّما روي من مشاهد كانت قد صوّرت بكاميرات المراقبة من الجانب البيلاروسي ونشروا ذلك في إعلامهم واستُدعِيت الأمّ لتحكي ما جرى لها.

أمّا الجانب البولندي فقد اتهم الأب بمحاولة العبور بالقوة وإحداث الضرر ببعض الممتلكات وقد حوكم بتلك التهم والملفت للانتباه أنهم صرحوا أنّ الولدَين اللذَين يحملان الجنسية السويدية ممنوعان من السفر وقد كان الأب محقّا في شكوكه وتفضيله ممر العبور البري على الجوي. يعني حتى بعد استعادة الوالدَين الأطفال من قبل العائلة المضيفة لمْ تعدْ لهما السلطة الكاملة على أبنائهم، هم أبناء السويد ويحق لها منعهم من السفر أو اتخاذ أيّ قرار بدعوى حمايتهم وحماية حقوقهم!!

أوروبا أكبر كذبة

سافرتُ من المغرب إلى بلد الأحلام بريطانيا، وهناك تزوجتُ زوجي المسلم البريطاني بعد تعثّر زواجي الأول وكان لي من زوجي الأول ولدَان شابَّان، في أول إقامتي ببريطانيا صدمت صدمة العمر، لمْ تكنْ بريطانيا التي شاهدناها في إعلامنا وإعلامهم. مثال عن ما صدمني عندهم قطاعهم الصحي، في بلدي العلاج في المستشفى الحكومي شبه مجاني؛ أيْ بأسعار رمزية، تمرض فتذهب إلى الطبيب ليعالجك لا ليفتح معك تحقيقا وكأنك بفرع أمني. مواعيدهم متباعدة وكأنهم يقولون لك اتجه مباشرة إلى القطاع الخاص، فربما يكون مرضك بسيطا ويتفاقم أثناء انتظارك الطويل.

أنجبتُ ابنتي، كبرتْ وترعرعتْ بيننا وكانتْ سكر البيت وحلاوته، مرتْ الأيام سراعا وأتى اليوم الذي تدخل فيه حبة قلبي المدرسة، وقد كنا متحمّسين لذلك جدا، لكن فرحتي نغّصتها أخبار سمعتها متفرقة من هنا وهنالك عن عمليات الاختطاف المقنّنة للأطفال التي تقوم بها دول غربية بحقّ أطفال المهاجرين خاصة المسلمين والعرب، أطفال يختطفون بسبب أو من دون سبب، يحرمون دفء عائلاتهم والنتيجة أطفال متفككون يعيشون الحرمان وأغلبهم ضائعون في هذه الحياة. أبلغت زوجي بما سمعته، فأخبرني أنّ ذلك يخصّ الوالدين الذين يتعاطون المواد الممنوعة والمسكرات، فيحمون الأبناء من أذية الآباء. ركنت لرأي زوجي واطمأنّ قلبي لفترة وجيزة لكن تزايدت وتيرة الأخبار التي تُتَدَاوَلُ من قبل أولياء مكلومين ولمْ يكنْ ذلك يبشّر بالخير.

الأمر لا يقف عند إدمان الأولياء، الأمر يطال ديننا، الأمر يتعلق بتربيتنا لأطفالنا، لا يحق لابنك أن ينادي صديقه المتحوّل بالضمير المذكر وإنما بالضمير الذي يريده هو؛ أيْ الضمير المؤنث! فلا يحق لك أن تقول لابنك أنّ الرجل الشاذ المار أمامكم أنه شخص مخطئ وعاص، فهذا الأمر ممنوع منعا باتا وإنما تقول له إنّ هذا الشخص له حرية مطلقة في اختيار جنسه! بل حتى نوعه فالإنسان لديهم له الحق أن يتحول إلى كلب أو بقرة أو حتى سلحفاة! حتى أنّ هناك مصطلح الكلاب البشرية ... ليس مصطلحا وإنما ظاهرة! نعم، إنها ظاهرة تحول البشر الذين كرّمهم الله إلى كلاب، فيلبسون ملابس جلدية وأقنعة وجوه كلاب، يمشون على أربع ويقلّدون سلوكيات الكلاب؛ وذلك بغية المال أو بدافع الرغبة في العيش بهذا النمط!! هل تأتمن مثل هذا المجتمع على ابنك المسلم الذي هو أمانة في رقبتك إلى يوم القيامة؟! ابنك تلك النبتة الفتيّة التي

وجب العناية بها وتهذيبها، هل لك أن تضعه في المستنقع وتنتظر منه أن يخرج شجرة خضراء يانعة؟! ما استخلصته في عيشتي هناك، إمّا أن تكون مثلهم أو ستعاقب؛ لأنّك اخترت أن تكون مختلفا عنهم.

أعدتُ فتح الموضوع الشائك مع زوجي فأخبرني أنّ الأمر مختلف عمّا أفهمه وأنّ الدولة البريطانية تستهدف الآباء المدمنين والمهملين لأبنائهم وليس لها الوقت لتتبّع زلاتنا وأخطائنا، لكنني لمْ ارتحْ لكلامه تلك المرة وطالبته أن يعاهدني أن يبعث بي مع ابنتي إلى المغرب في حالة أيّ اتصال من السوسيال، وعدني وكلّه ثقة أنّ بريطانيا لن تلمس أيّ شعرة منّا بأذى.

منذ دخول ابنتي مدرستها لمْ أزرْها، والدها هو من تكفّل بذهابها وإيابها، وقد تجنّبت ذلك لأنني أعاني من عنصريتهم تجاه النقاب، فأردت اختصار ذلك التعب على نفسي لكن المدرسة كان لها رأي آخر: "لماذا لمْ نرَ هاته الأمّ منذ بداية العام الدراسي؟"، اتصال ورد زوجي من المدرسة يسأله لماذا ضُرِبَت ابنتي؟ تهمة مباشرة دون أيّ دليل ولا أثر للضرب، كيف لي أن أصدّقهم أنّ ابنتي اشتكت مني لديهم؟

فنّد زوجي التهمة عنّي لكنهم لمْ يريدوا تصديقه، أخذتْ أسئلتهم منحى آخر بعد ذلك، سألوه:

_ هل هناك أيّ نوع من المشاكل بحياتكم؟ فأجاب بالنفي، فقالوا له:

_ كيف لحياتكم أن تكون خالية من أيّ مشاكل؟ لا صراخ في منزلكم؟ لا ضرب؟ لا تعنيف؟

تنبّه زوجي لهم، فسألهم:

ما دخل حياتنا الخاصة ومشاكلنا في ضرب ابنتي؟

يراوغونه في الأسئلة ليلتقطوا أيّ إشارة في أيّ جواب. حاول زوجي إقناعهم وتظاهروا أمامه بالاقتناع. كِدتُ أموت من ذلك الاتصال. بدأت أتذكّر كمّ القصص التي سمعتها وكانت تبدأ بالبداية نفسها تقريبا، يتّصلون بك ليخبروك ببلاغ القلق، طمأنني زوجي عند دخوله مع ابنتنا وقال أنّ هذا الاتصال لا يعدو أن يكون سوى إجراء روتيني من المدرسة وبينما هو يطمئنني ويهدّئ من روعي وردهُ اتصال من رقم غريب

_ أين أنت؟

_ بالبيت.

_ أين هي ابنتك؟

_ معي.

أين هي زوجتك؟

_ معنا.

_ناولني زوجتك لأتحدّث معها.

_ من أنت؟

_ موظّفة من السوسيال.

ناولني زوجي الهاتف:

_ مرحبا.

_ مرحبا.

_ لماذا ضربتِ ابنتك؟

_ أنا لمْ أضربْ ابنتي.

_ لقد رميتها بحذاء.

_ قلتُ لك أنا لمْ أضربها.

_ وأنتِ تؤذينها عندما تمشطين شعرها.

_ ماذا ؟! أؤذي ابنتي؟ هذا غير صحيح ....إن كان هناك أيّ دليل يدينني فهاته.

_ سنفتح تحقيقا وسنتصل بكم يوم السبت أو الاثنين حتى نتأكد أن لا شيء يحدث للطفلة وسنغلق الملف بعدها.

_ مرحبا بكم في أيّ وقت.... نحن في انتظاركم.

أعطيتها الأمان التام وودّعتها كأنّ شيئا لمْ يكنْ.

أغلقتُ الهاتف واتجهتُ صوب خزانتي لأجهّز حقائب السفر، حجز لي زوجي تذاكر الطيران إلى المغرب الحبيب، ذلك البلد الذي هربنا منه مرغمين ظنّا أننا سنجد سعادتنا عند الغرب، المغرب ذلك البلد المسلم الذي لا تشعر فيه بالوحشة وأنت في كامل ملابسك الشرعية، المغرب الذي لا تجد فيه السرقة منتشرة انتشارا مجنونا في أحيائه الكبرى فلا يحتاجون إلى نصب كاميرات جديدة إضافة إلى كاميرات الشوارع الأساسية مثلما يحدث في لندن العظمى. المغرب الذي يذهب فيه أطفالنا إلى المدارس ويعودون منها ونحن في طمأنينة أنْ لا أعين تُراقِب ولا أيدٍ تُفتِّش. شوارع المغرب التي تكاد تخلو من المتشردين، وإنْ حدث فحالات معدودة وذلك بسبب قوة روابطنا الأسرية والاجتماعية عكس شوارع لندن وأنفاقها التي تجدها مزدحمة بهم فقد أُبتلوا بالقروض الربوية والإفلاس بأشكاله كافة. المغرب الذي نصادف فيه كلابا عادية تبحث عن أكلها وليس كلابا بشرية قد انتكست فطرتها. المغرب حيث الجار يربّي والعمّ يربي والجدّ يربّي والمعلمّ يربّي والشيخ محفّظ القرآن في المسجد يربّي، أمّا في بريطانيا فعليك أن تخضع لطفلك حتى لو قال لك أنّه فتاة مسجون في جسد ذكر!! لدينا مساوئ لا أحد ينكرها لكنها ضخّمتْ وقزمتْ مساوئ الغرب حتى حسبناها جنّة على الأرض.

اتجهنا إلى المطار ونوينا الهجرة في سبيل الله، هجرة لحفظ ديننا ودين ابنتنا، وقبل ركوب الطائرة اتصل زوجي بالمدرسة ليخبرهم أنّ بنتي ستغيب لوعكة صحية ألمّت بها. لقد كانت رحلة التحرر من رقّ الدنيا، كنا نطير في السماء وقلوبنا ترفرف معنا. عند وصولنا اتصل السوسيال بزوجي وسألوه سبب غيابنا عن المنزل، ففور إبلاغ زوجي بغياب ابنتنا عن المدرسة توجّهوا مباشرة إلى المنزل للتأكّد أنّنا لمْ نضربْ ابنتنا أو أنّنا نخفي شيئا عنهم لكننا تركنا بريطانيا العظمى لهم ليهنؤوا بها ولمْ نتركْ لهم ابنتنا.

بعد أيام اتصل أصدقاء زوجي به وأخبروه أنّه تسرّع في اتخاذ قراره وأنها مجرد إجراءات روتينية لكننا لمْ نقتنعْ ولن نقتنعَ بما يقولونه، فلو كانت نسبة اختطاف ابنتنا واحدا بالمئة وبقينا هناك لكان ذلك مخاطرة بها وبدينها ولبقينا نعيش قلق الاختطاف حتى تبلغ الثامنة عشر، هل نخاطر كل هذه المخاطرة من أجل عرض من الدنيا قليل؟! أنجبتُ ليكون نسلنا مسلما موحّدا واحتسبتُ أجر الحمل والولادة والرضاع والتربية لوجه الله خالصا، هل يعقل أن تتعب المرأة المسلمة عندهم كل هذا التعب ليؤخذ فلذة كبدها بعد ذلك ويمنحونه لأسرة شاذّة مكوّنة من امرأتَين أو رجلَين؟! يسهّلون أمور الشواذ ويستميتون في الدفاع عن حقوقهم وحينما يتعلق الأمر بالمسلمين تُطحَن حقوقهم طحنا ويذرّونها في الهواء.

أُعجِب زوجي البريطاني بحياتنا الجديدة في المغرب، حياة بسيطة وآمنة، أدخلنا ابنتنا المدرسة ونبحث لها عن دار تحفيظ لتحفظ كتاب ربها وتكون من الحافظات له، العاملات به ومعلّمة له. ولتعرف حينما تكبر أننا هاجرنا بها من أجل دينها، فعليها أن تدعو له ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

نور العراقية

تم محاورة نور من قبل ناشط سوري غطى المظاهرات حينما قامت بالسويد لكنه غادرها بعدما ضُيِّق عليه. حضرت معه نور في تسجيل مرئي مباشر وسألها:

_ كيف حالك يا نور؟

_ بخير الحمد لله.

_ من أين أنتِ يا نور؟

_ من العراق.

_ من أيّ منطقة بالتحديد؟

_ بالنجف.

_ كم كان عمرك حينما سحبتك مؤسسة السوسيال من والدَيك؟

_ 15 سنة.

_ في أيّ عام؟

_ 2022

_ كيف بدأت حكايتك؟

_ بدأت حكايتي حينما لاحظ المدرّسون أنني لا أتحدث كثيرا في القسم المدرسي، أنا فتاة بطبعي لا أحبّ الحديث كثيرا، لا أحبّ الثرثرة. فشكّوا مباشرة أنني أُعنَّف في البيت وتم التواصل سريعا مع موظفي السوسيال فأتوا إلى المدرسة وأخذوني في سيارتهم واتصلوا بعائلتي، أخبروهم أنهم أخذوني، هكذا بكل بساطة.

_ إلى أين أخذوك؟

_ إلى بيت يسمى ''خورهيم'' يعيش فيه زوجان كبيران في السن ولمْ أحبْ ذلك المكان البتة، وقد مكثت فيه أربعة أيام فقط. ثم نقلت إلى ''الفاميلي هيم''

_ بيت عائلة حاضنة يعني؟

_ نعم، زوجان ولهما ولد يبلغ من العمر 18 سنة، أخبرني أنه يبيع حاله مقابل المال. كان يبيع المخدرات أيضا، ذات يوم طرق بابي واغتصبني تحت التهديد، هددني بالقتل إن أخبرت أحدا. لمْ يكنْ هناك أبي ليدافع عني، لمْ يكنْ أخي بجانبي ليدفعه عني ويخلّصني منه، لم تكن هناك أمّي لتخنقه، فقد فعل بابنتها الأفاعيل، لكن الله يعلم كل شيء وسيأتي لي بحقي، اتصلت بي الموظفة المسؤولة عني بالسوسيال وسألتني عن حالي بيد أنّي في البداية لمْ أتجرأ على البوح بما حدث لي، ماذا سأقول لها؟ أنهم كانوا السبب في ما حدث لي؟ أنهم دمّروا حياتي وأخذوا مني الأمان حينما أبعدوني عن مصدر أماني؟ هل سأقول لها أنني اغتصبتُ فتتّصل بأمّ الولد وتؤنّبها فيسمع الولد ويدخل الباب دون طرقه هذه المرة ويذبحني ويتركني أسبح في دمي؟

بدأت نور تبكي وهي تحكي تلك التفاصيل المؤلمة:

_ اِمسحي دموعك يا نور .... اِمسحي دموعك.

_ تشجّعتُ وسألتها أن تنقلني إلى مكان أكثر أمنا، لقد كانوا يدّعون حينما سحبوني أنهم سينقلونني من عائلتي إلى مكان أكثر أمانا!! هل الأمان أن أغتصب في سن الخامسة عشر، تشجّعت أكثر وأخبرتُها بما حدث لي، وحينما اتصلتُ بأمّه أخبرتُها هي الأخرى أنها ستسأل ابنها!! قلتُ للموظفة:

- لكن الأمور ليست بهذه السهولة، الأمر جلل ولا يجرى على هاتف، من المفترض أن تبلّغوا الشرطة وأن أقدّم شكوى ضده. لكنهم لم يعيروا لألمي أيّ اهتمام، متُّ خوفا أثناء انتظاري، أصابني الغثيان وآلمتني معدتي كثيرا. لمْ أتحملْ انتظار الموت فاتجهت إلى الحمام حاملة سكينة حادّة وجرحت معصمي وأردت أن أوقف هذا العذاب لكنهم أنقذوني وكانت عملية انتحار فاشلة.

_ لماذا فعلت ذلك بحالك يا نور؟

_ أتدري كيف هو شعور امرأة تعيش تحت سقف واحد مع مغتصبها؟ سحبوني مباشرة من أهلي بعد شكّهم بوجود عنف أسري لكنهم لمْ يفعلوا أيّ شيء حيال اغتصابي! والأدهى والأمرّ أنهم تواصلوا معهم وأخبرهم أنه مستاء من فعله ويلوم نفسه كثيرا. لمْ يفعلوا له شيئا، كانوا يخافون على مشاعره أكثر من مشاعري ... أنا أريد أن أوصل صوتي للناس هنا... العائلة هي أحسن شيء، هي التي تحيطك بحنانها. العائلة هي كل شيء.

_ ماذا تريدين من الدولة السويدية؟

_ الواحد منّا متعب جدا، قلبه مكسور بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لا يحتاج المرء شيئا في هذه الحالة إلا الحنان ليستمر في هذه الدنيا.

_ هل تريدين العودة إلى أهلك؟

_ نعم، أريد الحنان والأمان، أريد أهلي... بعد عام سأبلغ الثامنة عشر وأريد أن أعود إلى أحضانهم.

_ وماذا بخصوص من اغتصبك؟

_ أريد أن تعاقبه الدولة على ما فعله بي، لا أريد لأخرى أن تمرّ بما مررت به، لا أريده أن يعيد فعلته مع مسكينة أخرى.

لا ندري ما حدث بعد ذلك لنور، كلّما نعلمه أنها ماتت ولا ندري كيف ماتت حتى، قيل أنها قتلت نفسها قبل بلوغها سن الثامنة عشر، السن الذي كانت تتشوّق لوصوله لكي تتحرر من العفن، لمْ يبالوا بها وهي تستنجد وتتسول ولن يبالوا بموتها!! في الأخير هي ليست سويدية، شعرها ليس أزرقا ولا عيناها زرقاوان كي يقيموا الدنيا ويقعدوها على الظلم الذي تعرضت له، هي لاجئة من دولة دمّرتها الحروب ومزّقتها النزاعات. تداولتْ أخبارَها بعض الصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي وبعض المواقع. يتفاعل الناس تلك اللحظة، بعضهم يعلم بقضية اختطاف الأطفال في الغرب وهم قلّة، بعضهم الآخر يعلم ويدافع عن مؤسسة السوسيال ويتهم الآباء بالتعنيف وأنهم يستحقون حرق قلوبهم، الثالث يعرف من خلال المنشور وتنتابه الصدمة ويستغرب كيف للأطفال أن يسحبوا من عائلاتهم والرابع يقرأ الخبر ويكمل حياته بينما أخوه المسلم (الولد أو الوالد) يتعذّب في منطقة ما في هذا العالم.

في صحيفة سويدية ناطقة باللغة العربية اتهمت عائلة نور السوسيال (الخدمات الاجتماعية السويدية) بتقصير كبير في خطة علاجها طويلة الأمد الذين أرادوا اعتمادها معها وقد كانت حجّتهم لكي تبقى محتضنة من قبلهم، ولكن الخطة لمْ توضعْ بشكل صحيح، ما أدّى إلى وفاتها وأكّدت أنّ حالتها النفسية تدهورت بعد إخضاعها لقرار الرعاية القسرية LVU من قبل السوسيال (أيْ بعد اختطافها) حتى وصلت إلى إيذاء نفسها جسديا ومعنويا وتحفظت العائلة في حوارها مع الجريدة عن ملابسات وفاة ابنتهم، وأصرت العائلة على موقفها في الدفاع عن حق ابنتها الذي هدر.

والسؤال المطروح: ''كيف يُنتصَر لنور؟! هل سيحقق في أمر مئات الآلاف من الأطفال الذين سحبهم السوسيال عبر سنوات؟ هل سيفتح هذا الملف الأسود للعلن ويرى العالم آثار الفايكينغ في نسلهم؟ هل سيعود الأطفال إلى أهلهم؟ أو بالأصحّ هل سنعيد للأطفال طفولتهم التي سلبت؟ وماذا عن الأولياء الذين قتلوا أنفسهم ليأسهم من استعادة أطفالهم؟ وماذا عن المراهقين الذين هدّدوا بالانتحار وحينما علموا أنهم يشتكون لجدران تردّ عليهم بالصدى قرروا أن يكون التهديد تطبيقا؟ ربما ظن المساكين أنهم سينتصرون بذلك لمن بقي يعذّب بعدهم لكن ..... لا حياة لمن تنادي.

فضيحة هولندا

من أين أبدأ القصة هذه؟ من نهايتها وأعود بها إلى البداية أم أبدأ من البداية وأتدرج إلى النهاية!؟، كل القصة منذ بدايتها حتى نهايتها مُرّة مرارة فاقت مرارة الحنظل. حدثت القصة في هولندا بلد التوليب والسعادة، لكن أشكّ أنّ السعادة فيها للجميع، فهناك من عاش أتعس أيامه فيها.

في ماي عام 2024 نُقِلتْ طفلة ابنة الحادية عشر سنة إلى المستشفى في مدينة فلاردينجن قرب روتردام في حالة حرجة بعد تعرّضها لإصابات خطيرة على مستوى الرأس وكسور متعددة في جسدها، كانت تبدو عليها النحافة الشديدة الناتجة عن سوء التغذية. هذه الفتاة قيل في بداية الأمر أنها سورية ثم نفوا عنها ذلك وتحفّظوا على جنسيتها وأصرّوا على التعتيم عن التفاصيل ولا أحد يعلم سبب ذلك. المهم أنها فتاة لاجئة خُطِفَتْ من قبل **جميعة حماية الأطفال بهولندا** (لن أقول أنها سُحبت؛ لأنّ الكلمة تُقلّل من حجم الحدث والأصح أنها خُطِفَت باسم قانونهم من حضن أمها) وإعطائها لزوجَين كفيلَين (أيْ يرعيانها مقابل مبلغ مادي) ليوفّرا لها الرعاية التامة، الرعاية التي لمْ توفرها لها أمّها!!

فماذا فعل الأبوَان الكفيلان أثناء فترة إقامتها معهما؟ لقد قيّداها بالأسلاك البلاستيكية، ربطاها على السرير، طوّقا رقبة المسكينة بطوق كهربائي، حبساها في قفص للكلاب داخل المنزل وكهربا القفص أيضا، علاوة على الضرب والتعذيب جوعاها، فأصيبت بسوء التغذية حيث بلغ وزنها 20 كيلوغراماً فقط على الرغم من أنّ طولها تجاوز 1.30 مترا. ساءت حالة الفتاة كثيرا، فنقلاها إلى المستشفى بحجة أنّها سقطت من الدرج، لكنهم فُضحا لأنّ الطبيب اشتبه في أنّ الطفلة تعرّضت لإساءة جسدية جسيمة وأنها لمْ تتعرض للسقوط من الدرج كما ادّعى الزوجان الكفيلان، وبعد الفحص المطوّل أكّد الأطباء أنها تعرّضت لمحاولة قتل ومن هناك خرجت القضية للعلن والتي صدمت المجتمع الهولندي واللاجئين وخاصة آلاف الأسر المختطفة أطفالهم، حُبِس الزوجان بتهمة القتل العمدي وبدأت القضية تُتَداول في وسائل الإعلام.

يجلس اثنان في حديقة ببلد ما ويتحدّثان عن القضية التي أصبحت عالمية:

_ زوجان يبلغان من العمر 38 سنة، قاما بأفعال وحشية في حق الأطفال الذين احتضنوهم!

_ أطفال؟ ألم تكن طفلة فقط؟

_ نعم، لقد احتضنوا أطفالا وليس طفلة واحدة.

_ لقد احتضنوا قبل هذه الطفلة وأختها (كما قيل) طفلين سوريين وسُحبَا منهما.

_ والسبب؟

_ سوء المعاملة. فبحسب صحيفة دي تليخراف" الهولندية، فإنّ أحد الشقيقَين احتفظ بمذكرات كتبَها أثناء مكوثه عندهما، دوّنَ فيها تفاصيل الإساءة التي تعرّض لها مع شقيقه على يد الزوجَين، ذكر فيها أنهما حُبسا في بيت للكلاب، تعرّضا للضرب وأُطفِئَتْ أعقاب السجائر المشتعلة على جسدَيهما، جُوِّعَا بشدة؛ إذ كانا قليلاً ما يحصلان على الطعام. وبعد نحو سبعة أسابيع فقط من وجود الشقيقَين في المنزل، تدخّلتْ منظمة "نيدوس" لحماية الأطفال وأبعدتهما بعد تلقي بلاغات عن سوء المعاملة. وتشكّل هذه المذكرات اليوم جزءاً من الأدلة التي بحوزة النيابة العامة ضد الزوجَين.

_ لمْ أفهم أمرا!

_ ما هو؟

_ لماذا سُحبَ الطفلَين بسبب سوء المعاملة ولمْ تُسحب الطفلة؟

_ لمْ يعيشوا مع بعض.

_ احتضنا الشقيقَين أولا ثم الشقيقتَين.

_ كيف ذلك؟ هل بعد إبعاد الطفلَين منحوهما الطفلتَين؟!

_ نعم.

_ ماذا؟ ألمْ يعاقبا على الإساءة للشقيقَين؟ ألمْ يحرما من الحضانة إلى الأبد؟

_ لا. بل مُنِحَا بعد أشهر الشقيقتَين.

_ كارثة.

_ كارثة بكل المعايير.

_ لكن ما سبب تعذيبهم من قبل الأبوَين الحاضنَين؟

_ أكّد المدّعي العام أنّ المتهمة نفت ما نُسِب لهما في البداية لكنها اعترفت لاحقًا بأنّ زوجها هو من نفّذ العنف، موضحًا: ''لقد عُذِّب الأطفال لأنهم ليسوا هولنديين، عُومِلُوا بطرق غير إنسانية''، جاء في إفادة ضحية أخرى أنّ (ج) كان يضربني باستمرار، وزوجته (د) كانت تشجّعه أو تترك له المجال ليعاقبني كما يشاء، ولمْ يقتصر التعذيب على الجسد فقط بل حتى النفسي، ففي إفادة لطفل آخر قال: ''أخبرني (ج) أنّ والدتي حاولت الانتحار بسببي، وأنها تكرهني وقد تخلّتْ عني بكل إرادتها، صدّقته حينها لكنّي الآن أعرف أنّ ذلك لمْ يكنْ صحيحًا''. وأضاف المسكين: ''كان الأمر جحيمًا... كان عليّ أن أتحمل كل شيء وأشاهد ما يفعلونه بأخي، لكنني لمْ أستطعْ فعل شيء. روى الصبي تفاصيل العقاب الذي شمل الركل والضرب ورمي أعقاب السجائر على جسدَيهما، مضيفًا: ''أعتقد أنّ السبب هو أننا لسنا أطفالاً هولنديين كانوا ألطف مع الأطفال الآخرين".

_ يا إلهي، إنهم مرضى نفسيون.

_ نعم، لقد كشف مركز "بيتر بان" للطب النفسي أنّ كلَيهما يعاني اضطرابات خطيرة في الشخصية؛ إذ تفتقر (د) إلى التعاطف وتُظهر سمات نرجسية وحدّية، في حين يعاني (ج) من اضطراب عدواني يرتبط بالحاجة إلى السيطرة والسلطة.

_ وعنصريون أيضا.

_ عنصريون فقط!! إنهم أساتذة في العنصرية، لقد صرحت أمّ الأطفال السوريين الذين عُنِّفوا قبلا من هذَين الزوجَين: ''كانت (د) مصدومة من حجابي، منعتني من التحدّث مع أطفالي بالعربية، لغتنا الأمّ. حاولت التحدّث بالهولندية لكنّ لغتي لمْ تكنْ جيدة، ومع ذلك لمْ يُؤخَذ كلامي بجدّية. كنتُ خائفة على أطفالي، لكن (ج) و(د) كانا محميين من النظام.

_ وأيّ مؤسسة مسؤولة عن هذا الأمر؟

_ هناك تحقيق أجرته هيئتان حكوميتان، **هيئة التفتيش على الرعاية الصحية والشباب** و**هيئة التفتيش على العدل والأمن** بيّنوا فيه أنّ المسؤولية على الطفلة كانت موزّعة على مؤسستَين، مؤسسة **فيليام شريكر** المتخصّصة في رعاية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة أو الذين يعانون أوضاع صعبة ومؤسسة **إنفر وهي** منظمة للرعاية الاجتماعية والإشراف الأسري في منطقة روتردام. وأوضحوا أنّ التواصل بين المؤسستَين كان

ضعيفا جدا وأنّ المعلومات المهمة حول وضع الطفلة والأسرة الحاضنة لمْ تُتَبادل بين الجهتين بالرغم من وجود إشارات متكررة تدل على وجود خطر على حياتها. وأكّدت موظفة في هيئة التفتيش الصحية: ''نقرّ بأنّ معاناة هذا الطفلة تفاقمت بسبب القصور الطويل في تقديم الرعاية اللازمة لها، ما حدث مؤلم للغاية لها ولعائلتها''.

_ وماذا يفيد هذا الإقرار؟ وهل تذكّروا الآن أنّ لها عائلة؟

_ المصيبة أنّ التحقيقات بيّنت أنّ الطفلة كانت قد اشتكت لهم أنها تتعرض للتعذيب لكن لمْ يصدّقْها أحد، كانت تتشبثُ حتى بالمارة عند خروجها وتقول لهم أنها تُعذَّب لكن لمْ يأخذْ أحد توسلاتها بعين الاعتبار.

_ لهذه الدرجة!؟

_ وأزيدك من البيت شعرا، لقد انقطعت الطفلة عن المدرسة لأشهر كاملة ولمْ تفتح المدرسة تحقيقا بشأن غيابها ولو أنّ الأمّ الحقيقية فعلت ذلك وتغيّبت ابنتها عن المدرسة لأقاموا الدنيا وأقعدوها ولا اتهمت بالإهمال والتسيب.

_ لا تعليق!

_ المؤسستان المسؤولتان عنها لمْ تكونا على علم بحالتها ولا حتى بمكانها. وهذا ما صُنِّف بالإهمال المؤسساتي الصارخ.

_ وهل من إجراءات رادعة أُتُّخِذَتْ؟

_ أوقف الموظف المسؤول عنها في إحدى الهيئتَين، فرض على الهيئتَين رقابة خاصة، خصوصا أنهما يكفلان حوالي 1900 طفل.

_ 1900 طفل مختطف؟

_ لا تستغربْ، فهناك عشرات الآلاف من الأطفال المختطفين من ذويهم.

_ لمْ أسمعْ بهذا في حياتي.

_ ولن تسمعَ إنْ لمْ تبحثْ أو تعشْ هناك، تعتيمهم كبير، صوت إعلامهم أعلى، تبعيّتُنا لهم أعمتْنا حدّ الهلاك. وسأحدّثك عن أكبر فضيحة هزّت هولندا بخصوص هذا الشأن.

_ هات ما عندك وكنْ حياديا.

_ حياد؟ ما سأنقله لك الآن قد اعترفوا هم به، لمْ أحضرْ ما حدث ولمْ أعايشْ الوضع لكن الحكومة هي من اعترفتْ بما حدث، وبسبب ذلك استقالت الحكومة ونشر الخبر في وسائل الإعلام على أنها فضيحة دولة.

_ فضيحة دولة؟

_ سميت بفضيحة الاحتيال في إعانات الأطفال وتمثّلت في الكشف عن اتهامات بالاحتيال وجّهت خطأ إلى 26 ألف معيل أسرة (يعني أمّا أو أبا) وطُولِبُوا بإرجاع مبالغ طائلة مما عرّضهم إلى أزمات مالية حادّة.

_ لمْ أفهمْ؟.

_ مصلحة الضرائب الهولندية تخصص مبلغا معيّنا للأطفال في حالات الدخل الضعيف أو بعض الحالات الأخرى كمعونة للعائلات لتساعد بها نفسها، تقدّمت هذه العائلات والتي تستوفي الشروط بطلب هذه الإعانات وصُرِفَتْ لهم، لكن فيما بعد أُتُّهِمَتْ هذه العائلات (**أغلبها من المهاجرين**) **ظلما** بأنها احتالت على مصلحة الضرائب وأنها لمْ تكنْ تستحق تلك الإعانات وحكمَ القضاء مباشرة على الأسر المستفيدة بإرجاع كل المعونات التي أخذتها وكانت غرامات ضخمة جدا.

_ يا الله ..... هذا صعب التصديق.

_نعم، صعب التصديق، وهناك من لا يصدّقنا حينما نتحدّث عن هذه الحقائق، فيذهب مسرعا باحثا عن الأدلة للدفاع عنهم، فيجدهم يعترفون في إعلامهم بما حدث، ليعرف أنّ الحق معنا فيختفي.... تخيّل أن يستيقظَ المرء يوما ليجد نفسه فجأة متهما بالاحتيال الضريبي، مدانا بآلاف اليوروهات.

ربّ أسرة، موظف عادي يكدّ لتوفير المستلزمات اليومية لأسرته وبالكاد يستطيع توفير بعض المال ولا يكون التوفير متاحا لجميع المغتربين، فالعيش في الغرب ليس سهلا كما يعتقد الكثيرون، فالفواتير كثيرة والمصاريف أكثر، كل ذلك الضنك ويجد أنّ القضاء قد حكم عليه بسداد دين لمْ يكنْ في الحسبان، فيُصادَر ماله ويُعزَل من وظيفته، ينبذه المجتمع لأنه احتال ويُصَنَّفُ في القائمة السوداء، اضطر الكثيرون إلى بيع كل

ما يملكون لسداد تلك المبالغ ومن تعذر عليه السداد وجد نفسه بين المشرّدين في الشارع. هناك من أُصِيب بأمراض نفسية، هناك من فقد عقله من شدة الصدمة وهناك حتى من انتحر، كان هذا كابوسا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

_ يا لها من مصائب متتالية!

_ بعد سنوات فُتحَت تحقيقات وكشفتْ أنّ تلك الاتهامات ضد الأهالي كانت **تعسّفية ولا أصل لها** وقد تحدّث المحقّقون في الفضيحة عن «التحيّز المؤسسي»، وانتهاك «مبادئ سيادة القانون»، و«عدم القدرة الإدارية» ووُصِفَت إجراءات العمل بأنها «تمييزية». قدّمت الحكومة استقالتها للملك ووعدت بتعويضات مادية للعائلات.

_ إنه لأمر جلل، لكن ما دخل اختطاف الأطفال في هذه الفضيحة؟

_ وسائل الإعلام تداولت هذا الخبر من الجانب المادي فقط ولمْ يسلّطوا الضوء كثيرا على موضوع الأطفال؛ بحكم أنّ الآباء أصبحوا مفلسين أو حتى على حافة الإفلاس أو أنّ وضعهم المالي متدهور؛ فهم لا يستطيعون رعاية أبنائهم رعاية جيدة، وبالتالي اتهموا بعدم الأهلية لتربية الأبناء، فسُحِبوا منهم وأعطوهم لعائلات أخرى لترعاهم مقابل مبلغ مادي.

_ أنت تمزح!؟

_ الغرب هو من يمزح المزاح الثقيل، السخيف والسمج وليس أنا.

_ ولماذا لمْ يُترك الأبناء عند عائلاتهم ويُساعَدُون بالمبالغ التي أُعطِيت للعائلات الكافلة؟

_ لقد صُنّفُوا في القائمة السوداء وحُرِموا من جميع أنواع المساعدات، السؤال الأهم: لِمَ لُفِّقَتْ هذه التّهم ضد العائلات لسنوات عدة؟ أنا أتحدث عن عشرات الآلاف من العائلات وكل عائلة تملك العديد من الأطفال، لو علمنا الأعداد الحقيقية لعدد الأطفال الذين اختطفوا ظلما وزورا لشاب رأسك. ولنسأل أنفسنا ماذا استفادت الحكومة الهولندية من تلك المعونات؟ أظهرت نفسها أنها الحكومة الطيّبة التي تساعد اللاجئين والمهاجرين ثم أعادت مالها واختطفت الآلاف أو عشرات الآلاف من الأطفال.

_ يظهر لي أنّه تواطؤ بين مصلحة الضرائب والقضاء ومؤسسات رعاية الطفل، هذا أمر كبير جدا، هذه مؤسسات دولة والضحية آلاف الأسر المهاجرة، الأمر ليس خطأ موظف واحد، أو عنصرية موظف ثانٍ، الأمر أكبر من هذا كثيرا. الأمر مخيف جدا خاصة في ظل التعتيم الإعلامي على ما يحدث. وماذا عن مصير الأطفال؟ هل أُعِيدوا لعائلاتهم؟ هل عُوِّضُوا؟

_ قيل إنّ التعويضات المادية لمْ تستلمْ بعدُ حتى أنّ الصحف الهولندية تحدّثت أنه لا يوجد تحقيق جنائي في القضية، أمّا الأطفال الذين كبروا بعيدا عن عائلاتهم فلن يستطيعوا إعادتهم لعائلاتهم.

_ لماذا؟ ما الخطب؟

_ قيل إنّ سحبهم من عائلاتهم الحالية وإعادتهم لعائلاتهم الأصلية قد يؤثّر على نفسيتهم؛ لذا من الأفضل بقاؤهم عند عائلاتهم الحاضنة.

_ أليس هذا مزاحا أيضا؟

_ لا، مع الأسف.

_ ولماذا لمْ يفكّروا في نفسياتهم حينما خطفوهم من عائلاتهم الأصلية؟

_ قانون الإعانات هذا صدر سنة 2004 وكُشِفَت الفضيحة سنة 2021، لقد استمرت الاتهامات لسنوات عديدة؛ أيْ ما يقارب 16 سنة من الظلم الفجّ للمهاجرين، بعض من الأطفال أصبحوا شبابا الآن، وحتى بعد عودتهم لأهلهم عادوا بتربية هولندية ودون إسلام، اشتكى الآباء بعد مقابلتهم لأبنائهم أنّ هناك فجوة كبيرة بينهم وبين أولادهم، لقد تغيّروا تغيّرا جذريا. كان الانفصال في صالح الدولة الهولندية، النتيجة كانت شبابا هولنديا من دون إسلام.

_ ربما لا يؤمنون بمفهوم الأسرة أبدا؟ غريب أمرهم!

_ لا، هم يعرفون معنى الأسرة جيدا؛ لأنّ فاقد الشيء يعرفه جيدا، تخيّل أنّ وزيرا خارجية ألمانيا وهولندا أدانا مطلع عام 2023 ترحيل آلاف الأطفال الأوكرانيين على يد الروس، ووصفا ذلك بسياسة خطف قاسية وغير إنسانية متعمدة تمزّق أواصر الأسر. بالرغم من أنّ دولتَيهما تمارسان سياسات الخطف منذ سنين وباسم القانون!

_ عجيب أمرهم!

_ نعم، فمنذ شنّت روسيا حربها على أوكرانيا عام 2022، أُتُّهِم الروس بترحيل أطفال أوكرانيين إلى روسيا أو أراض تحت سيطرة روسية لتربيتهم كأنهم أطفالهم. وهذا ما تفعل الدول الأوروبية في حالة السلم وعلى أرضها مع أناس غالبيتهم الساحقة قد هربوا من حروب وطلبوا منها اللجوء والأمان، قالت سلطات محلية أوكرانية أنّ روسيا اختطفت أكثر من ألف طفل من مدارس ودور أيتام في منطقة خيرسون خلال احتلالها لها في فترة استمرت 8 أشهر، وما زالت أماكنهم غير معروفة.

_ أليس هذا ما يفعلونه هم أيضا؟

_نعم، هذا أيضا ما يحدث في دولهم التي تُدرّس الإنسانية ونسيت أن تُدرّس نفسها، ابنك من لحمك ودمك يختفي من بين يدَيك بين لحظة وأختها ولا تعلم عنه أيّ شيء. تزعم روسيا أنّ أولئك الأطفال لا آباء أو أوصياء لهم لرعايتهم، أو لا يمكن الوصول إليهم، لكن وُجِدَ أنّ هناك مسؤولين رحّلوا أطفالا أوكرانيين إلى روسيا أو أراضٍ تحت سيطرة روسية دون موافقتهم وكذبت عليهم بالقول إنّ آباءهم لا يريدونهم، واستخدموهم في الدعاية ومنحوهم لأسر روسية كما منحوهم الجنسية الروسية. وقالت وزيرة الخارجية الألمانية أنالينا بيربوك، في مؤتمر صحفي مشترك مع نظيرها الهولندي فوبكه هويكسترا في لاهاي: "يجب أن تكشف روسيا عن مكان هؤلاء الأطفال ".

_ فليكشفوا هم أيضا عن من اختطفوهم.

_ أضافت: "ذويهم وعائلاتهم ومقدّمو الرعاية لا يجب أن يظلّوا في خوف وانعدام يقين بعد الآن، مكان هؤلاء الأطفال مع عائلاتهم في أوكرانيا، هؤلاء الأطفال لمْ يتركوا منازلهم طوعا، هؤلاء الأطفال اختطفوا." وحينما نقول إنّ أطفال المسلمين يُختطَفون يعيبُون علينا كلامنا ويتّهموننا بممارسة التضليل والكذب والافتراء.

_ وهل تفعل ألمانيا ما تفعله هولندا؟

_ وهل في هذا شك؟ ابحث عن اليوغند آمت (مكتب رعاية الشباب والطفولة في ألمانيا) وستذهل من الأرقام. وبالرغم من انتهاجهم سياسة الخطف -هم أيضا- فقد أوضحت وزيرة خارجيتهم أنّ الوزراء الألمان

والهولنديين سيعملون مع منظمات منها الأمم المتحدة والمحكمة الجنائية الدولية على قضية الأطفال الأوكرانيين.

وذكر هويكسترا: "أنّ هذه السياسة الروسية المتعمدة تمزق الأسر وتروّع الأطفال، إنها وحشية وغير إنسانية، ودعوني أكون واضحا بأنّ الأطفال الذين اختطفتهم روسيا يجب أن يعودوا إلى وطنهم في أقرب وقت ممكن".

_ إنها ازدواجية المعايير يرضون لأطفال المسلمين ما لا يرضونه لأطفال أوكرانيا، ما الذي حدث لتلك الطفلة المعذّبة؟

_ كانت تُقيم في مركز لإعادة التأهيل، وقد أُعلن أنّ وظائف دماغها تعادل وظائف الأطفال الصغار بسبب إصابتها الدماغية. وعلى الرغم من حالتها الخطيرة، فقد كانت تتحسّن تدريجياً وأصبحت قادرة على التحدّث ببضع كلمات والمشي لمسافات قصيرة. أمّا حاليا فلا معلومات عنها. أتمنّى أن تعيش بسلام مع عائلتها الحقيقية وأن تستطيع تجاوز ما حدث لها وأن ينال كل المسؤولين عن حالتها جزاءهم. وأتمنى ألّا نغترّ بالغرب مستقبلا.

العم حسين مفتار

العمّ حسين ذلك الرجل المسلم التركي الذي قضى شطرا كبيرا من حياته في السويد وانخرط إيجابا في مجتمعها وكان مثالا جيدا للرجل المسلم القوي؛ فقد كان يعمل في إدارة نادٍ رياضي وكذلك إدارة اتحاد مسلمي السويد ويدير أنشطة إسلامية وشبابية متنوعة. يساعد كل من احتاج إلى مساعدته، عُرِف في وسطه بدماثة الأخلاق وشهد له بالخير كل من عرفه من المسلمين العرب والعجم وحتى السويديين الذين عرفوه نعوه بعد موته وأظهروا مشاعر حزن كبير لفراقه وهو ابن الستين فقط.

بدأت قصة كفاح العمّ حسين حينما قرر السوسيال السويدي عام 2016 التدخّل في حياتهم وتأمين الحياة الآمنة المزعومة لأبنائه، فاختطف الأطفال الخمسة من حضن والدهم واختلقوا في ذلك الأكاذيب، فاتُهم بممارسة التعسف والعنف مع أطفاله، وأُمر بدفع 10 آلاف كرونا (955 دولارا) لطفلته ك "تعويض عن الأضرار التي ألحقها بها". قال موظفو السوسيال في تقاريرهم أنّ أمّهم كانت تعاني من اكتئاب بعد وفاة أختها وهددت أبناءها بالسكين وشجّعها زوجها على ذلك وهذا ما نفاه ابنهم إبراهيم جملة وتفصيلا، وقال: ''لا أدري من أين أتوا بهذه المعلومات، والدَاي كانا ممتازَين ولمْ يضربنا والدي يوما، بل لم يرفع إصبعه قط في وجوهنا، إنما حلّ كل مشاكلنا بالحوار". ومما صرح به أحد أصدقائه أنّ السبب البارز وراء خطف السوسيال هو التربية الدينية الإسلامية التي أراد حسين أن ينشئ أبناءه عليها.

وُضِع الأطفال في دور الرعاية والأسر الحاضنة وبدأت رحلة العمّ مع المحاكم، فالسويد كما يقال هي دولة القانون، تعب وهو يبيّن لهم أنه مؤهّل لتربية أبنائه بالصور والفيديوهات والتسجيلات وجاهد لكي يعيد فلذات كبده إلى البيت الذي أضحى موحشا. أراد بعودتهم أن تعود الحياة إلى قلبه الذي مات بفراقهم. عمل كل ما يستطيع من أجل استرجاعهم لكن العمّ المسكين لمْ يفلحْ في ذلك، احتجز لمدة 80 يوما وتعرّض لغرامة قدرها 10 آلاف كرون، بعد قيامه بتهريب اثنين من أولاده من منزل للرعاية، غير أنّ الشرطة عثرت حينها على الولدَين وقامت باستعادتهما مجددا.

لمْ ييأسْ العم حسين في المطالبة بأطفاله وانضم في حملة بدأت أواخر عام 2021 ضد ''السوسيال'' لاستهدافها أطفال المسلمين، وأسفرت الحملة عن خروج احتجاجات ضد الخدمات الاجتماعية في ستوكهولم ومناطق أخرى في البلاد.

اختفت آثار ابنته من دار الرعاية بمدينة ''بوروس'' في منتصف ديسمبر من عام 2022 واشتبهت السلطات السويدية بأنّ والدها من اختطفها، حيث رُصِدَ في مدينة "بوروس" في 16 ديسمبر، وهو اليوم نفسه الذي اختفت فيه الفتاة، بالرغم من أنه يعيش بمدينة "بيجوف". أُحتُجِز من مطار "مالم" وفي 23 جانفي 2023 على خلفية اتهامه بالاختطاف، نفى العمّ خلال استجوابه بشكل متكرر ارتباطه باختفاء طفلته، لكن مُدِّدَتْ مذكرة التوقيف مرتَين دون وجود أدلة تُدينه، قبل أن تُبطل المدّعية مذكرة التوقيف في السادس من مارس. وصرّحت لصحيفة سويدية: "لقد قرّرت أنه لا يوجد سبب لإبقائه رهن الاعتقال، لذلك رفعت أمر التوقيف"، إلا أنه وُجد ميتا في زنزانته بعد قرار الإفراج عنه. وبحسب نتيجة الطب الشرعي فقط تُوفي والده نتيجة نوبة قلبية حادّة. وانتهت بذلك السبع سنوات العجاف، انتهى كفاح الأب -في بلد القانون- لاسترجاع أبنائه الخمس بسكتة حادّة، لا نعلم كل التفاصيل عن رحلته، لا نعلم الحزن الذي مرّ به، لا نعلم كمّ الألم الذي عاشه، كلّ ما نعلمه أنّه كان يستميت في سبيل إنقاذ أولاده، والأمر السيء أنه مات مشتاقا لهم، مشتاقا للعيش معهم تحت سقف واحد، للعب معهم والأكل على طاولة واحدة ولقراءة القرآن ومدارسته.

انتهت حياة الناشط المسلم الخلوق بين جدران زنزانة بتهمة اختطاف ابنته! هل يختطف الأب ابنه؟! هل تعقل تهمة كهاته؟! ولنسلّم فرضا أنه توفي بسكتة قلبية، ما سبب السكتة؟ ماذا كان يفكر أثناء موته؟ من يخلفه في كفاحه؟ من يسترجع أبناءه إلى أمّهم؟ هل يستطيعون تغيير ما بناه فيهم؟ هل سيثبتون على دين أبيهم؟ أين اختفت ابنته؟ من اختطفها؟ ألم يختطفها السوسيال منه ليحموها؟ أين هي هذه الحماية؟ ابنة الحادية عشر سنة لمْ يجدوا لها أثرا في بلد حماية حقوق الأطفال!! هل هي في مكان آمن؟ وإن ظهرت يوما ما، فهل ستسامح السويد لأنّها اختطفتها من عائلتها؟ هل ستسامح السويد لأنها وضعتها في دار رعاية أهملتها؟ هل ستسامح السويد لأنّ والدها مات في زنزاناتها ظلما وقهرا؟ هل سيكون والدها البطل المغوار الذي ضحّى بحياته من أجلها وإخوتها أم الأب السيء الذي حلّ جميع مشاكلهم بالحوار؟! أم أنها لن تذكر والدها؛ لأنّ اسمها قد غُيِّر ودينها قد بُدِّل؟

من يدري؟ ربما نستطيع أن نسمع أجوبتها يوما ما ..... رحم الله العمّ حسين وجعل الجنة داره وقراره.

لينا المغربية

لينا أو سلوى الوهابي تلك المرأة التي ظهرتْ آلام الحزن على وجهها، وجه شاحب سحبتْ منه الحياة وملامح سرق منها الفرح، أنشأتْ قناة على اليوتيوب ونشرتْ فيها الفيديوهات، الواحد تلو الآخر في معركتها لاستعادة ابنها من يد السوسيال، بخلاف الفيديوهات المنتشرة في اليوتيوب وكمّ النشاط في أصحاب القنوات وحيويتهم بهدف جذب أكبر عدد من المتابعين كانت مختلفة جدّا عنهم، لم يكن همّها المتابعين ولكن ما أهمَّها هو استرجاع ابنها. تظهر جالسة في غرفتها بخلفية بسيطة جدا وتحكي كلاما لو رددته لسنين طويلة لما ملّت منه، كان تعريفها عن نفسها بسيطا، فهي أمّ لطفل وحيد انتقلت مع زوجها إلى السويد لعيش الحياة الكريمة التي يتمناها كل عربي سمع الكثير عن أوروبا حتى جعلها جنة الدنيا. لمْ يدمْ زواجها كثيرا وحصلت بعد الطلاق على حق الحضانة. غادر طليقها السويد كونها بلد ''الضغط على الأعصاب'' وبقيت مع ابنها لوحدها تجدف بيدَيها علّها تصل إلى شاطئ الراحة والأمان، تعلّمت اللغة السويدية ودرست كمساعدة ممرض وارتاد ابنها الحضانة بحكم عدم وجود أيّ قرابة أو صداقة لها في السويد، اشتكت من حياتها في المغرب في جملة أو جملتين وفضّلت تسليط الضوء أكثر على معاناتها في السويد.

البداية البريئة كانت في لجوئها للسوسيال بعد ولادتها بثلاث أشهر طالبة المساعدة في كيفية التربية وطلب التثقيف بخصوص قوانين الدولة فيما يخص الأطفال كونها قوانين صارمة، خافت المسكينة من الثغرات التي تودّي إلى القاع. مرّت السنوات وانحصرت حياتها بين العمل والبيت ودار الحضانة. زاد ضغط العمل عليها ولمْ يكنْ لها متسع من الوقت للتعرّف على أناس تشاركهم غربتها أو حتى تفضفض لهم على ذلك الضغط المهول. لجأت إلى المستشفى الحكومي لعلاج ذلك القلق الناتج عن ضغوطات العمل ومشاكله، كانت المسكينة تريد عطلة مرضية ترتاح فيها لكنهم رفضوا واكتفوا في كلّ موعد بوصف الأسبرين لها فقط وينصحونها بالراحة! كانت تريد أن ترتاح فعلا لكنهم لمْ يمنحوها عطلة لترتاح. حبّات الأسبرين لمْ تحل مشكلتها ووقت الراحة لمْ تكن لتجده، وهي الغريبة في بلد سامها أنواع العنصرية هي وابنها.

قالت لينا في إحدى فيديوهاتها: ''لم يكن لديّ وقت للأصدقاء أو الراحة، كانت حياتي كلها عمل ومسؤوليات، عندما شعرت بالتعب وبدأت أحسّ بصعوبة أداء عملي، كنت أتوجّه إلى الأطباء الذين كانوا يصفون لي الأسبرين فقط، بينما كنت أحتاج إلى الراحة والفيتامينات والرياضة والوقت لأعتني بابني، لذلك لجأت بشكل شخصي إلى أحد الأطباء النفسيين، أعطاني أدوية مضادة للاكتئاب، لكنه لمْ يشرح لي الأعراض

الجانبية التي تترتب جرّاء تعاطي هذه الأدوية، بدأتُ بعد فترة من الزمن أشعر بصعوبة في التفكير، لا أفكر بالمستقبل بل أصبحتُ أفكّر بالانتحار، ثم قررت إيقاف الأدوية لأنني أدركتُ تماما أنها عقاقير تدمرني بدل أن تنقذني، ومع كل ذلك الوهن كنتُ أعمل وأحاول عدم الانقطاع'' . أضافت: ''الطبيب النفسي أظهر نفسه كناصح لي، لكنه كان يستمر بإعطائي الدواء وفي الوقت نفسه كان يتواصل مع السوسيال ويعلمهم بتفاصيل وضعي، ومع الأيام أصبح السوسيال يستدعيني للقاءات عدة وهو ما حالَ دون الانضباط في عملي وفُصِلتُ''.

عانت لينا بعدها كثيرا من تزايد وتيرة الأفكار الانتحارية، لذلك لجأت إلى مشفى الأمراض النفسية، لتحمي نفسها من نفسها، وأُدْخِلَتْ لمشفى الأمراض النفسية. قالت: ''بعد خروجي من مشفى الأمراض النفسية، ابتعد الكلّ عني، الأصدقاء والناس، ولمْ أفلحْ بإيجاد عمل جديد بعد فقداني لعملي السابق. حتى المساعدة التي كنت أتلقّاها من السوسيال كانت تقتصر على النصيحة باللجوء إلى الاختصاصيين النفسيين ومساعدة مادية بسيطة''. لكن الذي أثّر على لينا بشكل أكبر هو موضوع إبعادها عن ابنها آدم، فقد أصبحوا يلحّون عليها بضرورة أن تدع ابنها لدى عائلة أخرى لتعتني به وهو ما رفضته، وأصرّت على الاحتفاظ به.

استمرت الضغوطات من قبل السوسيال وأصبحت بمنزلة تهديد دائم بأخذ ابنها، وما زاد الأمور تعقيدا أنها وقعت في مشاكل مادية، لتنتهي في فخّ التأخير بدفع الفواتير، ووضع اسمها على القائمة السوداء عند مصلحة تحصيل الديون. بعد ذلك خُطِفَ الابن من الأمّ التي خسرت صحتها النفسية وضغطت على نفسها وتحمّلت في سبيله، ابنها الذي كان لها الأمّ والأب والصديقة والعائلة كلها والوطن. وجدت نفسها وحيدة بين جدران منزلها الكئيب تصوّر الفيديوهات الواحد تلو الآخر لتشكو همّها للناس أملا في استعادة ابنها من براثن السوسيال والعيش معه حياة طيبة.

قالت لينا: ''أنا لا أفهم حينما يقول الناس إنّ السويد هي أفضل بلد في العالم! لا أفهم صراحة ماهية الأفضلية والتميز الذي حازتها عندهم !! العنصرية والأنانية والضحك على عقول الناس، خاصة الأشخاص الذين لا يعلمون القوانين، أنصح الناس هنا بأن يأخذوا حذرهم وأن لا يسمعوا لمن هبّ ودبّ، أنا مررتُ هنا بتجربة قاسية جدا لمدة إحدى عشرة سنة، ذقتُ المرارة هنا وما زلتُ أكافح من أجل استعادة ابني وأسأل الله أن يفرّج كربتي، لقد عذّبوني وأسأل الله أن ينتقم منهم، لا أكذب عليكم إنْ قلتُ إنّه لو كان لي مكان أعيش فيه في المغرب لعشتُ هناك، أوروبا فيها المتاعب فقط ..أسأل الله أن ينتقم منهم ...''.

وُجِدَتْ لينا ميتة في شقتها وتضاربتْ الروايات عن سبب وفاتها، فهناك من قال إنّها انتحرتْ وهناك من قال إنّها قد تعرّضت لسكتة قلبية والله أعلم بسبب وفاتها، رحمها الله برحمته الواسعة وغفر لها. ماتت المسكينة وهي تتمنى رؤية ابنها وأن تحضنه الحضن الأخير، ماتتْ بعد أن فشلتْ في بحثها عن حقوق المرأة والطفل المزعومة عندهم. انتشر فيديو لدفنها يظهر فيه ابنها المسكين الذي أتوا به ليلقي عليها نظرة الوداع وأهال عليها التراب بيديه الصغيرتَين، لا أعلم ما كان يجول في خاطره لكنّ عينَيه كانتا هائمتين، في الأخير ظهر وهو يصوّر بيمناه دفنها ويودّعها بيسراه .... استودعناكِ الله الذي لا تضيع ودائعه.

القصة القصيرة للينا المغربية.

حياة ضنك، تعب، طلاق، كفاح من أجل الابن، تعب العمل وضغطه من أجل إرضاء الرأسمالية باسم حقوق المرأة وتمكينها، ضغط هائل، حبوب الاكتئاب والأفكار الانتحارية، الأسبرين ولا راحة، وشاية من طبيب إلى السوسيال، مواعيد السوسيال فصلتها عن عملها، تراكم الديون وكثرة المشاكل، خطف الطفل من أمّه باسم حقوق الطفل، وفاة الأم وضياع الابن. ولا سلطة عندهم تعلو فوق سلطة السوسيال!

سنُنقذك من أمك !

بدأت رحلة الجحيم مع السوسيال من مُدرّسة أبنائي حيث كانت هناك مُدرّسة سويدية عنصرية، كانت قد سمعت وقتذاك أنني انخرطت في حزب سياسي بالمنطقة فجنّ جنونها، فكيف –برأيها- للاجئة حديثة العهد بالمجيء أن تنخرط في السياسة وتدرس وتربّي أولادها، كانت كلما لقيتني تسمعني كلاما لاذعا وتقول لي: ''ماذا تظنين نفسك؟ أتظنين أنك ستحكمين السويد بنفسك؟ ماذا تفقهين أصلا في سياسة السويد؟''. صبرت عليها كثيرا لكنني لمْ أتحملْ في النهاية وشكوتُها للسوسيال، وقلت لهم: إمّا أن يضعوا لها حدّا أو ليغيّروا لنا المدرّسة.

ذهب موظفو السوسيال للمدرّسة واستجوبوا أبنائي وصرحوا لهم بكل ما يعانونه معها وطالبوهم بتغيير المدرّسة. المفاجأة أنهم لما جلسوا مع المُدرّسة ليسمعوا منها تبنّوا كل كلامها، جعلوها الصادقة وجعلونا الكذبة. تمادت في ظلمها وغيّها واتهمتني بالإهمال وأنني لا أوفّر الأكل لأولادي وكل ذلك حدث في زمن الكورونا. بعد مدة يسيرة دقّ موظفو السوسيال باب بيتنا عند الصبح ونحن نيام، أرعبونا ولمْ يكنْ معنا رجل بالمنزل لنشعر معه بالأمان كوني مطلقة، استيقظنا كلنا مرة واحدة، فتحنا لهم الباب وفوجئتُ بهم، سألتهم:

_ خيرا إن شاء الله؟

_ لقد سمعنا أنّ الأطفال في خطر ولا يوجد لديكم أكل.

_ خطر؟ لا يوجد أكل؟ من قال لكم هذا الهراء؟

_ اتصلت بنا المدرسة وأخبرتنا كل شيء.

_ أولادي متغيّبون عن المدرسة لأنهم مرضى، كيف عرفوا أننا لا نملك أكلا؟ (كنت قد تعرّضت لنزلة برد واحتياطا لمْ يذهبْ أبنائي إلى المدرسة خوف أن أكون مصابة بفيروس الكوفيد)

_ نعم لا يوجد لديكم أكل، المدرّسة اتصلت بنا وأخبرتنا.

_ يا إلهي...، ما هذا الهراء في منتصف الليل؟

أدخلتهم المنزل وأريتهم الركن الذي أخزّن فيه الأكل، عندما رأته أحد الموظفات قالت:

_ أنا ليس لديّ أكل بهذا الكميات في منزلي! لماذا اشتريت كل هذا الأكل؟

يعني أنا مجرمة إن لمْ يجدوا أكلا بمنزلي ومتهمة إن وجدوا الأكل بكميات كثيرة، سألوني:

_ أنت تعيشين مع ثلاثة أطفال فقط، فلِمَ كلّ هذا الأكل؟ لِمَ كل هذه الغرفة المملوءة بالأكل؟ لماذا كلّ هذا الصابون؟ الزيت؟ المعكرونة؟

_ هذه الغرفة دائما مملوءة عندي بالأكل، فكما قلتُ أنا أمّ وحيدة ولا أستطيع أن أشتري كل يوم الأكل، أشتري مرة واحدة وبكمية كبيرة ليكفينا مدّة معتبرة.

أدخلتهم المطبخ وطلبتُ منها فتح الثلاجة فرفضتْ لكن ابنتي -ذات العشر سنوات- فتحتها لها وأحرجتهم:

_ أمّي في بداية الشهر تشتري لنا ما لا يشتريه السويديون أنفسهم.

ولأنّهم صدّقوا المرأة العنصرية كثيرا لمْ يصدّقوا حتى أعينهم وطلبوا اصطحابي إلى ''الكولو'' مع العائلات السويدية بحجة تغيير الجو مع أطفالي، وحينما قلتُ لهم:

_ وفي حالة لا أريد الذهاب معكم؟

_ امتناعك عن الذهاب معناه أنك لا تريدين إسعاد الأولاد.

لم يكن لدي خيار آخر، ذهبنا معهم وداخلي خوف كبير، وحينما وصلنا هذا ''الكولو'' وجدنا أنفسنا العائلة الوحيدة سوداء البشرة، أمّا البقية فهي عائلات سويدية تعاني أغلبها من مشكلة المخدرات. كانوا يأتونني ليسألونني عن سبب تواجدي هناك ولا أجد جوابا. سألت الموظفين هناك:

_ لِمَ أتيتم بي إلى هذا المركز وأنا لا أعاني من مشاكل المخدرات.

_ أنت تعانين من مشاكل أخرى، لا يدخل السوسيال إلى بيت نظيف (يقصدون بيتا خاليا من المشاكل) ولا يجلبونك هنا دون سبب.

عانيت مع أولادي الأمرّين بسبب العنصرية في ذلك المركز، أذكر أحد الأيام أنّ الأطفال ضربوا ابني وحين ذهبتُ له لأبعده هو وأخته عنهم، أتتْ لي امرأة سويدية واتهمتني بتخويف الأطفال، قلتُ لها:

_ كيف أخفتهم وهم يشتمونني ''أوبا، أوبا، أوبا'' (معناها القرد).

كانوا حينما يروا ابنتي ينادونها القردة، وعندما أخرج أنا ينادونني بالغوريلا، نعم يا عالم، هذا هو بلد الحريات ومحاربة العنصرية، سبعة أيام مكثناها هناك وهم ينادون ابنتي الجميلة بالقرد وأنا بالغوريلا، وموظفو السوسيال يرون ويسمعون ولا أحد منهم تحرّك أو أخذ موقفا، كلّ ما يعرفونه أنهم يأتونني ويتهمونني:

_ أنت خوّفت أطفال فلانة، أنت خوّفت أطفال علّانة ...

أتوا أثناء إقامتنا بالمركز بامرأة عراقية بحجة أنها تعاني من القلق، تعرفت عليها وكنّا نجلس معظم الوقت بعضنا مع بعض، نتبادل أطراف الحديث باللغة العربية وابنتَانا أمامنا تلعبان بعضهما مع بعض، أتونا واتهمونا بالعنصرية وعدم الاندماج! فقط لأننا انعزلنا عنهم، لأننا لمْ نحسّ بينهم بالأمان. خافت الأخت العراقية من ذلك الاتهام وأصبحت تجالسهم وتتجنّبني. لمْ يرتاحوا لأُلفتنا وصداقتنا فأرادوا تفريقنا، فالسبب لوضعنا هناك كان الضغط علينا وليس توفير منطقة راحة وسلام لنا.

ذات مرة أتت لي امرأة سويدية تعاني من إدمان المخدرات، وقالت لي بالحرف الواحد:

_ هيه أنت .... اسمعيني، ماذا تفعلين في السويد؟

_ أنا أجنبية جديدة بالبلد، بدأتُ الدراسة وأريد أن أصبح ممرضة -إن شاء الله- مستقبلا.

_ أنا لمْ تُتَحْ لي هذه الفرصة في بلادي، من أنت حتى تصبحين ممرضة ببلادي وأبقى أنا مدمنة مخدرات، عاطلة عن العمل؟ أنتم الأجانب ستبقون تحلمون فقط.

كل تلك المشاكل والعنصرية والاتهامات المباشرة والنقد اللاذع ونحن المتهمون في نظر السوسيال وسجلّاته! انتهت فترة المكوث في المركز وحمدت الله أنها انتهت على خير، عند عودتي إلى البيت اتصل بي موظف السوسيال وأبلغني أنهم يشكّون في قدراتي العقلية، أنني كنتُ أصرخ في وجوه الأطفال السويديين بالمركز، وبعد ذلك اتهمني أنني أضرب أبنائي بسبب مرضي النفسي، أخذوا ابني ليوم كامل واستجوبوه وكل ما أدلى به ابني المسكين:

_ أمي تحبني، أمي تشتري كل ما أريده. أمي ... أمي .... أمي.

كتبوا عنه في التقرير أنه ذكي ويحمي أمه، أنه القائم على شؤون البيت، أمّا ابنتها فهي تتعرض للضرب ثم تسجن أسفل البيت! لمْ أكنْ أسكن ببيت أصلا بل بشقة من غرفتَين في عمارة بالدور الثالث، لمْ أكنْ أملك بيتا بطوابق!! أيّ جنون ذاك؟!

بعد تجربتي معهم أصبحتُ أصدّق أيّ شخص يدلي بأمور غير منطقية عنهم.

طلبتُ منهم أخذ ابنتي إلى طبيب ليفحصها ويدلي بشهادته إنْ كانت قد تعرضتْ للضرب، أخذوها ليوم كامل وأعادوها لي متعبة منهكة، سألتني المسكينة:

_ من أين يأتون بكلامهم وأسئلتهم؟ هل أنت من قال لهم هذا الكلام؟

_ أيّ كلام تقصدين بنيّتي؟

_ كلام كثير.

_ أعطني مثالا عن ذلك بنيّتي؟

_ قالوا لي أنك اعترفت لهم أنّك تسحبينني من شعري عندما تسرّحينه لي!

ذهبوا إلى طليقي أيضا وأقنعوه بأنْ يسحب الأولاد مني، وكونه إنسانا ملتزما خاف على أبنائه من السوسيال، فطالبني بأخذهم لحمايتهم، قلتُ له أنهم يريدون خطفهم من عنده بعدما يئسوا من خطفهم من عندي. تضخّمت المشاكل بيننا، لكنه سرعان ما صدّقني.

لقد فعلوا كل المستحيلات لخطف الأطفال وباءت محاولاتهم بالفشل، فلجأوا إلى التهمة القديمة المتجددة، تهمة المرض النفسي. اتصلوا بي ليبلغونني أنهم يملكون أدلة تشير إلى إصابتي بمرض نفسي وسيساعدونني ويساعدون أطفالي. أخبروني أنّ السويد ليست مثل الصومال وأنّهم يكفلون للمرأة حقوقها. أخبرتُهم أنني سأقبل العلاج في حالة واحدة فقط، في حال شخّصني الطبيب النفسي بالمرض. فعلى مدى عام كامل وموظفو السوسيال هم من كانوا يشخّصونني، فحسب زعمهم أنا عدوانية وأعاني من اللااستقرار وعدم التركيز. أمور ادّعوها وصدموني بها. قالوا لي إنّ الطبيب هو من شخّص حالتي بناء على تقاريرهم وليسوا هم، فطلبتُ مقابلة ذلك الطبيب الذي شخّص لهم حالتي دون أن يراني فرفضوا وقالوا:

_ أنت مريضة ومصرّة على عدم الاعتراف بذلك.

لقد كانوا مصرّين على تهمتهم الواهية، كانوا يدقّون عليّ الباب كل يومين أو ثلاثة أيام ويدّعون أنهم يأتون للاطمئنان على أولادي، لأنهم يخافون عليهم منّي كوني مريضة وأمتنع عن العلاج! لا أخفيكم أمرا، مع الضغط الهائل والخوف منهم كانت تراودني أفكار: ''تناولي الأدوية وأريحي رأسك منهم ومن مشاكلهم''، لكن كل مرة كانت قناعتي بصحة عقلي وسلامته تردعني، كيف يمكن لي أن أسمّم نفسي بأدوية أنا في غنى عنها؟ كيف لي أن أدعهم ينجحون في تشكيكي في نفسي وكسر عزيمتي في الحفاظ على أبنائي. أخبروني في آخر محاولتهم:

_ بما أنك لا تريدين الاقتناع بمرضك ولا تريدين العلاج فسنجد طريقة أخرى لإقناعك.

أذكر ذلك اليوم الذي امتنعتْ فيه ابنتي من الذهاب لمدرّستها صباحا، قالت لي:

_ يا أمي، لا أريد الذهاب لمدرّستي، لا أريد أن ألتقي تلك المُدرسة.

_ لماذا يا ابنتي؟

_ لقد قالت لي سننقذك من أمّك. كيف لهم أن ينقذوني منك يا أمي؟ كيف لشخص في هذا العالم أن ينقذني منك؟ أنا لست مرتاحة اليوم .... يا أمي.

_ لن يحدث أيّ شيء يا ابنتي ... هيا لنذهب، فلمْ يعدْ هناك المزيد من الوقت.

وحقيقة لمْ يعدْ هناك وقت ..... يا ليتني سمعت كلامها ولمْ آخذها إلى المدرسة ولمْ آخذْ أخواتها. أخذتها بيدي غصبا عنها، لمْ تكنْ تطيق سماع كلمة ''مدرسة'' فطالما عاشت فيها أسوأ لحظات حياتها، كانوا يرغمونها على قول عبارات مسيئة عنّي، مثل: ''أنّ أمي تستعبدني، أمي ترغمني على الصلاة...''، لكن المسكينة كانت ترفض أن تتهمني زورا وبهتانا، حتى أنها قالت لي مرة إنّ المُدرسة قالت لها:

_ سننقذك من أمك مع الشرطة، ستربط الشرطة أمّك وسنأخذك منها فلا تخافي.

ذهبت بهم وعدْتُ لأجهّز نفسي وأذهب إلى معهدي وإذا بالسوسيال يتصل بي ويأمرني بالمجيء، سألتهم إن كان هناك خطب ما، إنْ أصيب أولادي بمكروه، طمأنوني أنّ الأمور بخير. ذهبت لهم وجلستُ وإذا بي أُفاجَأُ بوقوف رجلين ضخام البنية عند رأسي وبيديهم عصوَين من حديد، وبدأ موظّفو السوسيال يقولون لي:

_ لقد أنقذنا الأطفال منك أيتها المريضة النفسية. نحن نعرف أنك ستؤذينهم، لذا سحبناهم منك.

كانوا يتحدثون معي وهم ينظرون للرجلين، أحسست بإحساس أسود وقتها، تسألني ما معنى الإحساس الأسود؟ كيف يكون؟ لا أدري، كل ما أعرفه أنه إحساس قاتم، مريـع، فظيع، تمنّيت وقتها لو أنني لمْ أخرجْ من الصومال وأنني لمْ أطأ السويد. تمنّيت لو أنني بقيت بمقديشو ولمْ أر في حياتي ستوكهولم ... أيقنت وقتها أنّ الصومال الذي يعيّرونه ليل نهار أحسن من السويد بمليون مرة، يقول قائل إنني أبالغ ولكنه الدرس القاسي الذي خرجت به من تجربتي بالسويد بلد السعادة .... حدث ما كنت أخافه، خطفوا أبنائي، جلبوا رجال الأمن ليهددونني بعصيّهم الحديدية في بلاد حماية حقوق المرأة ويستفزونني بكلامهم الجارح ويهينونني بكل راحة. كانوا يريدونني أن أنطق بأي كلمة أو أتهور بفعل ليهشموا عظامي بالحديد وليلفقوا لي تهمة التعدّي على موظفي السوسيال فأُسجن.

لقد حدث كل هذا لي في بلاد تدعي حماية حقوق المرأة. نعم هذه حقيقة البلدان التي تتدخل بشؤون بلداننا بحجة تعليمنا حقوق المرأة والأطفال، الحق في التعري، الحق في تغيير خلق الله، الحق في تغيير الجنس، الحق في ممارسة الجنس دون إطار شرعي، في أي عمر وحماية المرأة من الزواج المبكر، فلها الحرية في الجنس العشوائي كالبهائم لكنهم يعتبرون الزواج المنظم الشرعي تهديدا لها وخطر محدق بها فوجب حمايتها، إنهم يهدّدون أمن الدول من أجل تطبيق أجندتهم.

كل ما قلته لهم:

_ هل يُسمح لي بالخروج إن أنهيتم كلامكم؟

_ اِجلسي واسمعي الكلام، ما دمت مريضة نفسية عليك أن تسمعي كلامنا إلى الأخير.

سمعت منهم الكثير من الكلام وحينما يئسوا من هدوئي ورباطة جأشي تركوني وشأني، لا قدر الله لكم عيش موقفي ذاك.

حُوّلت قضيتي إلى المحكمة، كانوا يتصلون بي يوميا ''تعالي اليوم''، يتكلمون الكثير ثم يأمرونني ''غادري الآن ''. بعد محاولاتي العديدة سمحوا لي فقط بالاتصال بأبنائي ومنعوني من رؤيتهم. بعد محاولات أخرى سمحوا لي برؤية ابنتي الصغيرة. كل تلك الفترة لمْ يفتروا في إقناعي بإصابتي بالمرض النفسي وساوموني على ذلك، إنْ أردتِ استعادة أولادك فاعترفي أنك مريضة نفسية! وحينما اشترطت عليهم مرة أخرى أن

يبعثوني لاختصاصي نفسي ليفحصني بنفسه ويرى إن كنت مريضة أو لا، لا أن أعترف أنا من تلقاء نفسي، رفضوا وقالتْ لي موظفة كبيرة بالسن:

_ لقد شخصّت حالتك الموظفة التربوية بالمدرسة ونحن ندعم كلامها، كيف لنا نحن أن نكون كلّنا مخطئون وأنتِ الوحيدة التي على صواب؟ حتى لو كنتِ محقة في كلامك عليك أن تمشي على ما نقوله نحن، ستتمنّين رؤية أبناءك ولن نسمح لكِ بذلك. قلتُ لها:

_ الله وحده الذي يشاء أن يجعلني معافاة أو مريضة وليست تقاريركم ولا كلامكم.

فقدتُ عملي -الذي بدأت فيه بعد خطف أولادي- بسببهم، فقد كنتُ أعمل كل الليل ويطلبونني هم للمجيء في النهار، أو يتصلون كل يوم أو يومين، فلمْ أعدْ أنام نهارا ولا ليلا. توقفت عن عملي، طلبت منهم المساعدة في إيجار البيت فرفضوا، فوجدت نفسي من دون أولادي ولا جدران تأويني في بلد الحقوق والحريات، وجدتني أبيت في محطة القطارات، قالوا لي:

_ اِذهبي للهاربيريد ''مسكن المشردين '' ونامي فيه.

_ لكن المقيمين به كلهم رجال سكارى، وأنا امرأة أجنبية، كيف إذا اعتدوا عليّ وآذوني.

قالتْ لي بالحرف الواحد:

_ أنتِ لستِ ابنة أمي.

ذهبتُ إلى المسجد ليلتها ودعوتُ الله كثيرا وقرأتُ القرآن، تمنيتُ يومها أن يفقدني الله عقلي لكي لا أحسّ بشيء بعدها، أن أكون كما يريدون لي، مختلّة عقلية!

جاء الحارس ليغلق باب المسجد وطلبني أن أصحبه إلى بيته، فسألته مستغربة:

_ كيف ذاك وأنتَ رجل أعزب تسكن لوحدك؟

_ وما المشكلة في ذلك؟

_ المشكلة؟ المشكلة أنكَ لستَ من محارمي.

_ عجيب! أبعدَ كل هذه المصائب المتلاحقة عليك تفكّرين في المحرم؟

_ أسدِ لي معروفا واحدا، أغلقْ عليّ باب المسجد ولا تخبر أحدا أنني هنا، وأعدك أن لا أحد سيراني بعد الفجر.

_ لا أحد سيغضب إنْ نمتِ هنا.

أغلقَ الباب وبتُّ ليلتي بين الدعاء والنوم المتقطع، أسأل الله تفريج همّي وكربتي.

اتصلت بعد ذلك اليوم إحدى الأخوات الصوماليات بعدما سمعت قصتي، فتحتْ باب منزلها لي وآوتني عندها لأسبوعين. اتصل السوسيال بي مجددا وأخبروني أنهم وجدوا لي مأوى، حسبتهم قد وجدوا لي بيتا صغيرا أو رخيصا لكنهم وضعوني في مركز للمجرمين خريجي السجون ومدمني المخدرات! كان هدفهم أن أخلع حجابي وأفقد عقلي بينهم، لكن أملي بالله كبير وقد دعوته كثيرا وحاشاه أن يردّني خائبة، والمفاجأة أنّ كل العاملين بذلك المركز كانوا يرون أنني في المكان الخطأ وأنّ قرار السوسيال بوضعي هناك قرار خاطئ، فلم يروني إلا مصلّية في غرفتي أو خارجة إلى معهدي، تخيّلوا حتى المسؤولين في ذلك المركز كانوا يتصلون بالسوسيال ويقولون له:

_ هل أتيتم بهذه المرأة كي نعالجها من الصلاة ونمنعها منها؟ لأنها لا تتناول المخدرات؟! هل نقول لها اِقطعي علاقتك بالله؟

_ لالا، هذه مريضة نفسية.

_ لا، هذه ليست مريضة نفسية. إنْ -أنتم- أتيتم لنمنعها من أداء صلاتها وتعاليم دينها فأخبرونا بذلك وسنفعل، أمّا إذا أتيتم بها لأمر آخر، فعليكم أن تأخذوها من هنا وبأسرع وقت.

_.....(صمت السوسيال)

_ نحن نستضيف هنا أكثر من عشرين شخصا في هذا المحل والسؤال الكبير لدينا، ما هي قصة هذه المرأة؟

_ .....(صمت السوسيال)

_ هذه المرأة ليست مجرمة ولا مدمنة مخدرات وليست مريضة نفسية.

_ إذا كان الأمر هكذا فاطردوها للشارع، ليس لها صلة بنا.

_ لا لن نطردها إلى الشارع، سنستأجر لها بيتا رخيصا وسنخرجها من هنا.

خرجت من ذلك المركز إلى البيت الصغير الذي استأجروه لي، وقالوا لي يمكنكِ الآن أن تسترجعي أولادك، لكن السوسيال كان له كلام آخر، وكأنّ عيش حياتي بسلام يهدّد سلامهم، طالبوني ببيت كبير لأنّ لدي ثلاثة أطفال مسجلين باسمي، فسألتهم:

_ أنتم تعلمون أنّ لا مال لديّ لكي أستأجر بيتا كبيرا. فهل ستساعدونني؟

_ لا، لن نساعدك.

وبقوا مصرّين على دفعي لأستأجر بيتا كبيرا حتى فعلت ذلك، اتّصلت بأمي:

_ أمي أنا خائفة على أولادي، أنا لست مطمئنة عليهم. لقد اشترطوا عليّ تأجير بيت كبير ليعيدوهم لي وليس لدي مال لذلك، ساعديني أمي كي أسترجع أولادي.

وعوض أن أساعد أنا عائلتي بالمال حدث العكس، وساعدتني أمي وأخي بالمال لكي أستأجر البيت الكبير المناسب، استأجرته ورزقني الله بعمل مباشرة. عندما علموا أنني وُظّفت أصبحت الجهة المخوّلة بإعطاء المساعدات في السوسيال تلاحقني كي أمضي على أوراق لأستفيد من معوناتهم، تخيّلوا أنهم امتنعوا عن مساعدتي وقت أزمتي وعرضوا المساعدة بعد تحسّن حالي!؟ كانوا يريدونني أن أفقد عملي، فالقوانين هنا تُفقد متلقي المساعدات عمله.

هل انتهوا عن اتهاماتهم وجنونهم؟ لا .... قالوا في تقاريرهم أنهم يشكون أنني أبيع ابنتي ذات العشر سنوات إلى الرجال، هل انتهوا؟ لا، اتهموا ابني في شرفه وقالوا لي:

_ إنه يقول أنه يملك جسما جميلا كأجسام النساء، ما رأيك أنت في ذلك؟

_ هو يقول هذا الكلام؟

_ نعم، هو يريد إقامة علاقات مع الرجال مستقبلا.

_ فليكتب الله الخير لي ولأولادي.

وكتمتُ وجعي وسكتتُ، وأول ما التقيت بابني سألته عن حقيقة ما يقولون، فغضب المسكين عن ما رموه وقال لي:

_ لماذا يقولون عني هذا الكلام الشنيع المقزز؟ فليطمئن قلبكِ عليّ، أنا رجل يا أمي، وسترين -بإذن الله- أولادا وأحفادا من صلبي، فليقولوا عني ما يقولون، أنتِ فقط اطمئنّي ولا تقلقي. وسننتقل من السويد إلى الصومال ونعيش كما نريد إن شاء الله.

كان يتحدث معي هكذا أمام موظفي السوسيال، وعندما بدأنا الصلاة أتوا يصرخون علينا ويقولون لابني:

_ ليس لك حاجة بالسماع إلى حديث أمك.

ابني المسكين الذي تنقّل بين سبع بيوت منذ أخذوه من عندي، لا يريد العيش مع عائلة غير عائلته، لا يرى الأمان إلا بيننا لكنهم حرموه إياه بحجّة حمايته من أمه!

هل توقفوا عن اتهاماتهم؟ لا، اتهموني في شرفي ورموني بالزنى وقالوا إنني أزني مع الغرباء أمام أولادي، سألتهم الدليل، فقالوا:

_ نحن نعرف، نحن نعرف.

_ هل أخبركم أحد من أولادي عن هذا الأمر؟

_ لا، لمْ يخبرْنا أحد، لكننا نعرف.

حتى أنّ طليقي جُنّ جنونه من هذه التهمة، سألهم:

_ هل أنتم تتحدثون عن طليقتي أمّ أولادي أم عن امرأة أخرى؟ هي ملتزمة وبعيدة عن هذه الأمور كل البُعد.

_ أنت لا تعرفها معرفة جيدة، أنتما الآن مطلّقين ولا تعرف عنها ما نعرفه نحن.

كتبوا تقريرا آخرا عنّي بأنني أشرب الخمر بكميات تفوق خيال أيّ أحد! يعني حتى تقاريرهم تخلو من الواقعية، يستعملون معي خيالهم بشكل مبالغ فيه، يعني حتى مسؤولو المركز السويديون أقرّوا أنني لا أعاني من أيّ مشكلة في الإدمان والسوسيال مُصرّ بأن يلصق بي أيّ تهمة كي لا يُرجع لي أطفالي.

كل هذه المشاكل التي عشتها وأعيشها بسبب امرأة عنصرية حاسدة، لمْ تستسغْ أن أدرس بجد واجتهاد وأن ألج معترك السياسة في بلدها، يقال عن السويد أنها دولة النساء؛ لأنها تستميت في الدفاع عن حقوقهن، يقال عن اللاجئات هنا أنهن مضطهدات لأنّ أزواجهن لا يسمح لهن بمغادرة البيت وأنّ الدولة تعمل على مساعدتهن على التحرر من القيود وتطوير أنفسهن! سمعت الكثير من شعاراتهم الرنانة ولمْ أعدْ أصدق شيئا منها. سأبقى أكافح من أجل استعادة أطفالي وكلّي أمل بالله، ربي الذي أهلك قبلهم فرعون والنمرود.

محاميتي الثانية والتي وكّلتها بنفسي أخبرتني أنّ المحاكم تعمل مع السوسيال وأفضل طريقة للفوز بالقضية هي الاستمرار بالشكوى والاستئناف في القضية في كلّ مرة يصدر الحكم ضدّنا. كانت تعطيني جرعات من الأمل وتعمل جادّة معي عكس المحامية الأولى -لا سامحها الله- التي وكّلوها هم، كانت تتظاهر أنها تساعدني لكن أثناء كل جلسة كانت تقف في صفّهم ضدي!

في آخر ما أصدروه عنّي أنني امرأة عاقلة، ذكية وتلعب الألاعيب ضدنا! يعني أنا في نظرهم سئمت من حياتي الطبيعية مع أولادي، فكتبت سيناريو هذه الأحداث المجنونة ورحت أمثّلها وألعب معهم!

بعد علمي باغتصاب ابنتي و تغيير اسمها التقيت بامرأة سويدية كبيرة بالسن كانت قد علمت بمأساتي فقالت لي بالحرف الواحد '' قللي تمسكك بهذا الدين، و ستساعدك ابنتي الموظفة بالسوسيال، و سنعرضك على محاميين سويديين يحبون النساء الإفريقيات، تعاوني معهم من أجل استعادة أولادك و بعدها عودي لدينك إن شئت ذلك ''.

لو اختفيت يوما من الأيام بأي شكل من الأشكال، إن قيل أنني توفيت بسكتة قلبية أو أنني بالمصحة النفسية أعالج من مرض نفسي فاعلموا أنهم قد تمكنوا مني .....

الهروب من إيطاليا

بدأت حكايتنا حينما تقدّمنا بطلب لجوء لهيئة الأمم المتحدة هروبا من أوضاع سوريا السيئة جدا. لمْ نكنْ نفكر أبدا في الهجرة لكن حالنا تأزّم بشكل كبير بعد انفصال والديَّ بعضهما عن بعض لمشاكل بينهما، لمْ يعدْ هناك مجال للبقاء. بعد عامين من التقديم قُبِلَ طلبنا وخيّرنا بين ثلاث دول: السويد، إيطاليا والبرتغال وبحكم تواجد عمي بإيطاليا، فقد اخترناها وهو الذي ساعدني في إيجاد سكن قبل وصولنا، ذهبت أنا وأمي وأخي فقط، ورفض والدي السماح لأختي بالسفر معنا وأشكر الله ليل نهار على ذلك وأقبّل رأس والدي على قراره ذاك. كان عمر أخي تسع سنوات، وحالما وصلنا باشرنا إجراءات المدرسة وبدأ دراسته بطريقة نظامية.

بعد عامين من عيشنا هناك وذات ليلة كنت أتجاذب مع أمي أطراف الحديث طُرِق بابنا، تعجّبنا من يكون الطارق وقد قاربت الليلة على الانتصاف! نظرت من النافذة وإذا بسيارات الشرطة مصطفة على طول الشارع، ذُعِرت حينما رأيتها، فتحتُ لهم الباب على عجل، سألوني:

_ هل أنت محمد الفلاني؟

_ نعم، أنا هو.

_ لقد أتتنا شكوى من مدرسة أخيك تفيد أنك تعامله معاملة سيئة.

_ معاملة سيئة؟ هذا غير صحيح.

_ مصادرنا موثوقة، ليس لأحد مصلحة في الكذب عليك.

_ لكن من قال لكم أنني أعامله معاملة سيئة؟ هل هو من اشتكى مني؟

دخل البيت وفتش الغرف باحثا عن أخي، أخذوه من عز نومه، بكى بكاء طويلا ولمْ يكنْ بأيدينا شيئا لنفعله، جنّ جنون أمي، صرختْ في وجوههم ودافعتْ عن فلذة كبدها بعنف، فظهرتْ على وجوههم أمارات الاستنكار، دافعتْ بهم، دافعتْ بالأثاث، كانتْ المسكينة تظنّ أنّ باستطاعتها أن تفتكه منهم لكن جهودها ضاعت سدى. وبحجة المعاملة السيئة خطفوا أخي الذي هو قطعة من روحي، يفرحني ما يفرحه ويحزنني ما يحزنه. كنت وقتذاك 25 سنة وهو 11 سنة، كنت أوجّهه وأنصحه ولا مشاكل كبيرة بيننا، لا أدري ما تعريفهم

للمعاملة السيئة! أن تترك الطفل يعيش على هواه؟! أن تفسده بالدلال؟ أن يكبر بين عينَيك وقد تساوى عنده الحق والباطل؟

لم نعرفْ عن أخي شيئا بعد تلك الليلة لمدة سبعة أشهر! تخيّلْ نفسك مكاننا، جئنا من بلد مدمّر، هربنا من السجون المعتمة، الاختفاء القسري، من سياسة تكميم الأفواه وتذويب المعارضين، فوجدنا أنفسنا في ظلم آخر مقنع محمي بالقانون! سبعة أشهر دون أيّ معلومات عنه، ذهبت إلى المحاكم، إلى مؤسسات السوسيال، تتبعت كل خيط يوصلني إلى مكانه لكنني فشلت في إيجاده، سبعة أشهر أصيبتْ فيها أمي بارتفاع ضغط الدم والسكري وتوالتْ عليها المشاكل الصحية، توسلتُ لهم في آخر المطاف برؤيته فقط، قلتُ لهم أرونا إياه واتركوه عندكم، نريد الاطمئنان عليه فقط، زيارة واحدة فقط. حينما ألححت عليهم سمحوا لنا بزيارته. دخلنا غرفة يجلس فيها شخص لا نكاد نعرفه، أخي، حبيبي، روحي قد أصبح شخصا آخر، سبعة أشهر كانت كافية لتغييره تغييرا جذريا، شكله، نظراته تائهة وكأنه ليس هو أخي الذي خطفوه تلك الليلة، كان يمعن النظر إلينا وكأنه يجبر ذاكرته على تذكّرنا! لقد كانت العقاقير والأدوية النفسية التي أُجبر على تناولها بعد تشخيصه بمرض الوسواس.

لأختصر القصة وأحكي عن القصة بعد ثلاث سنوات من التفاصيل المرهقة، أصبح أخي شخصا شقيا ومشاغبا، كلما دخل بيت عائلة حاضنة أحدث به المشاكل والمصائب وهكذا تنقّل بين العوائل والمراكز، استجاب الله لدعاء أمي وأخلوا سبيله هو وابن السادس عشر وقبل حتى سنّ البلوغ القانوني، أتعبهم بتصرفاته فأرادوا التخلص منه. عاد أخي إلينا وبدأنا حياة العذاب معه، أدمن شرب الخمر وأصبح لديه كشرب الماء، تعاطي المخدرات كانت من عاداته اليومية، خطفوه في أحسن هيئة وطردوه من عندهم وقد غطت الوشوم جسمه، كان منظره سيئا ولا تظهر عليه سمات الإسلام إطلاقا. كانت أمي تكره الوشم كثيرا حتى أنها لا تستطيع النظر إليه مطولا. ذهبت أمي بأخي إلى تركيا لتعالجه واستقرت فيها مع أختي وليتني ذهبتُ معهم وقتها، وقد ندمتُ على ذلك ندما شديدا، لكن الله قدّر والحمد لله على كل نعمه علينا.

بعد مدة تزوجتُ من ابنة عمي وأنجبتْ مني توأما ولله الحمد، بعد بلوغهما السنة عادت الأحداث تتكرر من جديد، وهذه المرة مع ولداي وليس أخي والوقت كان صباحا لا ليلا، دقّ موظف والسوسيال باب بيتي على الساعة السابعة صباحا حيث كانت زوجتي بالبيت وأنا بالعمل، اتصلت بي. عدتُ سريعا إلى البيت،

طمأنونا بداية الأمر وأخبرونا أنّ هناك من قدّم بلاغ قلق بشأننا، وأرادوا التأكّد من ذلك فأتوا لمراقبتنا، كيفية تعاملنا كأزواج بعضنا مع بعض وبصفتنا آباء مع طفلَينا.

أمضوا معنا شهرا كاملا للمراقبة داخل بيتنا، يأتوننا الساعة التاسعة ويغادرون الساعة الخامسة، تخيّل أنك تحت مراقبة أحدهم لشهر كامل بمجرد أن مجهولا اشتكى منا! لمْ أعدْ أستطيع حتى الذهاب إلى العمل بسببهم، لقد أدخلوا على قلبي الرعب والخوف. بعد مرور الشهر انقطعوا عنا ولمْ يعودوا لنا وارتحنا منهم.

بعد مرور سنة حدثت معنا مشكلة صغيرة جدا وهي عند خروجي من المنزل نسيت أن أقفل على ابني قفل عربته وقفز من عربته، صوّر أحدهم ابني وبعث به إلى السوسيال، أتى موظفو السوسيال على عجل إلى بيتنا الساعة الثالثة صباحا برفقة الشرطة وبحوزتهم الفيديو. تجمهر أمام بيتنا بعض الجيران من بينهم جارة إيطالية يهودية كنت أساعدها كثيرا في حمل أغراضها إلى الطابق الخامس وأسقي لها نباتاتها. أمسكنا أعصابنا قدر المستطاع -بلطف من الله- فقد كان موقفا يشيب له شعر الرأس، لكن من المعروف عليهم أنهم يختبرونك عند عملية الخطف، فهم يعدّون حالة الهيجان والغضب ورد الفعل العنيف عدم قدرة على السيطرة على النفس، وبالتالي يحكمون عليك بعدم أهليتك لتربية أولادك! كنا بركانَين نشطَين ننصهر بداخلنا ونظهر لهم عكس ذلك. كنت قد اتفقت أنا وزوجتي قبل ذلك على ردة الفعل الهادئة تلك، كنا نعلم أنّ السوسيال سيأتي لنا في أيّ لحظة.

أخذوا ولدي وهنا تدخّلت تلك العجوز الإيطالية وأخبرتهم:

_ إنّهم جيراني وأنا أزورهم دائما وأقضي معهم أوقاتا ممتعة، لمْ أرهم يوما يسيئون معاملة الطفلَين، بالعكس إنهم يعاملونهما أحسن مما يعامل الإيطاليون أولادهم. دققوا في الفيديو الذي بين أيديكم، إنه يظهر الطفل على الأرض ولم يظهره أنه قفز، ربما نزل متشبثا ولمْ يتأذى.

أكملتْ كلامها ودفعتْ الشرطي بعصاها، عندما رأت الجارات الإيطاليات العجوز وهي تضرب الشرطي بعصاها تشجّعنَ، وقفنَ بجانبها ودافعن عنها وعني. هنا لمْ يجب رجال الشرطة الجارات وأرجعوا لي ولدي، كان لطفا من الله وفضلا.

تأكّدت بعد تلك الواقعة أن لا خير على عائلتي في ذلك البلد. في غد ذلك اليوم أعطيت مفاتيح الشقة لجارتي وقلت لها أنني سأزور أمي ولمْ أخبرْها إلى أيّ بلد كي لا أُطارد، قلت لها إن تأخرنا بيعي الأثاث وأعطه المحتاجين إن وُجدوا، تركت كل شيء خلفي، الأثاث، الأجهزة المنزلية، ملابسنا وكل أغراضنا وذكرياتنا لمْ أتردد لحظة في الهروب بولدي.

انطلقت بالباخرة إلى اليونان ثم إلى تركيا. لمْ أندم بعد ذلك للحظة على مغادرة إيطاليا بالرغم من أنّ ما أقبضه بتركيا حاليا هو خُمس ما كنت أقبضه في إيطاليا لكن ذلك المال لمْ يكنْ يوفر العيش مع عائلتي بسلام، أخي الآن يعمل معي في المعمل، ما زال يعاني من تبعات السنوات العجاف التي قضاها بين العوائل والمراكز لكنه يتعافى منها تدريجيا، أمي، زوجتي وأختي بالبيت يتعاونَّ على إدارة البيت وتربية الأطفال، نعيش بسلام ودون خوف، نتصرّف على سجيتنا، نربّي أولادنا على تعاليم ديننا ولا نخاف من إيداع شكاوى ظالمة ضدنا ونترقب بقلق كل طرقة على الباب ونحسب خلفه موظفي السوسيال برفقة الشرطة.

الشرف .... جريمة بالسويد !

قصتي حزينة مؤلمة جدا، سأختصرها وألغي التفاصيل الكثيرة .... قصتي قصة أمّ عراقية خطف السوسيال السويدي منها طفلتها ابنة الحادية عشر سنة، بدأت الحكاية حينما ارتدت ابنتي الحجاب وهي في سن التاسعة وضُيِّق عليها بسببه، كانت تحبه وارتدته بكامل إرادتها لكن ذلك لمْ يعجبهم، بل حتى ارتداء الكمّ الطويل قبل ذلك كان يضايقهم. كانت تنصح زميلاتها كذلك بلبس الملابس المحتشمة وتخبرهم أنّ ديننا ألزمنا بذلك. كانت تنصحهم أيضا بعدم تناول لحم الخنزير بمطعم المدرسة وكانت تذكّرهم بأنّ ذلك محرم في ديننا، بالرغم من أنّ الأولياء كانوا يقدّمون إفادات للمدرسة تنبّههم أنّ الأولاد نباتيين إلا أنّ التلاميذ كانوا يتهاونون في ذلك والإدارة تغضّ عنهم الطرف. حُذِّرت ابنتي من الخوض في تلك المواضيع مجددا، واستُدعِيتُ أنا بسبب ذلك، وحُذِّرتْ أمامي من التدخل في شؤون الآخرين.

ذات يوم وبينما هي مجتمعة مع صديقاتها، تفاخرن أمامها بأنّ لديهن أصدقاء ذكور فتظاهرت هي بأنها أحسن منهن وأنّ لديها زوجا. كانت تقصد أنها ستتزوج ولن تصادق مثلهن، لا أدري ماذا كانت تقصد بالضبط لكن ذلك ما خطر ببالي. كان حديثا بين فتيات صغيرات يمزحن ويثرثرن ولمْ يكنْ لابنتي –بالطبع- زوج. لكنّ الجملة التي لفظتها ابنتي لمْ تمرّ مرور الكرام حينما سمعتها معلّمتها. لقد خُطِفَتْ ابنتي من المدرسة مباشرة ودون أيّ مقدّمات. كان من العادي ما ثرثرن هن به بأنهن يملكن أصدقاء وعشاق وأنهن يمارسن الرذيلة مع أيّ كان لكن حينما ذكرت ابنتي الزواج على سبيل الدعابة حوسبت على مزحتها بينما لم يحاسبن على جدّيتهن!

حُقِّقَ معها من قبل السوسيال وقالت لهم أنها كانت تمزح معهن، طالبوا بفحص عذريتها وكُشِفَ عنها وأُصدِر تقرير بسلامتها. اتصلت بي الشرطة أخبروني بما حدث، مدحوا لي ابنتي وأخبروني أنّ علي الافتخار بها لأنها خلوقة جدا ومؤدبة. فُحِصَتْ –أيضا- بخصوص تعرّضها لأيّ عنف جسدي أو نفسي وتبيّن لهم أيضا أنها سليمة. بحثوا عن التاريخ المرضي للعائلة وتأكّدوا أنه لا يوجد أيّ مريض نفسي بيننا. واطلعوا على ملفها الصحي وتحقّقوا من مدى التزامنا بمواعيدها مع طبيب الأسنان ووجدوا أنّ الأمور تسير على خير ما يرام، كان كل شيء رائعا ليعيدوا لنا ابنتنا.

لكنهم لمْ يعيدوا ابنتي!

لماذا لمْ تعدْ ابنتي وكل أمورها جيدة ولا تعاني من أيّ تعنيف أو مشاكل ؟! ردوا علي:

_ أنتم عائلة متشددة، وتبحثون عن أمور الشرف وهذا أمر ممنوع عندنا في السويد.
وبسبب قضية الشرف فقدت ابنتي إلى الأبد.

وكما قال أحد المقيمين العرب بالسويد في أحد فيديوهاته على أحد المنصات الاجتماعية:

إذا أردت أن لا تُسحَب ابنتك بسبب قضايا الشرف فعلّمها:

- **قلْ لها** لا تمارسي علاقات جنسية كاملة لكي لا تحملي في سن الـ 14 وأنتِ لستِ على قدر عالٍ لتحمّل المسؤولية ..... **لكن لا تقل لها** لا تمارسي العلاقات، لأنها حرام في ديننا وأنّ رأس مال المرأة شرفها.

وبهذا لن تتربى الابنة (أمانة الله في عنقك) على أنّ العلاقات خارج إطار الزواج هي زنا وهي من أعظم الحرام وأعظم الكبائر، لن تتربّى على الخوف من الله وتذكر معيته لنا في السر والعلن، لن تخاف من النار ولن تُرغّب بالجنة وبهذه التربية من الممكن أنها ستفكّر بأنّ العلاقات المحرمة علاقات عادية لكن علينا تجنّب تبعاتها السلبية بموانع الحمل، وبالتالي انتهت مشكلة المسؤولية وستزني وتأتي بصديقها الحميم إلى البيت وستمسح بشرفك بلاط المنزل.

- **قلْ لها** غيّري ملابسك بالمرحاض في حصة الرياضة إذا لمْ تكوني مرتاحة ..... **لكن لا تقلْ لها** أنّ للمرأة مناطق بجسمها حرام أن تطّلع عليها صديقاتها وأصدقاؤها. حتى أنّ **كلمة عيب** ممنوع أن تلفظها في تربيتك؛ لأنّها تُفهم أنك تربّيها ضمن ثقافة الشرف وفي السويد هناك قانون يمنع ثقافة الشرف.
- **قلْ لها** لا تخرجي بتنورة أو ملابس قصيرة؛ لأنّ الجوّ وبارد ..... **لكن لا تقلْ لها** أنّ هذا الأمر حرام شرعا وعيب بمجتمعنا.

ستتحمّل البرد وتلبس القصير كي لا تشعر بالغربة في مجتمعات جعلت العري ثقافة وله فعاليات سنوية ترفيهية كفعالية التعرّي والمشي في الأماكن العامة! لقد تجاوزوا حدود الحرية فتشبّهوا بحيوانات الغاب ليرفّهوا عن أنفسهم وعن الناس! يحسبون أنّ كل البشر مثلهم، لا يعلمون أنّ مناظرهم تلك تخدش حياءنا وتثير الاشمئزاز في نفوس المؤمنين. ستتعرّى معهم في الغرفة نفسها رغما عنها كي لا تشعر بالاختلاف ولا

تتعرض للتنمّر الذي يطغى في المدارس الغربية. بتلك التربية لن تستطيع أن تربي ابنتك في سن العامين على أنّ التعري أمام أخيها عيب وممنوع قبل أن تكبر قليلا وتعلم أنه حرام في ديننا، لن تكبر ابنتك على مفهوم الحشمة في مجتمع يقدس العري.

- **قلْ لها** لا تصادقي زملاء سيئين، **لكن لا تقلْ لها** لا تصادقي الرجال ... الأولى تُفهم حماية والثانية قمع.

ستفهم أنّ الصداقة أمر عادي بين المرأة والرجل، عليها فقط أن تتخيّر الجيّد من الرجال، ستنتقي رجلا جيدا أو رجالا، لا أظن أنّ العدد مهم لديهم ولا أظنّ أنّ الخيانة عندهم ذلك الذنب العظيم، ستتطور الصداقة بينهما إلى عشق وحب ثم وقوع في الحرام ثم حمل السفاح ثم، ثم، ثم..... إلى أخره من مشاكلهم العويصة، بتربيتك هذه أنت تحمي نفسك من السجن وابنتك من خطف السوسيال، لكنك لا تحميها من السعير في الآخرة.

- **قلْ لها** أنّ العصابات وتجار المخدرات ينشطون بالليل وأنا أخاف عليك منهم إن خرجت ليلا ..... **لكن لا تقلْ لها** أنك فتاة ولا تخرجي ليلا .... الأولى تفهم حماية والثانية تقييد.

لن تستطيع أن تربّي ابنتك على أنّ الله خلق المرأة وهو أعلم بها وبضعفها وجعل لها أحكاما ليحميها بها، فنهيت عن السفر من غير محرم، عن الاختلاط وعن الخلوة بالأجنبي والكثير من الأمور...

بالمختصر المفيد لن تستطيع تربية ابنك في السويد على دين الإسلام الذي أتى لحماية الدين، النفس، العقل، العرض والمال. لأنك لو ربّيته على الإسلام فستُتَّهَم بالتشدّد والقمع وبقضايا الشرف أيضا وسيسحب منك أطفالك إن وُجدوا.

التهمة ..... وسواس النظافة

أنا مقيمة بالسويد منذ أكثر من 40 سنة، هربنا إليها من العراق أثناء الحرب مع إيران. كانت نسب اللاجئين آنذاك قليلة مقارنة بالسنوات الأخيرة. طالما كنّا نعامل كبشر من الدرجة الثانية. ضيّقوا علينا مجال الوظائف ومُنحنا وظائف التنظيف، المسح وغسل الأواني. مشاكلنا لمْ تكنْ تنحصر في حصر قدراتنا وإمكاناتنا في وظائف النظافة فقط بل تعدّتها إلى ما هو أعظم من ذلك وهو خطف أطفالنا، كانت نسب الخطف قليلة مقارنة بالنسب المجنونة الذي تحدث الآن، إنهم يخطفون أطفالنا بسبب ومن دونه، يخلقون لك سببا من عقولهم المريضة ويعذبونّك طول حياتك.

تزوجتُ برجل نرويجي كان طالبا وقتها، أنجبتُ منه ولدَين وقد كنتُ المسؤولة الأولى عليهم من حيث الإنفاق المادي، الرضاعة، التنظيف، التربية والتوجيه. فشل زواجنا في نهاية المطاف وانفصلنا. وقف السوسيال إلى جانبه في موضوع الحضانة وبقيتُ لوحدي أحاربهم، ساعده السوسيال وذهبوا للمحكمة من دوني وأعطوه الحضانة المفردة، يعني تواطأوا لسرقة الحضانة مني. بعثوا ابنيَّ مع والدهم إلى النرويج لمدة ستة أسابيع حتى أكملوا أوراقهم ثم قالوا لي: فلتوكّلي محاميا! حينما أكملوا جرمهم طالبوني بالمحامي!

أخذوهم بسبب العنصرية وكتبوا في تقاريرهم أنّ ولداي لا يعانيان من أيّ أثر للعنف الجسدي ولكنني أسأت معاملتهم نفسيا ولمْ يقدّموا أيّ دليل على ذلك. اتهموني أيضا بإصابتي بالوسواس القهري في النظافة. نعم لقد كنت نظيفة وأحافظ على نظافة بيتي وابنيَّ، كان أحدهما يحبو وكنت أحافظ له على نظافة الأرضية كي لا يتسخ، نظافتي كانت عندهم جرما يُنتزع بسببه طفلَاي من حضني!

فقدتُ ولدَاي ورأيتهم بعد ذلك وهما أبناء الـ15 والـ16 سنة، كنتُ أراهم في مطعم فنأكل وجبة غداء بعضنا مع بعض أو أراهم لساعة في المكتبة. مرّ ربع قرن الآن على فراقي لأولادي، يدرسان الآن بالجامعة ويشتغلان في الوقت نفسه ويصادقنَ الفتيات السويديات... لا مشاعر خاصة تُجاهي من طرفهما، عندما أقارنهم بأولاد أختي أحسّ بفرق كبير بينهم، كل ما أحسّه منهما هو البرودة والجفاء وكأنّهم أجانب عني .... تخيّل أنّ فلذة كبدك وقرّة عينك في الدنيا يعاملك كالغريب، تحسّ أن لا فرق بينه وبين الغريب الذي يمر بك، يبتسم، يلقي عليك السلام ثم يختفي عن ناظرَيك وكأنّ شيئا لم يكن. أنا التقيهم حاليا مرتَين بالسنة فقط. الوجع كبير وعميق وغير قابل للعلاج... وجع أعيش به حتى آخر عمري. لولا السوسيال وسياساته

لكنتُ الآن ألاعب أحفادي في الحديقة، لكنتُ الآن أعيش معززة مكرمة مع ولدَين بارَّين همّهما برّ أمّهما وإسعادها...

خرجتُ مع المتظاهرين في مظاهرة الأهالي ذوي الأطفال المختطفين في السويد عام 2022 أملا في استرجاع الأطفال، لقد أتوا من كل المناطق السويدية خاصة "مالمو" و"يوتوبوري" وتجمّعوا بالعاصمة، بالرغم من أنني كنتُ مصابة بالكوفيد إلا أنّه وفور شفائي شاركتُ معهم عندما أتوا إلى ستوكهولم؛ لأنّني كنتُ أقدَمهم وجعا وأكثرَهم خبرة في ذلك الألم، كنتُ أعرف جيدا ما يمرّون به، عيونهم كانت تحكي الكثير، بحّة الصوت ورجفته كانت تقول ما لمْ يستطيعوا قوله في سنوات، خرجتُ معهم لأنني لمْ أكنْ أريد لهم نهاية كنهايتي مع ولديّ لكن السلطات كان لها قول آخر وفرقّت المحتجّين بالقوة، هدّدت المتضامنين بأولادهم أيضا وضيّقت على الناشطين ورمت الآخرين بتهمة التخريب وتزوير الحقائق وانتهت تلك المظاهرات لكن الحكاية لن تنتهيَ هناك في شوارع ستوكهولم، سيأتي اليوم الذي يتحرّر فيه أطفالنا منهم -بإذن الله- وسيدفعون ثمن ذلك غاليا.

هذا ما يريدونه بالضبط، يحافظون على اليد العاملة خاصة في ظل ما يعانونه من قلة نِسَبِ الإنجاب ويفكّكون أيّ مجتمع يكبر في نسيجهم الاجتماعي، لا يريدون مجتمعا مترابطا أجنبيا بينهم ولو ادَّعوا عكس ذلك، حتى لو بيّنوا أنهم يحترمون اختلاف المعتقدات والآراء ويدعمون التعايش السلمي بين جميع فئات المجتمع إلا أنهم يكذبون في ذلك، كلّ ما يؤمنون به أنّ على كل مواطن ومقيم بأرضهم أن يكون له الولاء التام لهم ولقوانينهم وأن يخدمهم بتفان وإخلاص.

تاجر مخدرات صالح !

أب عراقي بالسويد يصرح: خطف السوسيال ابني بحجة أنني وأمّه سيئان، اعترف لي ابني فيما بعد أنّه تعرّض للاغتصاب والكثير من الأمور السيئة عندهم، لقد أثمرت جهود السوسيال في تربية ابني وإصلاحه وأصبح تاجر مخدرات في عمر الـ 25! أعيدها ثانية ابني أصبح تاجرا وليس مستهلكا! نعم، ذاك هو الصلاح الذي يسعى له السوسيال.

السوسيال ببلجيكا

بدأتْ قصة المعاناة قبل 15 سنة عندما تدخّل السوسيال (مؤسسة رعاية الأطفال) ببلجيكا واختطف أختاي من العائلة بعد طلاق والديَ، تعذّر عليهم اختطافي لأنني كنتُ قد قاربتُ على بلوغ سن الرشد عكس أختاي المسكينتَين اللتَين كانتا تبلغان الـ 12 والـ 13 سنة فقط، اختطفوهما بقوة، دون سابق إنذار وبحجة أنّ والدايَ غير مؤهّلين للتربية. بعد الخطف منعوا أمي المسكينة من زيارتهما أو حتى التكلّم معهما، تلك هي إنسانيتهم المزعومة! لمْ تكنْ تعرف حتى مكانهما، الأدهى في الموضوع أنها كانت تُعامَل كأنّها مجرمة من قبل موظفي الرعاية، باحتقار وإهانة لا مثيل لهما لكنها كانت تصبر وتصابر من أجلهما. كانت تسمع وترى منهم ذلك السوء وتتظاهر بالعمى والصمم فقط من أجل استعادة ابنتيها وفعلت المستحيل ولمْ تستطعْ استعادتهما.

وللتوضيح لمن لا يعمل، فهذه المؤسسة تتعامل مع الأطفال منذ الولادة وحتى سنّ الرشد ثم يرمونهم إلى الشارع دون مستقبل، ودراسة ولا عمل ويعانون عُقَدا وأمراضا نفسية ومشاكل الإدمان والإجرام. يتخلصون منهم ولسان حالهم يقول: "لقد أصبحتم راشدين الآن اعتنوا بأنفسكم لوحدكم".

حينما منعوا أمي منعا لا رجعة فيه من التواصل مع أختيَّ، بدأتُ أنا في مراسلة القاضية والجهات المعنية أشكو لهم أزماتي النفسية بسبب افتقادي الشديد لأختيَّ وأخبرتُهم أنّ حالتي ستتأزّم أكثر إنْ لمْ أر أختيَّ، ألححتُ عليها كثيرا حتى قبلوا لي برؤيتهما. بدأتُ أزور أختي أبرار (اسم مستعار) في الملجأ، لقد تحولت إلى فتاة عنيفة جدا بعد اختطافها ولمْ تكن تتقبل ذلك الواقع. وجدتْ نفسها بين عشية وضحاها في ملجأ بين أناس لا تعرفهم وصعُب عليها الاندماج في تلك البيئة. عندما أدخلوها الملجأ كسَرت كل ما كان يقابلها، ضربت الموظفين، أبلغوا عنها الشرطة، أخذوها إلى مركز الشرطة حيث ضُرِبت هناك وتكرر ذلك المشهد أكثر من مرة فقرّروا فصل الأختَين لكي لا تحرض أبرار أختي فيروز (اسم مستعار)، وُضِعتا في ملجأَين مختلفَين وبقيتْ أبرار مصرة على التكسير والإيذاء بغية العودة إلى حضن أمي لكن ذلك لمْ ينجحْ معها. من كثرة المعاناة التي عانوها معها ندمت القاضية يوما أنها قضت بخطفها من أمي. لقد نقلوها بين الملاجئ الخمسة الموجودة في المنطقة الفرنكفونية وأصبحوا يصفونها بالإرهابية. حتى أنّ العائلات الحاضنة كانت ترفضها بسبب سجلها في العنف وكان ذلك أمرا جيدا، فالعيش في العائلات الحاضنة يكون أحيانا أسوأ بكثير من العيش في الملاجئ، فالعائلة الحاضنة لا تُعرَف خلفيتها ولا تُراقب سلوكياتها مع الأطفال في كثير من

الأحيان. حينما يئسوا منها وضعوها في غرفة منعزلة تشبه عندي الحبس الانفرادي وبدأوا بإعطائها الحبوب المهدّئة فأصبحت تنام كثيرا وارتاحوا منها قليلا.

كنتُ أزور أختي في كل ملجأ تُحوَّل إليه، مما لاحظته أنّ جميع الملاجئ كانت موجودة بمحاذاة الغابة، حينما سألت أختي عن سبب ذلك أجابتني: "لكي لا نهرب منهم، يخيفوننا بظلام الغابة ووحشيتها وينسون ظلامهم ووحشيتهم". ومع اطلاعي أكثر وجدتُ أنّ أغلب الملاجئ في الدول الأوروبية تتواجد بمناطق غابية أو يصعب الوصول، كانت رحلتي تستغرق وقتا طويلا، ساعتَين بالقطار وساعة في الحافلة ومدة -لابأس بها- أمشيها على رجليَ. لو كنتُ أملك سيارة وقتها لهان الأمر قليلا لكنني كنتُ حديثة سن وقتها.

توقفتْ أختي عن الدراسة ببلوغها سنة الـ 14 سنة، حينما سألتُ المسؤولين عن سبب توقّفها تحجّجوا بحججهم الواهية وأنها ضربت الأستاذة وأصبحت تحرّض التلاميذ عليها. حينما سألت أختي عن صحة ما يقولون، أجابتني: "لست الوحيدة التي لا تدرس، هنا لك حرية الاختيار، إنْ أردتَ الدراسة فتعالْ أُدرسْ وإنْ رفضت فهذا قرارك، لن يجبروك على شيء!!". إنه التناقض في حدّ ذاته، فالأطفال أو المراهقون يخطفهم السوسيال من أهاليهم بسبب إهمالهم لدراستهم أو كثرة غياباتهم ويتهم الآباء بعدم الأهلية وحينما يكون هؤلاء الأطفال تحت رعايتهم تكون الدراسة من عدمها اختيارا شخصيا! أليس هذا عين التناقض؟! ما الفائدة أن يُختَطَف الأطفال ويبقون بلا دراسة في الملاجئ؟ والإحصائيات تقول أنّ 99% من الأطفال أو المراهقين المختطفين الذي يخرجون من رعاية السوسيال في سن الـ 18 لا يملكون شهادات علمية (أتحدث عن الذين قضوا سنوات من عمرهم وليس شهرا أو شهرَين). أنا أعرف أنّ كل الفتيات اللواتي كنّ بصحبة أختيَ في الملاجئ لمْ يكنَّ يملكن شهادات. فلولا متابعة الآباء وحرصهم لما درس الأبناء، فما بالك بأطفال أُختُطِفوا من الأمان ووُضِعوا في اللاأمن، كيف لهم أن يدرسوا وهم لمْ يعرفوا مصلحتهم بعدُ ولمْ يجدوا من يوجّههم بحبّ وغاب عنهم ذلك التحفيز والاهتمام؟

أختي فيروز أبعدوها لأسرة حاضنة ولمْ يخبرونا، ومن نحن في نظرهم كي يخبروننا؟ فأمّي مجرمة لا تستحق معرفة مصير ابنتيها. عرفتْ بأمر نقلها يوم اتصلوا بنا وأبلغونا أنها هربت من العائلة الحاضنة وعلينا إعلامهم إنْ أتتنا، لكنها لمْ تأتنا بل كانت تفضّل النوم في الشارع. كانت تعرف أنهم سيتتبّعونها عندنا، فأرادت الهروب منهم إلى أماكن يصعب إيجادها بها. كانت كثيرة الهروب، كانوا يجدونها كل مرة ويغيّرون لها العائلة الحاضنة حتى بلغت سن الـ 15 سنة. طلبت وقتها من القاضية أن تُوضع في ملجأ وأن لا تُسلّم لعائلة

حاضنة وقُبِل طلبها ووُضِعت في ملجأ، حاولتُ زيارتها أكثر من مرة لكنني كنتُ أُرفَض في كل مرة، كانوا يقولون لي أنّ أختك لا تريد زيارة من أيّ أحد، لا أدري إن كانوا صادقين في ذلك؛ فأنا لمْ أسأل أختي عن ذلك فيما بعدُ، والملفات قد طُويت ولا أحد يحبّ نبش الجراح. مشاعرها تُجاهنا كانت باردة بسبب فترة الانقطاع الطويلة.

أمّي المسكينة خسرتْ في تلك المدة كثيرا، خسرتْ صحتها وجزءا من بصرها، أصيبت بأمراض عصبية، بالسكري، ارتفاع ضغط الدم والكوليسترول وأمراض القلب وخسرتْ خمسين كيلوغراما من وزنها، أصبحت تعيش بكيس من الأدوية، ولا تأكل ولا تشرب إلا قليل القليل. فعلت كلّ ما تستطيعه لإخراجهما لكنها لمْ تُفلحْ. وأريد توضيح أمر مهم وهو أنّ المحامي الذي توكّله الدولة هو محامٍ مجرم يقف بصف الدولة، حتى أنه يحاول إقناع الأهالي أنّ مؤسسات السوسيال أأمن لأطفالهم منهم! لذا من الواجب أن لا يثق به الأهالي. أمي كانت قد قررت خوض حرب شرسة ضد السوسيال وذهبت لوطنها وباعت ممتلكاتها وعادت لتوكل محاميا كبيرا معروفا هنا في بروكسل، فتح الملف فقط كلّفنا مبلغا ضخما وكان ذلك المحامي يعلم أنّ القضية فاشلة قبل أن يبدأ، بدأت الإجراءات واستغرقت التحقيقات سنة كاملة، كانت كلّما أخذت له أمي ورقة أو ملفا تدفع له مبلغا كبيرا أيضا، إنه النصب بعينه. عندما جاء يوم الجلسة سُمِح لي بمرافقة أمي إلى المحكمة العليا، أتذكّر أنّ الجلسة دامت خمس دقائق فقط، قال القاضي: "لماذا أتيتم لي أصلا؟ قاضي محكمة الطفولة قضى بالحكم، ماذا سأزيد في القضية؟ أنا أؤيّد حكم قاضي الطفولة وانتهى"، لا تتصوروا كمْ كان حجم خيبة الأمل، ضاع الوقت والجهد والمال. رواق المحكمة كان طويلا ومعتما بالرغم من الإضاءة، كانت خطواتنا ثقيلة جدا، الباب كان يبتعد عنا ونحن نجرّ نحوه الخطى، كنّا مرهقتَين بعد مطاردة لسراب كان يُخيّل لنا أنه أمل.

في الماضي عانى بعض الأطفال الأوربيين من العنف في عائلاتهم، وصل الأمر حدّ الاغتصاب والقتل خاصة أولئك الأطفال غير المرغوب في إنجابهم منذ البداية لأنّ إجهاضهم كان آنذاك جريمة يعاقب عليها القانون، بسبب تلك المعاناة ناضلت بعض المنظمات الحقوقية لتحفظ حقوق هؤلاء الأطفال وتحميهم من أهاليهم فأسسوا بذلك مؤسسات رعاية الطفولة وكذلك محكمة الطفولة. وقد درّسونا في المدرسة أنّ ذلك النضال قلب الهرم فأصبح الطفل على رأس الهرم ولا يحق لوالدَيه أن يمسّانه ولو بوردة. محكمة الطفولة هي أكبر محكمة هنا في البلاد؛ يعني لو أنّ قاضي الطفولة قضى بخطف الطفل من والدَيه فلن تعارضه أيّ محكمة

أخرى، لا محكمة عليا، لا محكمة استئناف، لا محكمة الأسرة ولا حتى المنظمات الحقوقية التابعة للأمم المتحدة! فالقرار الأخير يعود له والمصيبة أنّ هذا القاضي يقضي بالأوراق التي يأتيه بها موظف السوسيال، لو قال الموظف أنّ الأب مجرم فالقاضي سيقضي بالسحب؛ فهو يؤيّد فقط إفادات الموظفين، لهذا السبب أنا أنصح الناس بعدم استئناف القضايا وأن لا يلجؤوا لمحاكم أخرى ضد منظمة الطفولة؛ لأنها أكبر منظمة محمية في أوروبا قاطبة، أنصحهم أن لا يضيعوا جهودهم وأموالهم من أجل الأوهام.

خرجت أختي أبرار من الملجأ في سن الـ17 وليس الـ18؛ وذلك لكثرة مشاكلها في الملاجئ ومع الشرطة حتى أنّ القاضية لمْ تسلمْ منها ومن لسانها. حكمت القاضية بإعطائها سن الرشد 17 سنة، وهذا وارد في قانونهم وهو فخ، كيف ذلك؟ يعني أنّ أختي لمّا كانت تفتعل المشاكل وتكسر وتضرب كانوا يرجعونها للملجأ وتوضع في غرفة انفرادية وتُغلق القضية لكن إذا فعلت تلك الأمور بعد بلوغها سنّ الرشد ستودع السجن المركزي لمدة خمس سنوات ولهذا منحها إياه قبل أوانه. أخبرتها القاضية في آخر لقائهما "هذه آخر مرة سأراك فيها، وإن ارتكبت أيّ سوء في المرة القادمة ستدخلين السجن المركزي". وبسبب ذلك الاحتيال تجد مصير أغلبية الشباب الذين بلغوا سنّ الرشد هو دخول السجن المركزي، هم يعملون على جعلهم مجرمين.

خرجت أختي من عندهم مدخّنة شرهة، تشرب الكحول، مدمنة للحشيش ومخدر الإكستا، وفي قلبها حقد كبير على والديَّ فحسب رأيها طلاقهما هو سبب كل ما عانته، تصوّروا لهفة أمي على أختي عندما سمعت أنها ستخرج ولكم أن تتخيلوا ما فعلته أختي، دخلت البيت ولمْ تسلّمْ حتى على أمي من كمّ الحقد الذي كانت تحمله تُجاهها.

بدأت معاناتنا مع أختي المدمنة بعد خروجها. كانت تطلب المال من أمي ليل نهار وإن حدث وتأخرت في إعطائها فكانت تسومها سوء العذاب. نعم أختي كانت تضرب أمي المعاقة في يدها ضربا مبرحا، لمْ يكنْ تعليم برّ الوالدين من أولويات الملجأ! كنتُ موظفة أعيل أمي وأساعدها فأتتْ أختي تريد ثمرة تعبي لإشباع إدمانها.

ذات يوم دخلت البيت وإذ بي أُفاجَأ بصراخ حادّ، وجدتُ أمي مرمية على الأرض وخصلات شعرها في يد أختي! لقد انتزعتْ شعر أمي من رأسها، كانت تصرخ بأعلى صوتها مخاطبة أمي: "هيا أُخرجي أحضري لي النقود من البنك، هيا إلى البنك، هيا".

لقد دمّر السوسيال عائلتنا كلها، دام ذلك العذاب سنتَين ولمْ تكنْ أمي تريد أن تشتكي بها، فقد قالت لي: ''هذه ابنتي وستبقى كذلك، لا أريدها أن تدخل السجن المركزي لسنوات، يكفي ما عانته في تلك الملاجئ''. ذات يوم عدتُ من العمل إلى البيت متأخّرة واستغربت من الهدوء خارج المنزل، لمْ تكنْ هناك حركة ولا أصوات ولا حتى صوت التلفاز كالمعتاد، انقبض قلبي، فتحت الباب فإذا بي أُصعق من كمّ الخراب والفوضى، كأنّ حربا اندلعت هناك ولمْ أجدْ به أحدا. اتصلت بي أمي وهي تبكي بكاء شديدا وأخبرتني أنها بالمشفى وأنّ أختي أبرار قد آذتها هذه المرة أذيّة شديدة. وصلت المستشفى ووجدتُ أمي المسكينة في حالة يُرثى لها، جسدها مليء بالضرب والدم بكل جسدها، لا أدري صراحة بماذا ضُرِبت. أختي هربت بعدما خرجت أمي من البيت لطلب النجدة. لقد رأتها إحدى الجارات واتصلت بالإسعاف. والحمد لله أنّ الطبيبة التي عالجت أمي كانت طبيبة مسلمة من بلدنا نفسه. حكت لها أمي كل القصة بينما كانت الشرطة تنتظر خارج الغرفة تقرير الطبيبة ليبلغوا عن الفاعل. تفهّمت الطبيبة وضعنا ولمْ تُصدِر شهادة طبية كي لا تُدان أختي وتسجن لسنين أخرى. أخبرت الشرطة أنّ الجروح ليست بليغة ولا تستدعي شهادة طبية. كان لطفا من الله أن سخّر لنا تلك الطبيبة التي تستّرت على فعل أختي. اتصلت الطبيبة بأختي وأبلغتها بفعل أمي وأنهما تستّرتا عليها كي لا تُودَع السجن وتضيع حياتها، نصحتُها ثم أخبرتُها أنّ سبب ما عانته لمْ يكنْ طلاق والدَينا ولكنّ سياسة السوسيال كانت السبب.

تغيّرت الأوضاع بعد تلك الحادثة وتعاطفتْ معنا الجالية العربية المسلمة التي كنّا نسكن وسطها، صادقت الفتيات أختي وحاولن مساعدتها على تخطّي ما تمرّ به. حينما اقترب شهر رمضان وطّدوا معها علاقتهنّ وأصبحتْ تُدعى إلى المسجد. تحسّنت حالتها الروحية كثيرا وعاد الإيمان يتسلل إلى قلبها شيئا فشيئا. زاد وزنها وأنار الله وجهها بعد أن كان مُسودا. خطبها شاب مسلم، تزوّجها وساعدها في العلاج من الإدمان، هداية أختي وتغيّرها كانت رحمة من الله فقط، فليس من الهَيّن أن تغيّر شخصا أبتلي لسنوات بالفقد، التعنيف، اللاأمن والبُعد عن الدين، يئسنا منها ومن أفعالها لكن الله شاء لها الهداية وندعو لها بالثبات. ظلت مُدخّنة لكنها صارحتني يوما أنها سُتقلع عن التدخين إنْ حملتْ لأنها لا تريد أن تكون أُمّا مدخّنة في المستقبل.

أمّا أختي فيروز فقد خرجتْ هي الأخرى مدمنة كحول وتدخين لكن الطامة الكبرى أنها كانت حاملا، كان الأمر الذي كسر ظهر أمي. تحمّلت أمي عنف أختي وإدمانها وعذابها لكنها لمْ تتحمّلْ حمل أختي، لقد

دخلت المستشفى لمدة ثلاثة أسابيع بسبب الخبر. كانت تستيقظ صباحا ونسبة السكر في دمها مرتفعة جدا، حتى ضغطُها كان مرتفعا، حرفيا لقد عادت أمي لنا من الموت. حمدنا الله أنّ أختي كانت تعرف والد الجنين فقد اعترفت لنا بذنبها وأبلغتنا أنها كانت معه في علاقة محرمة، كان مسلما عربيا. قد يستغرب بعضهم لماذا حمدت الله، لأنّ أغلب الفتيات بالملاجئ لا يعرفن من هو الوالد الحقيقي لجنينهن. أختي لمْ تكن الوحيدة التي حملتْ بالملجأ، بل كان الأمر معتادا وأنا هنا لا أهوّن من عِظَمِ الذنب وكبيرة من الكبائر بل أوضّح ما هو مخفي. فلو كان الأب مجهولا لكان الأمر أسوأ بكثير. لقد أخبرتني أختي أبرار أنّ يوم السبت كانوا يأتونها وهي في غرفتها الانفرادية، يعطونها مالا ويقولون لها: ''هيا أبرار اُخرجي، اليوم يوم سبت ... اُخرجي، اِسهري، تسلّي، اِرتاحي وعودي لنا بخير، لا تعودي بالصراخ والتخريب''. كانوا يرمونهم للفسق والمجون في الملاهي والسهرات المحرمة ويمنعوننا نحن العائلات من زيارتهن أو يضيقون علينا، منعوا أمي المسكينة من رؤيتهن لسنوات وكنتُ أنا أطلب إذن الزيارة قبل أسبوعين ولا تدوم الزيارة لأكثر من 45 دقيقة فقط. كانوا يسمحون لهنّ بالعودة حتى يوم الأحد والحمد لله أنه نجّى أختي أبرار من تلك الذنوب ومن البيئة العفنة. قالت لي أنّ الفتيات كنّ يجلبن الرجال الذين تعرّفن عليهم تلك الليلة إلى الملجأ، تقول الواحدة منهن للإدارة ''لقد التقيت به في الملهى، هل باستطاعته أن ينام معي الليلة؟''، فيردون عليها: ''أكيد، هذا من حقك، نحن لا نستطيع منعكن من الأكل ومن الشرب، وبالتالي لا نستطيع منعكن أيضا من الجنس، هذا حقكن''. تخيّلنَ أنّ هذا معتاد، تأتي به وتمارس معه الزنا ثم تحمل منه سفاحا والمصيبة أنّ أغلب الفتيات الحوامل لا يعرفنَ من الآباء الحقيقيين لأطفالهن، فسبت يأتين بشخص والسبت الآخر يأتينَ بشخص آخر وهكذا تمر أيام العمر.

يتساءل أحدكم ما مصير ذلك الحمل وهنّ في سن الـ 15 والـ 16، تتم الولادة ويكون مصير الجنين كمصير أمه؛ أيْ أنّه يُخطَف. نعم، هذا هو مصير أولاد الأطفال وهم تحت رعاية السوسيال. تتدمر نفسية الفتيات بعد ولادتهن، ويتوغلن أكثر في عالم الإدمان بعد أن حُرموا الأمومة وأمان العائلة، وجدنَ في الهيروين والكوكايين ملاذهن الأخير. ولو أنّ عائلة زوجت ابنتها في السن نفسه لأقاموا الدنيا وأقعدوها ولكن أن يحمل الفتيات عندهنّ سفاحا فهذا أمر عادي ومن الجنون أصلا أن يتناول الموضوع بطريقة الاستهجان!! بعد الإدمان يهربن من الملاجئ من أجل المخدرات وتجدهنّ يبعنَ أنفسهنّ من أجل القليل، هكذا هي نهاية أطفالنا عند السوسيال.

الحمد لله أن أنقذني من السوسيال وأن منَّ عليّ بالاتصال الدائم بأختي أبرار؛ فقد كنت دائما أنصحها وأحذرها. أنا أحكي قصة أختيَ ليس للمتعة ولكن للتحذير، فأغلب الأُسر هنا تتجنب الحديث عن هذه المواضيع خجلا من مصير أبنائهم وهذا خطأ كبير، يخجلون أن يصرّحوا بأنّ ابنهم أو ابنتهم قد تعرّضوا للاغتصاب، أو أدمنوا أو أنّ الابنة حملت سفاحا، يخاف الأهالي من نظرات المجتمع المسلم ولكن عليهم أن يعلموا أنّ الجميع ضحايا لهذه المؤسسة المجرمة. علينا إعلام الناس بما يحدث لأبنائنا بالغرب كي لا يأتوا بأبنائهم ويذوقوا ما ذاقه من قبلهم. أنا أتحدّث عن العائلات المنصفة التي تخاف الله، التي جعلت الدين همها الأول والآخر وليست العائلات التي تدافع عن الغرب دفاعا مستميتا يخيّل للسامع أنهم غربيون أبا عن جد. يحتقرون أبناء جلدتهم ويقولون عنهم أنهم يؤمنون بنظريات المؤامرة!

لقد زرت الملاجئ الخمسة في بروكسل ولمْ أجدْ فيها سوى أبناء المسلمين أو الأفارقة السود، أمّا أطفال السويديين المتواجدين هناك فهم إمّا مُتخلّى عنهم من قبل أسرهم أو أبناء المدمنين على المخدرات أو المجانين، لمْ أجدْ طفلا يهوديا في الملاجئ الخمس. نحن المسلمون مستهدفون، هذه هي الحقيقة شاء من شاء وأبى من أبى، فمن بين الأسباب الذين يبررون بها الاختطاف هو التشدد الديني، فحسب رأيهم تنتهك بذلك حرية الطفل وتُقيّد، وتعريفي للمسلم المندمج في الغرب هو أن لا تكون مسلما. حتى أنّ أحد الوزراء الفرنسيين قال: ''يجب على المسلمين أن يكون انتماؤهم الوحيد هو فرنسا''.

تتركز أكبر جالية يهودية في بلجيكا في مدينة أنتويب وتعدّ مركزا رئيسا ليهود الحريديم في أوروبا، اليهود الأرثوذكس المتشدّدون، ليس لهم هواتف ولا تلفزيونات، لا ألعاب فيديو ولا دُمى، لباس رجالهم ونسائهم طويل، ترى طفلا بعمر الثلاث سنوات يلبس لباسا دينيا وضفائره تتدلى على وجهه، يرتاد أولادهم المدارس اليهودية ولا تُدرَّس فيها إلا الديانة اليهودية، منعزلون تماما عن الثقافة الغربية ولا أحد يتهمهم بالتشدّد الديني ولا يقترب السوسيال منهم ولا يتجرّأ موظفوه على اختطاف أطفالهم بحجة التشدّد الديني. التحدّث عنهم فقط جريمة تدعى معاداة السامية.

يقولون أنتم تؤمنون بنظرية المؤامرة وهل أولادكم ذهب أو ألماس ليُسرقوا؟ أردّ عليهم فأذكر مثالا وهم أطفال الغجر، أصولهم من أوروبا الشرقية كرومانيا وبولندا وبلغاريا لا يرتادون المدارس، يتسوّلون مع أهاليهم في الطرقات، وليلا يذهبون إلى الشوارع الكبيرة ويفترشون الأرض وينامون. أطفال صغار يعانون كل

هذه المعاناة ولا يلتفت السوسيال لهم ولا يذهب بهم إلى دور الرعاية، لماذا؟ لأنّ مؤسسات السوسيال لا تحتاج إلى هؤلاء الأطفال؛ فهم أصلا صليبيون أوروبيون. هم يستهدفوننا نحن المسلمين.

لنعدْ إلى وظيفة موظف السوسيال أو الفاعل الجمعوي (المساعد الاجتماعي)، حينما كنتُ أرى معاناة أمي معهم وإهانتهم لها وظلمهم إياها قررت أن أدرس في الجامعة وأتخرج كمساعدة اجتماعية وأشتغل في رعاية الأطفال وأساعد الأسر المظلومة كأسرتنا، درست سنتَين واكتشفت المصيبة الكبرى، إنهم عصابة إجرامية، حتى حينما يأتي على مسامعك مساعد اجتماعي تربطه بالمساعدة والمجتمع، لكن الهدف من وظيفته هو أخذ الطفل وليس إرجاعه؛ لذا أحذّر كل شخص من هذا المنبر: ''إياك والثقة بالمساعد الاجتماعي''، فلولا الرعاية الاجتماعية لما توظّف المساعد الاجتماعي، فمثلا إذا تكفّل الموظف بقضية طفل وكتب في تقريره أنّ الوالدَين مؤهّلان للتربية وأمور الطفل جيدة فإنّ القاضي سيقضي بناء على أقوال الموظف بإعادة الطفل إلى أسرته وسيُغلق الملف وينتهي الأمر ولن ينشغل الموظف بأيّ أمر بعد ذلك! لكنه إذا اتهم الوالدان بعدم الأهلية وأنّ الطفل مُهمل، مُعنّف وحقوقه مهضومة فإنّ الموظف سينشغل بمراقبة الآباء ثم خطف الأبناء ومتابعة الملفات وسيبقى العمل مستمرا لسنوات والراتب ينزل بداية كل شهر في حسابه وسيستفيد من العائلة الكافلة إن كان متواطئا معها وهكذا تستمر الأرباح ..... إنها تجارة.

أتطرّق الآن إلى الفتيات اللواتي يذهبنَ طوعا إلى الملاجئ، يشتكين بأسرهنّ ويذهبنَ ليعشنَ الحرية المفقودة بحسب رأيهن، إنهنّ يفعلنَ ذلك بعد تحريضهنّ وليس لأنّهن أردنَ. فمثلا هنا في مدارس بلجيكا، في الأطوار الثلاثة هناك نظام يُدعى (PMS) وهو نظام يوفّر خدمات التوجيه التربوي والمهني والدعم النفسي للطلاب والأولياء، مثل: الإشراف التربوي بمدارسنا العربية، يوجّهون المتمدرسين لاختيار تخصصه حسب ميوله وتوجّهه ويساعدونهم إذا كانوا يعانون من مشاكل نفسية. لكن القضية التي ينصبّ عليها اهتمام هذه المراكز هي الوالدَين، منذ الحضانة وحتى الثانوي، يحرّضونك على والدَيك ليل نهار، ''ليس لهم الحق في مسكك بعنف! ليس لهم الحق في الصراخ عليك، ليس لهم الحق في ضربك أو تأديبك''، أذكر أنّ أول حصة لي في المدرسة الإعدادية أتى إلينا منتسبو PMS وأخبرونا: ''نحن بلد الديمقراطية نقدّس الطفل ونحميه، من يعيش في عذاب في أسرته فليخبرنا وسنساعده، ليس للآباء إجباركم على فعل أيّ شيء، سعادتكم أولويتنا، وهذا الاهتمام لن تجدونه إلا في الدول الأوروبية، نحن نحمي كل حقوقكم ولن يستطيع أحد أيّا كان سلبكم إياها ....''. تخيّل، تحريض مباشر على الآباء والعمل على تضخيم الأنا عند الأطفال، كل هذا يحدث وأغلب

الآباء في غفلة عنه. فلو سمع الطفل كل هذا وغضب من أبيه يوما ما؛ لمنعه شيئا ما لمصلحته -وغالبا ما يحدث هذا- فسيشتكي على والده في أقرب فرصة وهناك يبدأ السوسيال عمله. وهذا الأمر أيضا يعلّم الأطفال عقوق آبائهم؛ فقد مُنحوا السلطة عليهم وانقلبت الموازين، فليس لك الحقّ أن تؤدّب أو ترفع صوتك حتى؛ لأنهم يخافون على نفسية الأطفال أكثر من تربيتهم وحسن سلوكهم، وبسبب خوف الآباء من ظلم السوسيال؛ فإنه لا يتجرّأ على قول اه لابنه فتجد بعض الأبناء يتطاولون ويهينون آباءهم ويصل الأمر إلى درجة الضرب ويصبح الابن يهدّد أباه بورقة السوسيال ويلوي ذراعه بها. فعندما يكون طفلا يُمنَع عليك تربيته بأسلوبك وحينما يكبر ويصبح مراهقا عاقّا شقيا يُسلب منك؛ لأنك لمْ تُحسن تربيته !! ومن يسأل عن حقوق الأسرة فأقول أنّ أوروبا لا تشجّع على تأسيس الأسرة من الأساس. حتى أنهم عندما يجدون أسرة مكوّنة من زوج وزوجة وأطفال فإنهم يطلقون عليهم الأسرة التقليدية، أمر تقليدي ! أمر قديم!

لقد تشوّهت الفطرة، أصبحت النساء لا يُفكّرن في الزواج ولا في الإنجاب، همّها الوحيد استقلالها المالي وصرف مالها على جمالها وسفرها وحيوانها الأليف. يرين أنّ الجنس حقّهن المشروع لكنهن لا يمارسنه في إطار الزواج ولكن في علاقات متعددة مع رجال مختلفين، ولا ترضى نسبة منهنّ أن يتحمّلن الحمل الناتج عن تلك العلاقات فيلجأنَ إلى عمليات التعقيم وهو إجراء جراحي دائم لمنع الحمل، وبالتالي أصبح الجنس عندهنّ هدفا لا وسيلة يصلنَ به إلى الأمومة. ارتفعت نسبة الشذوذ بطريقة مخيفة والمصيبة أنه حينما تنتكس فطرتهم يريدون أطفالا! فتجد في أمريكا أنهم يسمحون للرجال بأن يحصلوا على أطفال دون زواج، فيشتري البويضات من أيّ امرأة تعرض بويضاتها للبيع ويستأجر رحم امرأة أخرى لمدة تسعة أشهر وعند الولادة يأخذ الطفل وتكون العملية قد انتهت، وللعلم فإنّ الإجراءات تستلزم مبالغ ضخمة. لمْ يطبّق هذا الأمر في أوروبا؛ لأنهم لمْ يصادقوا بعدُ على القانون الذي يبيحه.

لا أنصح مسلما بالسفر إلى الغرب ولمن يقول: وجّهي النصيحة لنفسك أولا، أقول له: سأغادر هذه البلاد في أول فرصة متاحة ولن أمارس أمومتي -إن شاء الله- في الغرب.

انتقام مبرمج

بدأت القصة حينما قررتُ وزوجتي أن نتابع حملها في أحد المستشفيات هنا في كندا بمقاطعة فرنسية، تلقينا مشاكل فيما يخص لغة التواصل، فزوجتي تتحدث اللغة الإنجليزية وسكان هذه المقاطعة متعصبون للغة الفرنسية ويصرون على التحدّث بها ولو كانوا يتقنون اللغة الإنجليزية. قررت أن أكون المترجم لزوجتي وقد عملت سابقا مترجما في ذلك المشفى كوني أتقن اللغتين الفرنسية والإنجليزية ومهندس كيمياء حيوية (بيوكيمياء).

لقاؤنا الأول مع الطبيبة كان سيئا فأسئلتها كانت اجتماعية وشخصية أكثر منها طبية، سألتني عن علاقتي بزوجتي، والكثير عن زواجي السابق وحدّثتها بحسن نية عن حرماني من لقاء أبنائي بسبب اتهام طليقتي الكندية لي بأنني عنّفت أحد أبنائي وأنّ الأمر قد أحيل إلى المحكمة. من أجوبتي أخذت عني فكرة بأنني أب سيء يُعنّف أبناءه وبدأت تتوسع بأسئلتها في حياتي الخاصة فأغلقتُ عنها مجال الأسئلة بسؤالي: ''هل هذا اللقاء موعد للاطمئنان على الجنين أم تحقيق معي؟''. طبعا لمْ يعجبْها ذلك السؤال واستمرت المشاكل معها في كل اللقاءات. حينما استحال التفاهم معها قررت أن أغيّر إلى طبيبة أخرى خاصة أنها لمّحت لي أنني سأواجه مشاكلا عند مجيء ابني إلى الدنيا.

غيّرنا الطبيبة وقد كانت طبيبة في المستوى وذات خبرة أكبر، همّها في عملها الجنين وأمّه فقط. لمْ تتقبل الطبيبة القديمة تغييرنا لها ولمْ تستسغ القرار. لمْ تمرْ فترة طويلة حتى طلبت مقابلة زوجتي بدل طبيبتها الجديدة، حينما سألت السكرتيرة عن سبب تغيير الطبيبة زعمت أنّ الطبيبة الجديدة قد استقبلت حالة طارئة لتقوم لها بعملية قيصرية. لمّا دخلت زوجتي عند الطبيبة القديمة عاتبتْها على تغييرنا إياها وأنها كانتْ تبلي معها بلاء جيدا، كل ذلك كان خوفا من مساءلات المشفى بعد ذلك؛ فالطبيب مطالب بشرح دوافع المريض لتغييره. قالت لها في آخر عتابها: ''يوم ولادتك ستأتي منظمة حماية الطفل (DPG) وستأخذ طفلك''، خرجتْ زوجتي مكفهرّة الوجه من عندها، سألتُها السبب فقالتْ لي:

_ خبر سيء، سأخبركَ عند وصولنا المنزل.

ظننتُ أنّ الأمر يتعلق بصحتها أو صحة الجنين لكنها نفت وأخبرتني الخبر، فقلتُ لها:

_ لا تأخذي كلامها على محمل الجدّ، بأيّ صفة يأخذون الطفل؟ ردة فعل انتقامية؟ المنظمة تأخذ الأطفال بناء على ذرائع قوية وليس لأسباب تافهة.

_ أخبرتني أنّ السبب هو عدم التعاون معها جيدا.

_ لا تعيري ما قالته انتباها. إنها تتكلم من أجل الكلام فقط.

هل انتهت القصة هناك؟ لا . حتى بعض الممرضات لمْ يعدْنَ يبدين أيّ تعاون معنا، كنّ يمتنعنَ عن التحدّث بالإنجليزية مع زوجتي ويتمسكن باللغة الفرنسية. كنّ يمنعنني من الدخول معها للغرفة للترجمة بحجة الكوفيد آنذاك، حينما احتججتُ وأخبرتهنّ أنني تلقيت اللقاح، ألبس كمامتي ويبعدني عنهنّ مسافة أكثر من مترين، رفضنَ بحجة الإجراءات. وأصبح كل موعد في ذلك المشفى لا يخلو من المناوشات. بعد تلك المواقف بدأت سلوكياتهم العنصرية تظهر معنا خاصة أنّ زوجتي كانتْ متمسكة بحجابها وظهر لنا أنهنّ كنّ يكرهنَ كلّ ما هو إسلامي وعربي، حينما بلغ السيل الزبى قرّرتُ الشكوى عند مسؤولة مصلحة الولادة، كانت طبيبة متفهّمة واستغربتْ من تعامل الممرضات معنا وأخبرتنا أنّه من حقها أن يُترجم لها وقررتْ أن تُجدوِل مواعيدنا في آخر اليوم كي لا يحتجّ المرضى الآخرون إنْ أنا دخلت مع زوجتي وهم قد مُنعوا ذلك وذلك لحالتنا الاستثنائية. بعد شكوايَ تغيّرت معاملة الممرضات كليا معنا وأصبحنَ يبتسمنَ ويعاملنَ زوجتي بلطف.

قاربتْ رحلة الحمل على الانتهاء وجدولت الطبيبة لنا يوم الولادة، خضعتْ زوجتي للتحريض الصناعي وتمتْ الولادة طبيعية ولله الحمد، وضع ابني على صدر أمه بعد إخراجه من رحمها مباشرة وطُلِب مني قطع الحبل السري -من العادة عندهم أن يقطع الأب الحبل السري- فامتنعتُ وطلبت منهن أن يفعلن ذلك خوف أن أخطئ في قطعه أو ما شابه. قطعنَه وأكملنَ عملهنّ. تركنَه في حضنها لمدة من الزمن ثم طلبت منها إحداهن أن تحاول إرضاعه. أرضعته ونام في حضنها، حملتُه أنا عنها لينام عندي وترتاح هي قليلا.

في الساعات الأولى واجهت زوجتي صعوبة في إرضاعه، فاضطرت إلى شطف الحليب بجهاز خاص وإعطاءه الحليب بالحقن، كان يشبع ثم ينام مباشرة. حينما أبلغت الطبيبة عن صعوبة الإرضاع طمأنتني أنّ الأمر عادي؛ فالرضيع يحاول التأقلم مع وضعه الجديد في الأيام الأولى. بعد اليوم الأول -بفضل الله- تجاوزنا مشكلة الرضاعة وأصبح يرضع بشكل عادي. كان يرضع كل ساعة تقريبا ولمْ تكنْ زوجتي المسكينة تنام ليلا بينما تتركني أرتاح قليلا وأنام.

أجروا فحوصاتهم الروتينية وأخذوا منه الكثير من الدم وهو لا يتجاوز الثلاث كيلوغرامات وعبرت عن عدم ارتياحي لذلك أمامهم. أخبرونا بعد خروج النتائج أنه يعاني من يرقان الرضع وعليهم وضعه في الحضانة وإخضاعه للعلاج الضوئي. بعد عودتي من المنزل لجلب بعض الحاجات وجدت زوجتي تبكي لأن الممرضة أمرتها أن ترضع طفلها مرة كل ثلاث ساعات فقط، حينما سألتها زوجتي: ''وإن بكى الطفل؟''، ردت عليها بفظاظة: ''سيبكي ربع ساعة وسيسكت لوحده، فقط أتركيه في الحاضنة''. حينما زارتنا طبيبة الأطفال أخبرتها عن الحادثة وقلتُ لها أنا في غنى عن خدمات هذه الممرضة؛ لذا لا أريدها أن تدخل علينا غرفتنا. وصلتْ شكواي إلى الممرضة وأتتنا صديقتها بعد ذلك لتنزع عيّنة دم من ابني، طلبتْ مني أخذ الطفل إلى غرفة الحاضنات، فقلتُ لها: ''انزعي العيّنة في الغرفة كالمعتاد، لماذا تأخذينه؟''، تحجّجت بالإجراءات فقلتُ لها أنني سآتي معها، حملتُ الطفل وبينما أنا أرتّب هندامي لألحقها اختفت مع الطفل في الرواق، ذهلت من الخفة التي طارت بها. سألت عن غرفة الحاضنات واتجهت نحوها فإذا بي أجد حارسي أمن عند باب الغرفة وأخبراني أنه من الممنوع الدخول، أخبرتهم أنّ ابني بالداخل وهو يتألّم ويبكي عند نزع الدم منه وعليّ أن أكون معه. لمْ يستجيبا لطلبي كأب وحينما أردت الدخول عنوة دفعني أحدهم بقوة وطالبني بالاستجابة للتعاليم. وفي تلك الأثناء أتتْ سيّدتين باتجاهي، كانتا مساعدتَين اجتماعيتَين من منظمة حقوق الطفل، طلبتا إجراء لقاء معهما. فاعتذرت منهما لدقائق كي أدخل وأطمئن على ابني، التفتتُ لرجل الأمن مجددا كي أحاول معه ليسمح لي برؤية ابني لكنه صدمني حينما قال لي: ''لن تراه حتى تجري اللقاء مع الموظفتَين''. كانت لحظة إدراك، لقد كان تآمرا، لحظتها فقط أحسست أنّ كل شيء كان منظما ومخططا له. كان أمرا دُبِّر بليل وبكل خبث.

عدتُ مع الموظفتين إلى الغرفة حيث تنتظرني زوجتي لأعود لها بابنها، لكنني عدتُ لها بالخيبة فقط. جلست على أقرب مقعد، تذكرتُ حينها كلام الطبيبة لزوجتي: ''ستأخذ منظمة الطفل ابنك بعد الولادة''، تيّقنت أنها لمْ تكنْ مزحة ثقيلة أو تهديدا عابرا بل كان أمرا جادا ونفّذت ما هددت به. قالت لي إحدى المساعدتَين:

_ نرجو منكما التعاون في الإجابة عن أسئلتنا.

_ بالتأكيد سنتعاون ... رددت عليها بكل ثبات وبداخلي قلب أب يرتجف.

_ لقد بلغتنا تقارير بأنكما لمْ تتعاونا مع الممرضات بهذا المستشفى، وأنكما رفضتما أخذ عيّنات الدم من الطفل، الأم حملت ابنها الرضيع بطريقة غير آمنة ورجّته.

اندهشت من كلامها:

_ أنا لمْ أرفضْ أخذ عيّنات الدم، لقد قلتُ لها أنّ الدم المنزوع كثير جدا مقارنة بحجمه الضئيل، أمّا زوجتي فقد كنت معها ولمْ أرها قط رجّته أو حملته بطريقة غير آمنة، أنا أصلا من كان يعطيه لها؛ لأنها كانت تتألم ولا تستطيع الوقوف. هذه تهم باطلة وملفّقة.

_ وصعوبة التعامل، كيف تبررها؟

_ صعوبة التعامل يتحمّلها الطاقم الطبي؛ فالفرنسية والإنجليزية لغتَان رسميتَان في كندا، وبالتالي وجب عليهم أن يجيدوا كِلتا اللغتَين.

_ لقد سمعتْ إحدى الممرضات أثناء مرورها في الرواق زوجتك وهي تقول لابنك: ''إنْ لمْ تنمْ فسأقتلك''.

_ تقتله؟ هل هناك دليل على ذلك؟ فيديو أو تسجيل؟ أنتم تعلمون أنّ هذا المستشفى حديث البناء وقد بني بأحدث التقنيات ليوفر أعلى درجات الراحة للمرضى، فكيف تسمعها وجدران الغرف تعزل الصوت. ولنفرض أنها سمعتها، فبأيّ لغة كانت تتحدّث زوجتي مع ابنها؟ الفرنسية؟ زوجتي لا تجيدها مطلقا. الإنجليزية؟ إنجليزيتها بسيطة وهي لا تتحدّثها إلا للضرورة.... فهل فهمت الممرضة الفرنسية اللغة العربية التي تحدّثت بها زوجتي مع ابنها؟

_ لقد سمعتها.

_ وكيف لكم أن تثقوا بكلامهم؟

_ نحن نثق بكلامهم. لأنّ الطبيبة عضوة في نقابة الأطباء والممرضات عضوات في نقابة الممرضين. إنّهن محلَّفات. وقد درسن أخلاقيات المهنة، ليس بمقدورهنّ الكذب.

_ ليس كل من درس أخلاقيات المهنة فهو متخلّق بها.

_ نحن أتينا لنبلغكما القرار بناء على البلاغات ضدّكما من قبل الطبيبة والممرضات أثناء فترة الحمل، وإن رفضت القرار فلك الحق في توكيل محامٍ.

_ ما هو هذا القرار؟

_ عليكما مغادرة المستشفى حالا وسنُبقِي الطفل في المستشفى ليكمل علاجه وهو تحت حمايتنا.

_ كيف ذلك؟

_ سنسحب منكما الطفل.

_ لكن الطفل لا يرضع إلا حليب أمه، أبقوها معه لظرف إنساني فقط.

_ القرار أُصْدِرَ وليس لدي وقت لأجادلك؛ فلديَ قضايا أخرى.

_ لن أخرج من المستشفى دون ابني الرضيع.

_ إنْ لمْ تخرجْ فسنبلغ الشرطة.

_ لن أخرج.

_ هل لديك عائلة هنا.

_ لا، عائلتي كلها بوطني الأمّ.

_ هل لديك أصدقاء هنا؟

_ لماذا؟

_ كي نقترح عليه أن يكون الحاضن لهذا الطفل.

_ نعم، لدي.

_ أعطنا رقم هاتفه لو سمحت.

أعطيتهم رقم الهاتف وأنا أعلم أنها مجرد وعود كاذبة لتلطيف الجو، فخطفهم للأطفال يأتي لتنشئتهم تنشئة بعيدة عن هُويّتهم ودينهم ومعتقداتهم، فما الفائدة إذا خُطف من عائلة مسلمة لتربّيه عائلة مسلمة أخرى؟ ثم قالت لي:

_ هل ستخرج أم سنتصل بالشرطة؟

_ لن أخرج فلتتصِلوا بالشرطة.

اتصَلوا بالشرطة وحضرت على الفور، سُحِبْتُ بالقوة وحينما اقتربَ من زوجتي صرختُ في وجهه:

_ لا تلمسها، لا يحقّ لك لمسها.

فابتعد عنها.

حملت هاتفي وبدأت أصوّر معاملة الشرطة لنا لكنه أخذه مني وحذف الفيديو القصير الذي صوّرته وأخبرني عون الأمن أنّ التصوير ممنوع بالمستشفى، فسألته:

_ هل هناك قانون يمنع ذلك.

_ سأبعث لك بقوانين المشفى في إيميلك الخاص.

أغمي على زوجتي من هول الصدمة وأصيبت بانهيار عصبي، فآخر أمر كانت تتصوره أن يُختطَف منها ابنها بعد حمل شاق وولادة صعبة. نضحت ماء على وجهها كي تستفيق، بعد إفاقتها بدأت تنزف. طلبتُ من تلك الممرضة أن تنادي على الطبيبة، فقالتْ لي:

_ إنها مشغولة الآن.

_ اِذهبي إليها، من أخبرك الآن أنها مشغولة.

تظاهرت أنها ذاهبة إليها، بعد دقائق عادت لتؤكّد لنا أنّ الطبيبة مشغولة وأنها كانت صادقة فيما قالت لكنها كانت كاذبة.

اِلتفتُ إلى الشرطي، وسألتُه:

_ هل هذا عمل إنساني؟ أن يُسحب الطفل من أمه وأمه تنزف بالمستشفى ولا ردة فعل من قبل الطاقم؟ هل هذه هي الدول المتطورة؟ هل هذه هي الأخلاقيات العالية؟

_ عليها أن تتجه إلى قسم الطوارئ.

_ وهل حالتها تحتمل أن تنتظر الساعات ليسمح لها بمقابلة الطبيبة؟

ولمن لا يعلم، ففي كندا وأمريكا الشمالية بصفة عامة هناك مشكلة كبيرة في قطاع الصحة ربما يجهلها بعضهم أو الأغلب، في قسم الاستعجالات عليك أن تنتظر الساعات الطوال حتى يحين دورك، أمّا المواعيد الطبية فقد تجدول بعد سنة أو سنتين.

جمعت الشرطة أغراضنا من أنحاء الغرفة ووضعتها أمام باب الغرفة وأتوا لها بكرسي متحرك، أخبرنا الشرطي أنهم لن يغادروا إلا بعد مغادرتنا، خرجنا دون رضيعنا بعد أن تجرعنا كؤوس الظلم والهوان... اتجهنا مباشرة إلى محامية نعرفها وحكيتُ لها كل شيء وأحالتنا لمحامية متخصّصة في قضايا اختطاف الأطفال من قبل منظمة حماية الطفل، حكينا لها كل شيء أيضا ووعدتنا أنها ستعمل على إعادة الطفل أو حتى إعادته إلى أمّه مع إبقائهما تحت المراقبة في مكان مخصّص! مرّت الأيام ومُنِحَ ابني إلى عائلة أخرى وتركونا نحترق.

لكننا ما زلنا ننتظر على أمل إعادة ابننا لنا ...

إنقاذ ابنتي من الحياة !

بدأتْ قصتي حينما تلقيت اتصالا من البارنافان (هيئة حماية الطفل النرويجية) بعدما قدّمتُ طلبا ليلتحق ابني بالمدرسة وهو دون سن السادسة، طلبوا في الاتصال مراقبة سلوك ابننا لمدة ثلاثة أيام وقبلنا. أتوا إلى المنزل واستقبلناهم أحسن استقبال، وجدوا البيت نظيفا ومرتّبا به كل الأجهزة التي توفر الراحة، وجدوا غرف أولادنا مؤثّثة بالكامل.

طبخنا مع أولادنا وتباهوا أمامهم بمهاراتهم في الطبخ، صرّحت لنا الموظفة أنها تحبّ أكلنا الفلسطيني فطبخنا لها بكل حبّ. أمضينا يوما رائعا، واندهشت حينما علمتْ أنّ أبنائي ملتزمون بالنوم باكرا. أُعجِبَت بسلوكهم، بحياتنا البسيطة الهادئة وجوّنا العائلي الدافئ، ربما استغربت من ذلك فكانت قد أتتنا بأفكار مغايرة عنّا خاصة أنها سألت زوجتي في بداية اللقاء إن كانت تفكّر بالانفصال عني. بعد انتهاء الثلاثة أيام أخبرتنا أنهم سيسألون عنا الشرطة أيضا. بعثوا لنا بعد مدة تقريرا يفيد بأننا عائلة تحرص على تعليم أولادها وتربيتهم تربية صحيحة، ذكروا أننا لا نعاني من أيّ مشاكل وأُغلِق الملف. في العطلة التي تلت تلك الواقعة سافرنا إلى الضفة الغربية أين قادنا الحنين الشديد لها، أمضينا وقتا رائعا فيها وبقيت لنا منها ذكريات جميلة. بعد عودتنا من وطننا المسلوب بشهرين، أُختُطِف أولادي الثلاثة من المدرسة وأبلغونا بالهاتف أنه قد تُحُفِّظَ عليهم بسبب العنف الأسري! أعطتنا أرقام ثلاثة محاميين ببلدتنا. توجّهنا لهم وسألتُ الموظفة بانكسار أب:

_ ماذا نفعل الآن؟

_ هكذا انتهى الأمر.

_ ما رأيكِ أن نتعاون؟ أن نعرف سبب السحب؟

_ لا، بيننا وبينكم المحاكم.

أغمي على زوجتي من هول الصدمة فاتصلت الموظفة بالإسعاف ونُقِلَتْ إلى مصحة الأمراض العقلية! زوجتي لمْ تكنْ مريضة نفسية كي تُنقَل مباشرة إلى مصحة الأمراض العقلية، لقد صُدِمتْ صدمة عمرها بخطف أطفالها الثلاثة من حضنها مرة واحدة وعُدّتْ مختلة في أول فرصة. كانت تعمل مساعدة معلمة بمدرسة وتتقن اللغة النرويجية، عرفنا ما يجري حولنا في ذلك المشفى، تركناهم ينهون إجراءاتهم وخرجنا من المصحة مباشرة. انقلبت حياتنا رأسا على عقب، اختفى أطفالنا، حركتهم، أصواتهم، حديثهم، ضحكهم،

مزاحهم، آثارهم.... أضحى بيتنا قبرا فارغا. سُمِح لنا قبل المحاكمات أن نراهم مرة كل أسبوع. ما أقساه من حرمان... ما أقساه من ظلم... ما أقساه من وجع.

ابتدأ القاضي المحاكمة الأولى بسؤال مباشر للموظفة:

_ ما سبب سحب أطفال هذه العائلة؟

_ لأنهم أفصحوا في المدرسة عن العنف الذي يتعرّضون له داخل منزلهم.

صدّقهم القاضي دون أيّ دليل، دافع المحامي عنّا لكن القاضي أنهى المحاكمة بقرار التحفّظ على الأطفال.

أصبحنا بعد المحاكمات نرى أولادنا مرّتَين في السنة فقط. ذات لقاء سألتني ابنتي ندى ابنة الحادية عشر سنة: لماذا يا أبي لا تأخذني معك؟ لماذا تتركني هنا لوحدي؟ اعتصر قلبي قهرا ولمْ أستطعْ إجابتها خوف أن يحرموني من رؤيتها إن أنا أخبرتها الحقيقة. ربما بعد مغادرتي احتجت عندهم لمنعها من مرافقتي وحُرِمت من رؤيتها سنتَين كاملتَين. عُقِدَت محاكمة أخرى بعد سنتَين وقضى القاضي بحرماني من رؤيتها دائما، ثم حُرِمت من رؤية ابني الصغير وبقيت أرى ابني الأوسط فقط مرّتَين في السنة.

لمْ يكتفوا بذلك بل رفعوا علينا قضية عند الشرطة اتهمونا فيها بالعنف الأسري، حُكِمَ علينا بالسجن لأشهر أنا وزوجتي وحينما استأنفنا شدّدوا في الحكم علينا وضاعفوا لنا في مدة السجن.

بعد عامين من خطف أطفالي اتصلت بنا محامية نرويجية لا نعرفها قبل ذلك وطلبت لقاءنا في فندق فقبلت أنا وزوجتي مباشرة، حينما التقينا أخبرتنا أنها تعلم أننا مظلومان، وأنّها تريد مساعدتنا في استرجاع أولادنا، أعطتنا تسجيلا لأولادنا يفيد بأنهم أنكروا في المدرسة تعرّضهم للعنف، أعطتنا الدليل واختفت من حينها، راسلتها عدّة مرات لكنها لمْ تكنْ تجيب. بعثتُ بالتسجيلات لعدّة أفراد من عائلتنا في مختلف الدول ليكون دليلا دامغا في المستقبل على ظلم السوسيال. حدّثتُ المحامي عن التسجيل الذي فنّد فيه أولادي تعرّضهم للضرب، ردّ علي: "لقد اعترفوا بعد التسجيل" . يعني بالرغم من إنكار أولادي تعرّضهم للعنف إلا أنهم خطفوهم ولا أدري بعد ذلك ماذا فعلوا بهم أو أيّ ضغط تعرّضوا له. عرضت التسجيل على القاضية فاستغربت بعدم وجود هذا التسجيل في القضية، سألت ضابطة الشرطة إنْ كانت على علم بهذا التسجيل، فنفت ثم ساد جو من الارتباك وقالت القاضية: من الأفضل أن نفصل القضيتين؛ تقصد قضية

اختطاف الأطفال وقضية اتهامي بالتعنيف الأسري وانتهت المحاكمات، خسرنا حقوقنا ولمْ يعدْ أولادي وضاع كل شيء.

سُجنتُ لمدة سنتين وسُجنتْ زوجتي لمدة خمسة عشر شهرا. عندما خرجنا من السجن غيّرنا تلك المدينة مباشرة. بعد عشرة أشهر من خروجنا رأيت ابنتي بعد سنوات من الغياب، كبرتْ فيها وتغيّرتْ ملامحها. لقد كنّا مشتاقين لها ولأخوتها كثيرا. دام لقاؤنا ساعتَين فقط لكن سعادتنا كانت لا توصف، طبخنا بعضنا مع بعض وكنا نستذكر الأيام الجميلة، لمْ تسمحْ موظفة البارنافان لسعادتنا أن تدوم، فأتت لندى وأخبرتها أنّ علينا المغادرة. كأنّ الدم سُحِب من وجهها فشحب مباشرة، وقالت لنا:

_ لماذا لا أغادر معكما؟

فردّت الموظفة نيابة عنا:

_ ممنوع يا ندى.

هكذا بكل بساطة! ترى ابنك يتوسّل لك بأن لا تتركه لوحدته وأنت مسلوب القدرة والإرادة لا تقوى على شيء.

بعد أشهر قليلة من اللقاء بلغت ندى سن السادس عشر الذي يخوّل لها الإدلاء بشهادتها للقضاء ولتؤكّد تعرّضهم للعنف هي وإخوتها أو تفنّده، وبالتالي يقضون بعودة أولادي لحُضني من عدمه. وافقت المحكمة على إجراء المحاكمة في شهر سبتمبر وأُبلِغَ البارنافان بذلك. كنتُ أعدّ الأيام عدّا لعودة أبنائي وعودة الفرح إلى قلبي.

قبل المحاكمة بشهر وبينما أنا جالس وحيدا في الصالة بعدما غادرتْ زوجتي إلى فلسطين طرقتِ الشرطة بيتي وأخبرتني أنّ ابنتي قد ماتت قبل يومين وهناك اشتباه في قتلها! ابنتي ماتت؟ قتلت؟ وأدوا فرحتي، ماتت وضاع البقية، لقد كان الخبر الذي قتلني. أريد وصف شعوري وقتها لكنني لمْ أفلحْ. هل هناك كلمات تصف ذلك الشعور؟ لا، حجزت مباشرة إلى فلسطين لأخبر زوجتي وأجلبها معي.

عُدنا إلى النرويج مثقلين بالوجع، ذهبنا مباشرة إلى المدينة التي كانت تسكن بها حبيبة قلبي. دخلنا مستشفى فوجدناه خاليا من الناس، ليس به إلا طبيب واحد لا يعلّق على رقبته أو صدره بطاقته التعريفية والسائق الذي ينقل الموتى!

كانت ابنتي ممددة ساكنة، على وجهها وصدرها كدمات، وعلى رقبتها آثار. عند تغسيلها قالت لي زوجتي أنّ يدها كانت تتغلغل في رأس ابنتنا! من هشّم رأس ابنتي؟ طالبنا بملابسها فقيل إنها رميتْ! كيف تُرمَى ملابس شخص يُشتبه في قتله؟ كيف تُرمَى الأدلة الجنائية في قضية قتل؟ تابعتُ مع طبيب نرويجي كل الأدلة التي بحوزتنا وقال لي بالحرف الواحد: ''ابنتك قُتِلت وليس بوسعنا فعل شيء''.

أصدرت تقارير فيما بعدُ أنّ ابنتي انتحرت بسلك شاحن هاتف! هل يتحمّل سلك الشاحن شخصا بطول متر و80 سنتمتر؟ تواصلنا مع الشرطة للمطالبة بهاتفها، فقيل لنا إنّ آخر رسالة لها كانت مع الموظفة تسألها فيها: ''متى أرى عائلتي؟'' لكننا لمْ نصلْ إلى الهاتف. اكتشفنا أنهم غيّروا اسمها إلى ليزا أندرسون. ولمْ يسلّموني أيّا من وثائقها الرسمية. سلّمونا شهادة الوفاة دون شهادة طبية لسبب الوفاة. أردنا معرفة مدرّستها، زميلاتها، تفاصيل دراستها، أيّ شيء يقودنا إلى الحقيقة، فاكتشفنا أنها لمْ تكنْ تدرس من الأساس. لقد ماتت في مراكز حكومية خاصة بحماية الأطفال وهي مراكز مؤمّنة وشديدة الحراسة، طالبنا بتسجيلات الكاميرات فقيل لنا إنها حُذِفت. عُتِّمَ على القضية إعلاميا وضُيِّقَ على كل شخص تواصلنا معه ليخرج القضية إلى العلن.

البارنافان التي أخذت أولادي لحمايتهم منّي سلّمتني ابنتي الكبرى في كفن والثاني اكتشفت أنه جاهل بعدما التقيته، لمْ يكنْ يُحسن حتى كتابة اسمه والآخر لا أعرف عنه شيئا. حرمونا من الإنجاب، فقد صرّحوا لنا أنهم سيسحبونهم منا عند ولادتهم مباشرة. لمْ تكنْ البارنافان يوما منظمة لحماية الطفل بل منظمة متطرفة تمارس التمييز ولا تحترم الاختلافات الثقافية وهناك قرار إدانة من المحكمة الأوربية ضدها. منظمة لمْ يكنْ همّها في يوم من الأيام حماية حقوق الأطفال والدليل الصارخ هو حالة الأطفال الذين تحت كفالتها.

غادرتُ فلسطين مرغما تحت ظروف قاهرة وندمت على ذلك ندما كبيرا. هربت بأبنائي لأجل الحياة الوردية التي رسمها لنا الإعلام الكاذب، لكنني خسرتهم كلهم ولا أنصح أحدا بالذهاب لدول الغرب وعلى كل شخص أن يعتبر من تجربتي القاسية. ويجعلها درسا له ولغيره. بلاد الإسلام واسعة وكثيرة وليختر منها ما شاء، أمّا دول الغرب فليست تطوّرا تكنولوجيا ورفاها ماديا وطبيعة خلابة فقط بل هناك أمور تُحاك ضدّنا ولأولادنا في الخفاء لا يعلمها عنهم إلا الله.

قصف بالقلب !

بدأتْ قصتي حينما هربت بعائلتي من تحت القصف بحلب السورية إلى لبنان، هاجرتُ مع أولادي الأربعة الذين ولدوا أثناء الحرب واعتادوا صوت الطائرات المخيف والقصف بالصواريخ وانفجار القنابل، أخذتهم إلى بلاد هادئة وسماء صافية ،فلا طائرات حربية فوق رأسك، لا قذائف تتطاير أمامك، لا اعتقالات تعسفية ولا مسالخ بشرية. اشتغلت بلبنان، تيسّرت أمورنا وأصبحنا نعرف معنى أن نعيش دون خوف أو توتر.

ذات يوم اتصلوا بي من مفوّضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وعرضوا علينا الهجرة إلى السويد؛ بحكم أنهم درسوا ملفاتنا التي قدّمناها للمفوضية عند دخولنا لبنان، كنا قدّمنا ملفاتنا بغية تسوية أوراقنا بلبنان ولمْ نتقدّمْ بها للهجرة فلمْ تخطر الهجرة إلى أوروبا يوما على بالي. أمهلونا فترة من الزمن للتشاور. أنا لمْ أكنْ أعرف السويد فقرّرتُ سؤال من يعرفها، فقيل لي إنها بلاد الأحلام والرفاهية. أنا لمْ أكنْ أبحث عن المال؛ فحالتي المادية كانت جيّدة نوعا ما في لبنان، لكنّ ما دفعني للتفكير في الهجرة هو طمعي في توفير بيئة جيدة لابنتي التي تعاني من متلازمة داون.

أجرينا المقابلات مع المؤسسة وسهّلوا لنا الإجراءات، تحمّست قليلا حينما رأيت سلاسة الأمور، لكن حماسي انطفئ يوم رؤيتي لذلك الفيديو على الإنترنت يُظهِر رجالا من الشرطة السويدية وهي تختطف أطفالا من عائلتهم، كانت الأم تتوسّل وتصرخ وتتبعهم باستعادة أولادها لكنهم عاملوها بوحشية، أعلنوا وقتها أنهم يختطفون الأطفال لأدنى سبب. استغربت الأمر، لماذا يختطفون الأطفال من أهاليهم؟ ماذا يفعلون بهم؟ ما الأسباب التي تبيح لهم اختطاف الأطفال؟ لمْ أكنْ قد سمعت بموضوع اختطاف الأطفال في دول الغرب أبدا، وكيف أسمع وحياتي قد كرّستها كلها للعمل من أجل عائلتي. استفسرتُ من المؤسسة عن الموضوع وقتها ونفوا ما سمعته. أخبروني أن لا أقارن نفسي بهم؛ فهناك أشخاص يؤذون أولادهم ويعنّفونهم ويشكّلون خطرا عليهم؛ لذا يُسحَبُون لحمايتهم بموجب قوانين حماية حقوق الطفل. كان جوابا منطقيا حينها، هم لا يختطفون الأطفال لكنهم يحمونهم من آباء متوحّشين مدمنين ويوفّرون لهم كل شروط الراحة والأمان. للتأكّد من كلامهم أكثر اتصلتُ بشخص سوري مقيم بالسويد عرّفوني عليه، سألته عن حقيقة الفيديو المنتشر، فأجابني:

_ هذا الرجل جاري وهو شخص مدمن حشيش، كان يشكّل خطرا كبيرا على أولاده، حتى أنا أؤيّد سحب أطفاله منه. لا تخفْ على أولادك هنا، ستجدون الأمن والأمان والراحة والمال.

ومن كثرة مدحه للسويد أحسست أنني سأجمع المال من شوارعها في أكياس بلاستيكية، فرددت عليه:

_ لا يهمنا المال يا أخي، أهمّ ما نملكه هم أولادنا .... كل ما يهمّنا هو توفير الأمان الذي افتقدوه.

لقد طمأنني كثيرا، حزمنا حقائبنا وانطلقنا إلى بلد الحريات حيث حقوق الكلّ محفوظة، استقبلتانا موظّفتان في المطار وأخذونا إلى بيت مفروش جاهز للسكن، حتى الأكل وجدنا في الثلاجة... فرحنا من تلك المعاملة.

بدأت معاناتنا تتكشّف من اليوم الأول حيث وجدنا بردا قارسا لمْ نعهده في حياتنا أبدا، ثم تلتها مشاكل عدم فهم اللغة السويدية خاصة في مواعيد المستشفى، من لقاحات وتحاليل تدخل ضمن إجراءاتهم المعتادة للاجئين، بالرغم من أُميّتي أنا زوجتي إلا أننا كافحنا من أجل أولادنا وصبرنا. دخل أولادي المدارس بعد ثلاثة أشهر من مجيئنا، بدأتْ نظرات المحيطين بنا تثير ريبتي لكنني حاولتُ تجاهلها.

التقتْ يوما زوجتي بعجوز سويدية في غرفة الغسيل ووجدتها تبكي هناك، فسألتها العجوز عن سبب بكائها فلمْ تستطعْ زوجتي -لجهلها باللغة السويدية- إخبارها أنّ سبب دموعها هو الغربة القاسية والشوق إلى الأهل الذي يفعل بنا الأفاعيل. تبادلوا الإشارات فقط وأبدت العجوز تضامنها مع زوجتي وغادرت إلى بيتها أين اتصلتْ بالسوسيال لتخبره بما جرى. بعد أيام وحينما عاد ابني من مدرسته، أخبرني أنّ هناك أشخاصا يأتون إليهم في المدرسة ويعطونهم ألعابا جميلة ويسألونهم الكثير من الأسئلة عن بابا وماما، لمْ أعِرْ ما قال اهتماما كبيرا فربما هي إجراءات روتينية أيضا! لمْ يكن التدقيق في الأمور لصالحي؛ فقد كنتُ منشغلا بكيفية الاندماج بينهم أكثر.

بعد أيام قليلة من حادثة البكاء، اتصل بنا موظف السوسيال يطلب منا إجراء مقابلة معه، اعتذرت لأنني كنت سأرجع أولادي من المدرسة فتفهّم وقال لنا:

_ لا مشكلة لدينا، أجلبوهم معكم، فنحن بانتظاركم.

ذهبنا كلّنا إلى المكتب، طلبوا منا وضع الأطفال في غرفة الألعاب فاعتذرت منهم:

_ لا أستطيع ترك أطفالي لوحدهم.

_ لا تقلقْ، هناك من سيجالسهم بينما نجري لقاءنا.

تركتهم يفعلون ما يريدون، المهم أن يكون أولادي في أمان... بعد خمس دقائق بالضبط أحسستُ أنّ ثَمَّ خطب، انقبض قلبي على أطفالي فاتجهت مباشرة لغرفة اللعب لأتفقّدهم فلمْ أجدْهم!

لمْ يُحضروا مترجما في ذلك اللقاء لكي يبقوا كلامهم غير مفهوم لدينا ويبقى كلامنا مجرد فوضى صوتية. وتغيرّت ضحكاتهم ونبرات أصواتهم. شغلت الموظفة المترجم في هاتفها وقالت لي:

_ هناك معلومات وردتنا عن تعنيفكم لأطفالكم وسنأخذهم حالما نحقّق في الأمر، هل ستذهبُ أنت معهم أم زوجتك؟

أيّ تعنيف؟ أيّ عنف هذا الذي يتحدثون عنه؟ لقد كان وقع الكلمات أكثر عنفا من القصف الذي كنتُ أعيش تحته لسنوات، ترددتْ في أذني جملة المذيعة وهي تقول في فيديو اختطاف أطفال العائلة السورية "وقد اُختُطِفَ الأطفال دون سبب!". لقد اُختُطِفَ أطفال دون سبب أيضا. نظرتُ تُجاه النافذة فوجدت أربع سيارات للشرطة خارج المؤسسة، متى وصلت الشرطة؟ كيف تجهّزوا بهذه السرعة لعملية الاختطاف؟ منذ متى وهم يطبخون طبختهم؟ كلها أسئلة وردتْ مرة واحدة على عقلي. تحلّيت أمامهم بالصبر والجلد، ثم طلبتُ من زوجتي مرافقة الأولاد. سألني الشرطي:

_ هل تريد الذهاب إلى البيت أم السجن؟

_ سأعود إلى البيت.

حملت قلبي المقصوف وذهبت إلى المنزل كسير الجناح، كنتُ أتصل بزوجتي بين الحين والآخر لأطمئنّ عليهم فأخبرتني أنهم ذهبوا بهم إلى المستشفى، وبعد ذلك أخبرتني أنهم في الطريق لمدة ساعتَين ونصف ولمْ يصلوا بعدُ. ثم لمْ تعدْ تردّ علي. اتصلتُ بموظفة السوسيال فلمْ ترد هي أيضا وبقيتُ لمدة شهر ونصف لا أعلم عن عائلتي شيئا. عشتُ الحرب وأهوالها لكنني لمْ أذق فيها ما ذقتُه تلك الأيام. لقد عشنا لسنوات نختبئ معا ونهرب معا ونرحل من مكان لآخر معا، كنّا دائما مع بعض بالرغم من كل ما أحيط بنا ويصبّر بعضنا بعضا لكن تلك المرة بقيتُ لوحدي وأرعبتني الفكرة الخاطئة التي نملكها عن تلك البلدان، وما أرعبني أكثر أن أكون قد أخطأت القرار! قيل لنا إننا في بلد الأمن والأمان، بلد حرية المرأة والطفل حتى الحيوان، اكتشفتُ بعدها أنّ الجميع تحت القانون .... إلا السوسيال.

طالت فترة الانتظار ووكلوا لي أثناءها محاميا لي وآخر لزوجتي، عندما تعاملتُ مع المحامي ارتحتُ له وأعطيتُه كل ثقتي. بعد أسابيع طويلة عقدت المحكمة أول جلسة لنا والتقيتُ زوجتي هناك. جلسنا بمحاذاة بعضنا بعض وأخبرتني أنهم وضعوهم في بيت مراقب بالكاميرات، يقع في قلب الغابة ومحاط بعناصر من الشرطة، كانوا كلّما أتوا ليأخذوا منها الأطفال إلى المدرسة يتّصلون بالمترجم ليخبرها أنهم قد يرجعون لها الأطفال مساء وقد لا يفعلون ذلك. كانت المسكينة تعيش كل يوم رعبا أسود، كانت تعيش اليوم بأكمله في الانتظار. لمْ تكنْ تحسن اللغة السويدية ولا تملك صديقة تسلّي معها عن نفسها ولا هاتفا تتصل بي ولا بأقربائها، كانت تقضي يومها في البكاء والصلاة والتضرع إلى الله بأن يعيد لها أولادها ... نعم، تلك هي السويد بلد حريات المرأة.

بدأت الجلسة ووجّه لنا القاضي تهما عديدة، قال:

_ لقد بلغنا أنّ ابنك يسوق دراجته في الشارع دون خوذة وهذا يشكّل له خطرا.

_ خوذة؟ لمْ تخطرْ ببالي الخوذة عند شرائي للدراجة.

_ ابنتك تقول أنّ أمّها ضربتها في لبنان على مؤخّرتها وظهرها يؤلمها بسبب ذلك.

_ ضربتها؟ لقد ذهبتُ بابنتي إلى الطبيب ثلاث مرات وقد أخبرني أن الألم الذي تشكوه في ظهرها سببه البرد، فقد أتتْ من منطقة ساخنة إلى منطقة تصل فيها درجة الحرارة إلى 40 درجة تحت الصفر. وها هي شهادات الطبيب، أمّا عن الضرب فلا أنا ولا زوجتي نضرب أطفالنا. لا في لبنان ولا بالسويد.

_ بعد جمع المعلومات وما رآه موظفو السوسيال عن زوجتك، فقد استخلصوا أنها أمّ متوترة وقلقة طوال الوقت وهي لا تصلح لتربيتهم.

_ وما الحل؟

_ عرض الأمّ على مختص نفسي ثم إعادة تأهيلها.

بعد المحكمة أخذوا الأطفال وطالبونا بالمغادرة إلى البيت، بعد أيام ذهبنا إلى الطبيب النفسي وصرّح لنا أنّ زوجتي سويّة نفسيا لكنها مشتاقة إلى أطفالها. بدأنا مرحلة إعادة التأهيل ليعلّموننا كيف نربّي أطفالنا، كيف يأكلون وكيف يشربون وفي أيّ ساعة ينامون والكثير من الأمور التي نعرفها كآباء. حينما أكملنا التأهيل، فرح

معنا المدرّسون، منحونا شهادات نجاح وأهدونا علبة شكولاتة. بعد ثلاثة أشهر قدّمنا شهادات نجاحنا للمحكمة والتي تشهد بأننا مؤهّلان لتربية أبنائنا، تفاجأنا بوجود المعلّمين -الذين درّسونا- قبلنا في الجلسة، فرحنا فربما تضاف شهاداتهم القولية إلى تلك الشهادتَين الورقيّتَين ونستفيد من إطرائهم والصدمة كان كلامهم:

_ نحن درَّسنا الوالدَين دروس التأهيل لكن للأسف لمْ يكونوا يستوعبونها؛ لأنّهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة.

لمْ أستوعبْ لحظتها ما قالوا... اختفت ضحكاتهم ومجاملاتهم، تغيّرت ألوان وجوههم، لا أدري لِمَ تتغير وجوههم إلى الأصفر الفاقع عند إظهار حقيقتهم؟!

اتهمني السوسيال بعد ذلك بالبخل وأنني لا أطعم أولادي، فقدّمت للمحكمة كل فواتير الشراء، فصدرت بحقي البراءة. لمْ يكتفوا بذلك واتهمت بالإهمال وأنني لا أكسو أولادي وليس لديهم معاطف شتوية، توجّهت لمسؤولة البلدية وأخذت لهم تصريحها لي بأنها هي من اشترت لنا الألبسة الشتوية حينما استقبلتنا وأخذتُ لهم أيضا الفواتير التي اشتريت بها الألبسة لأولادي. وأصدر القاضي براءتنا من هذا الاتهام أيضا. أصبحت حياتي عبارة عن محاكمات واتهامات وقضايا وأدلة وشهادات. كانوا يستميتون لأخذهم، لمْ أعرفْ هذا إلا بعد اتهاماتهم الكاذبة الكثيرة، تسمع الناس يقولون: "كفاكم مِن لعب دور المظلوم ونظريات المؤامرة، أنتم العرب تعنّفون أطفالكم، هل أولادكم مغلّفون بالذهب حتى يُختَطفوا؟". أولادنا لمْ يكونوا يوما مغلّفين بالذهب، لقد كانوا الذهب في حدّ ذاته في دول الغرب ولمْ نكنْ نعلم حين لجأنا لهم أنهم لصوص ذهب محترفون.

مضت ثلاثة أشهر لا نعلم عن أولادنا شيئا. بعدها اشترطتْ علينا المحكمة أنها ستحدد لقاء معهم لمدة ساعة واحدة فقط وسترى لهفتنا على أطفالنا وترى ردّة فعلهم أيضا، وبناء على ذلك سيحكمون بإرجاعهم إلينا ففرحنا فرحا شديدا. طبخت لهم أمّهم أكلهم المفضّل واشتريتُ لهم الهدايا، منعونا من إدخال الهدايا والأكل لأسباب أمنية! لمْ يكنْ هناك أيّ داعي للخوف، هم لمْ يريدوا أن نكون سببا في إسعاد أولادنا، أن ندخل على قلوبهم اليتيمة البهجة. كانوا يريدون أن يرسموا في مخيّلاتهم أننا أشرار لا نحبّهم وبخلاء لا ننفق عليهم وأننا لسنا بحاجة لهم. عكسهم هم الذين يهتمون بهم أكثر منا.

عند دخولنا، قفز الأولاد علينا ولسانهم واحد:

_ أبي، أمي أين كنتم؟ لقد اشتقنا لكم.

قلبي انفطر عليهم، كانت عندي ساعة واحدة معهم، بعد أن كنّا نعيش تحت سقف واحد وأراهم كل لحظة حولي أصبحت لديّ ساعة واحدة فقط لأراهم فيها. ساعة واحدة أحتضن فيها من؟ وأقبّل من؟ وأشمّ من؟ وألعب مع من؟ هل تكفي ساعة واحدة بعد حرمان ثلاثة أشهر؟ كيف تكفي لأسأل كل واحد فيهم عن كل يوم قضوه بعيدا عنا؟ هل قوانين فصل الأبناء عن آبائهم قانون منصف؟ هل ضربك لابنك لتأديبه يجيز خطفه منك؟ هل الضرب يدفعهم لخطفه وتغيير اسمه واسم عائلته ودينه وهُويّته ولغته؟ هل ضرب الطفل أو الصراخ عليه يجيز لهم وضعه في مركز رعاية وجعله مدمنا لدواء نفسي هو في غنى عنه؟ هل عدم ارتداء الخوذة يجيز لهم وضع الطفل عند عائلة مكونة من والدَين شاذَّين؟ هل التزام الوالدَين بدينهم يجيز للسوسيال خطف الأطفال ووضعهم عند عائلتهم يتلذّذ أفرادها بتعذيب الأطفال أو اغتصابهم؟! مرّ اللقاء سريعا، فقال لنا الموظفون:

_ قولوا للأطفال أنكم ذاهبون لتأتوا لهم ببعض الأكل وسترجعون لهم، لا تقولوا لهم أنكم ذاهبون دون رجعة.

_ لا أستطيع أن أكذب على أولادي.

_ إنْ لمْ تقولوا لهم ما أمرناكم به فلن تروهم مرة ثانية.

كذبنا عليهم وعند خروجنا كانوا يتمسّكون بأرجلنا ويجذبوننا من ملابسنا، لمْ يكونوا على استعداد لفراق آخر، لمْ يصدّقوننا وكان موقفا لا يُحتمل، إنه الذل والهوان. خرجنا من عندهم ومشينا مئة متر، لمْ أتجرأ فيها على النظر خلفي من شدة صراخهم، تخيّل أنّ هذا كله يحدث في بلاد الغرب ولا أحد يعلم، بل الأمرّ من ذلك هناك من يسلك الطرق الوعرة المميتة برا وبحرا لكي يصل إلى هذا العذاب الدائم. صراخ أبنائي إلى حدّ الساعة يتردد في أذني.

أعدنا لقاء آخرا بعد شهر، وبعده أخبرونا أنهم سيحولون التسجيلات والتقارير إلى المحكمة. يكتبون كل ما حدث أثناء اللقاءَين، كيف كان؟ كمْ قبلة قبلت أولادي؟ كمْ قبلة قبّلوني؟ كيف كانت مشاعرنا؟ كيف كانت حركاتنا؟ لغة أجسادنا !! أثناء اللقاء الثاني كان أولادي غريبين جدا. كنت أجرّهم عندي جرّا كي أقبّلهم، لمْ يندفعوا لمّا رأونا. لمْ يتسابقوا نحونا، سألتهم عن حالهم، فقال لي ابني الصغير:

_ هناك نمل يمشي في عيني يا أبي.

ظننتُ أنه يعاني من قلّة النوم أو بسبب كثرة استعماله للهاتف. لكن ابنتي الأخرى قالت لي:

_ يا بابا، أنا أرى ماء أمامي.

استغربتُ حالهم، وقال لي الآخر:

_ بابا أنا أراك كالمطاط، تطول وتقصر.

لو كانوا كبارا لقلتُ أنهم يمثّلون عليّ أو أنهم لُقِّنوا ما يقولون لكن اتضح لي فيما بعدُ أنهم أعطوهم مادة شبيهة بالكحول تسبّب لهم هلوسات حتى لا يتصرفون على طبيعتهم وكي لا يروا من أمامهم شخصا طبيعيا.

حوّلت الأوراق إلى المحكمة بعد ذلك كل المحامين في القضية لمْ يثبتوا علينا لا التعنيف ولا الإهمال. قالوا أنهم لمْ يثبتوا علينا أيّ تهمة، لكن المشكلة أنّ الأطفال لا يريدون العودة إلى والدَيهم!!

جنّ جنوني بعد هذا الكلام، لكن المحامي هدّأني، ثم قال لي:

_ عند مقابلاتك مع أولادك، قيل لنا إنهم كانوا يصرخون خوفا منكم.

_ كانوا يصرخون فرحا برؤيتنا وارتموا علينا.

_ بعد اللقاءَين كان أحدهم يستفرغ في الليل، وآخر كان يتبوّل على فراشه أثناء نومه، كل ذلك كان من خوفهم منكم.

دامت الجلسة خمس ساعات وطبّق القاضي على القضية قانون LVU وهو القانون الذي يتيح للسوسيال خطف الأطفال من أهاليهم دون موافقتهم ووضعهم عند أسر معيلة؛ وذلك خوفا عليهم من بيئة العصابات والاضطهاد المرتبط بالشرف، أقسم بخالق السماء لو كنت أعلم ذاك ما خطوتُ خطوة واحدة خارج لبنان. أتدري ما الاضطهاد المرتبط بالشرف!؟ هو محافظتك على أبنائك من الانحلال الأخلاقي، هو تربية أولادك على العفة والحياء ومن يقول غير ذلك فهو كاذب... أنا هنا لأحكي قصتي وهذا الدرس الذي ألقيه الآن عليكم كلفني أولادي، أنا أحكي لأسترجعهم ولأنبّه الجاهلين بحقيقة الغرب والمهووسين بالغرب.

أول ما فعلته بعد الحكم النهائي هو الاتصال بالشخص الذي مدح لي السويد وشجّعني على الهجرة لها وطمأنني على مستقبل أولادي. أخبرته أنهم أخذوا أطفالي ولستُ بمدمن ولا مهمل ولا مُعَنّف، تكلّمت كثيرا وفي الأخير قلتُ له شكرا على نصيحتك التي دمّرتُ بها حياتي. كذب عليّ وقال عن الأب الذي خطفوا أطفاله في الفيديو أنه جاره وهو مدمن. بعد مصائبي علمتُ أنه لا يعرفه من قريب ولا بعيد وليس بجاره. كنتُ كلّ يوم أعيش صدمة أو أكثر في هذا البلد... لقد صدمني بكذبه، كان من الممكن أن يصارحني بأنه يعرفه ولا يعلم عن الواقعة شيئا وينتهي الأمر وأبقى في لبنان، أكافح من أجل أولادي لأعود لهم مساء ويلتفون حولي. لماذا كذب علي؟ في الفيديو كانت الأم السورية تجري في الثلج لتنتزع منهم طفلها، خطفوا الطفل وأحكمت الشرطية قبضتها على الأم وأسقطتها على الأرض وأدخلت كمية ثلج من الأرض في فمها. لا أستطيع نسيان تفاصيل ذلك الفيديو، لقد أدخل في قلبي الرعب ولكن كذب الرجل عليهم نسف كل شيء وبالمنطق تستطيع تصديق أنهم يحمون الأطفال؛ لأننا سمعنا كثيرا عن حقوق الطفل التي يحمونها، لمْ أكنْ أعلم أنّ عدد الأطفال المختطفين يبلغ عشرات الآلاف سنويا، عدد لا يخطر على أيّ بشر سوي. فقط عليك إدخال جملة اختطاف الأطفال في الغرب أو كتابة أيّ دولة غربية سيخرج لك الكثير من الفيديوهات الموثقة أثناء الاختطاف، اختطاف من غرف الولادة، اختطاف الأطفال أثناء نومهم، انتزاع الأطفال بوحشية من قبل الشرطة، تمسك الآباء بأبنائهم أثناء الخطف، فيديوهات تعصر القلوب عصرا، ذلك ما استطاع الأهل توثيقه وما لمْ يُوَثَّقْ أكثر بكثير، أرقام الإحصائيات مخيفة جدا ولمْ أكنْ أعلم عنها شيئا، حسبت الأمر نادرا .... ليتني علمت الحقيقة وقتها. ليته لمْ يكذبْ علي، يقال أنت تهوّل الأمر، وأقول أنا أبرئ ذمتي أمام الجميع، عندما تذهب إلى دول الغرب فهناك نسبة اختطاف أطفالك منك، قد تكون هذه النسبة 1% وقد تكون النسبة 99%، كاليانصيب تماما. أعرف أطفالا مُهملين ويعيشون مع آباء مدمنين ولمْ يقترب منهم أحد! ذات يوم رأيت سويدية مع ابنتها في البقالة، طلبت الطفلة قطعة شيكولاطة من أمها فرفضت وسحبتها من يدها بعنف ولمْ يعترض على ذلك أحد، لو فعل ذلك العربي لبلّغوا عليه السوسيال مباشرة ولسحبوه على الأرض سحبا. هناك أيضا رجل اغتصب ابنه فسحبوه منه لكنهم كانوا يأتونه له كل أسبوع ليراه! حكوا لي أيضا عن سويدية تعنّف أطفالها واشتكوا بها الجيران، سحبوا منها ابنها بعد الكثير من بلاغات الجيران وأعادوه لها بعد أسبوع فقط. إنها ازدواجية المعايير.

يقولون عني أنني أُميٌ؛ لهذا أخذوا أطفالك، وأقول لهم أعرف طبيبا أخذوا أطفاله. ولا يخدعك أحد بقوله: هم لا يختطفون الأطفال إلا لأسباب، لا يخدعوكم رجاء، وها أنا أمامكم مثال حيّ ... أمّا من لا يهمه أطفاله أو دينهم، فهذا لا أقصده بكلامي ولا نصيحتي.

موظفو السوسيال يخدمون أقاربهم ومعارفهم من خلال مناصبهم. كيف ذلك؟ يختار الشخص أيّ طفل يريده ويخبر عنه قريبه الموظف، "أنا أريد هذا الطفل" ليأخذه ويعيله بمبلغ مالي معتبر، يتحججون لك بأيّ حجة، إذا سقط ابنك من الأريكة وانكسر ذراعه سيتهمونك بالإهمال، إن احترق ابنك لأنه لمس إبريق الشاي فستحاسب.

تجد جواسيس السوسيال في كل مكان، الكلّ مجند، في المحلات، في مدينة الملاهي، في المدرسة وفي الشارع. ومن المتناقضات أنهم لا يَشُون بالمحشش أو المدمن ولو كان يستهلك تلك السموم في الشارع لكن إن سقط ابنك على الأرض فسيلتقطون ذلك بسرعة المخبرين ويبلّغون عنك السوسيال. هم لا يخبرونكم بهذا في الإعلام المضلل أو في مواقع التواصل الاجتماعي، يصدّرون لنا أنّ هذه السويد جنّة، يتصوّرون في أجمل المناظر وفي أرقى الأماكن، يُرُوكم المرافق الحديثة والشوارع النظيفة، يصورون يومياتهم في المحلات الفخمة وهم يتسوّقون من الماركات العالمية، يحسبهم الواحد أنهم يقطفون مالا من أشجار حدائقهم عند الخروج!! لكن لا أحد يتجرّأ منهم ليخبرك الحقيقة الكاملة، لن يخبروك عن الفواتير الكثيرة، عن الديون، القروض والضرائب، ولا ترونَ منهم أيضا الجانب كالح السواد؛ لأنهم يخافون على أنفسهم من التبعات، لكن يا أخي المسلم العربي إنْ لم تستطعْ الوقوف مع الحق ظاهرا فلا تصفّق للباطل، لا ترسموا للناس صورا كاذبة لدول الغرب لا تخبروهم أنها جنة فوق الأرض، أظهروا السلبيات مع الإيجابيات ولا تخدعوا الناس؛ فيغتروا وليعلم كل امرئ أنه سيحاسب بما يفعل يوم لا ينفع الندم.

بعد ثلاث سنوات من حرماني من أطفالي أكرمنا الله وحملت زوجتي، نصحني بعض القدماء العرب الساكنين بالسويد أنّ من صالحي إعلام السوسيال بالحمل، وسيعدّون ذلك تعاونا معهم، وبالتالي أستطيع استرجاع أولادي. اتجهت إلى السوسيال لأخبرهم، فوجدتهم على علم بذلك! وقالوا لنا: سنرى تربيتكم لهذا الطفل وبناء على ذلك سنرجع لكم أطفالكم تدريجيا عبر المحاكم. أحسسنا من كلامهم بقليل من الأمان. أثّثت غرفة ابني بأثاث كلّفني الكثير من المال وكلي سعادة وفرح على أمل استرجاع الأطفال، أعطونا 150 أورو لشراء عربة للطفل وأظهروا لنا فرحهم لفرحنا.

حان وقت الولادة وبدت أعراض المخاض على زوجتي، فأسرعت بها إلى المستشفى. أبلغوني أنه لا داعي لوجودي بسبب الكورونا والخوف من العدوى. عدتُ إلى المنزل وأنا أنتظر مكالمة من زوجتي لأطمئن عليها وعلى ابننا، ولدتْ زوجتي الساعة الثانية قبل الفجر واتصلتْ بي باكية، كنتُ أسمع صراخها فقط ولمْ أفهم من كلامها شيئا، حاولتُ تهدئتها كثيرا:

_ اِهدئي يا طيّبة. اِهدئي يا غالية ....، الدنيا كلها إلى زوال... الله هو المعين.

_ لقد رأيتُ ابني، إنه مثل الغزال. لكنهم حرموني منه، لمْ يضعوه عليّ.

_ قولي لا إله إلا الله .... لا إله إلا الله ... محمد رسول الله.

_ لقد أتوا وأخبروني أنهم أخذوه ولن نستطيع أن نعطيك إياه؛ لأننا عرضناه على مختصّ وقال لنا أنّ مشاعره لم تتحمّلك ورفضتك!

أعلم أن لا أحد سيصدّقني، فحتى أنا لا أستوعب ما يحدث لي إلا بعد أيام، أصبح المختصّ يعرف مشاعر الطفل عند ولادته!! وكل ما حدث معي موثّق بالأوراق ومختوم بختم المحاكم.

ذهبت إلى المستشفى لأواسي زوجتي المسكينة في بلد حقوق النساء، فما بال الاختصاصي النفسي يعرف مشاعر الرفض عند الرضيع لكن لا يعلم بمشاعر القهر عند الأم!؟ لمْ يتركوني أدخل إلى زوجتي واضطررت إلى محاولة الدخول بالقوة لكنهم ضربوني بعصا كهربائية فسقطت أرضا. كنت ملقى على الأرض وأسمع صراخ زوجتي، تمنيّتُ لو كنت وقتها تحت الردم في سوريا، الحجارة على جسمي المكسّر أهون بكثير من ذلك الموقف، قلوبهم أقسى من الحجارة القاسية. توسلتُ لهم بأن يدخلوني لها لأطمئن عليها وأهدّئها، لمْ أطالب بابني فقد خطفوا قبله أربعة. لمْ يستجيبوا لمطلبي واستدعوا الشرطة وخيّروني إمّا الذهاب معهم أو المغادرة إلى البيت واخترتُ بيتي الموحش. لمْ أجدْ ملاذا إلا سجادتي، أصلّي لله، أدعوه، أبكي، أحمده على كل ابتلاءاته وأدعوه أن ينزل الصبر على قلبي وقلب زوجتي وأن يحمي أولادي الخمسة. لو لمْ أكنْ مؤمنا لصببتُ البنزين على جسدي وأضرمتُ فيه النار لكنني لا أقوى على نار جهنم، تصبّرت بالله وصبّرني ولله الحمد والمنّة.

بعد مدة أتوا بزوجتي إلى المنزل وغادروا، جلسنا بعضنا مع بعض وليس لي كلام أقوله، تحمّلت كل شيء في سبيل أطفالي لكنه مجتمع لا يفهم مدى حبّنا ولا مقداره؛ لأنه مجتمع شاب ونسي معنى الإنجاب.

مرّت ثلاثة أشهر على ولادة ابني محمد الذي لمْ يتركوني أسمّيه أو أُخرِج له شهادة ميلاد، وقبل بداية جلسات المحكمة بخصوصه كان علينا أن نراه. سافرنا لمدة أربع ساعات لكي نراه، تركونا خارجا لانتظاره، مرّت علينا امرأة تجرّ عربة أطفال. قالت لي زوجتي:

_ ابني في هذه العربة، لقد انقبض قلبي عند مرورها من أمامي.

المسكينة ... لم يكنْ قلبها مخطئا حينما أخبرها بذلك، فعلا ابننا كان في تلك العربة. تعمّدت مربّيته أن تأتي به جائعا، حذّروا زوجتي من وضع ابنها على صدرها وهدّدوها إن فعلت ذلك أن ينهوا اللقاء مباشرة. ما إن أمسكناه حتى بدأ يبكي كثيرا، طلبت من مربّيته حليبا أو مصاصة رضع كي يسكت قليلا، ونحسن أن نستمتع به فرفضت رفضا مطلقا في البداية. وحينما زاد الأمر عن حدّه كانت تذهب إلى الغرفة المجاورة فتقطر له الحليب في فمه تقطيرا القليل وتتعمّد إبقاءه جائعا. رأيت ذلك بعيني، تنزع الرضاعة من فمه انتزاعا وهو يريد المزيد. هذا لا يسمّونه إهمالا أو عنفا أو تجويعا. لا، لا يسمّونه، لكنك لو فعلت أنت ذلك فسيحرقونك. مرّ اللقاء القصير بالبكاء والصراخ وعند انتهائه، قالوا لنا: نحن سجّلنا تفاصيل اللقاء ومشاعرنا ومشاعره! وسنحوّل التسجيلات إلى المحكمة -المتواطئة- لكي تحكم.

بعد أيام أجريت المحاكمة وقدّمت التقارير إلى القاضي وبدأنا نسمعها "لمّا رأى الطفل والدَاه انفطر قلبه وخفنا عليه أن يتأذّى أكثر، كان من الواجب علينا أن لا نتركه معهم أكثر من عشر دقائق". بقيت مذهولا من كلامهم، كيف علموا أنّ قلبه انفطر؟ لماذا انفطر؟ لقد كان جائعا. كانوا كل يوم يصدمونني بمصطلحاتهم وتفكيرهم، كان من المفترض أن لا أُصدَم، كنتُ أتوقع السيء منهم لكنهم دائما كانوا يفاجئونني بالأسوأ الذي لا يخطر على بالي. وحكم القاضي بخطف محمد وانتهت المحكمة. وبالمناسبة فالقاضي أثناء المحاكمة كان يقاطع المحاميين، يقاطع الأب المكسور، الأمّ المحطمة لكن لا يتجرّأ على مقاطعة موظف السوسيال بل إنّ الأخير من يقاطعه بينما يكتفي بسماعه فقط، وهناك تعلم أنّ سلطة السوسيال فوقه ولا تعلو كلمته فوقها. حتى أنهم لا يعترفون بالقضاة الأجانب في قضايا الأطفال والسوسيال. حتى المحكمة الأوروبية لا تستطيع التدخّل في مثل هذه القضايا. بعد مدة على حكم الخطف سمعت أن ابني محمدا أصبح أندرياس.

الجميع هنا يقول لي: تعاونْ معهم فقط وستستعيد أطفالك، من المستحيل أن يختطفوا الأطفال دون سبب، فقط تعاونْ، تعاونْ فقط. لقد زرعوا فكرة التعاون في عقول المهاجرين ولا أساس لها في

الواقع.... لقد فعلتُ معهم كل المستحيلات، بقيت هادئا معهم دائما، كظمت غيظي وحافظت على رباطة جأشي في أسوأ المواقف لكن هذا كله لمْ يشفع لي عندهم ولن يفهمني إلا من اكتوى بالنار نفسها.

قيل لي: عليك بالعمل أكثر وتحسين لغتك السويدية لكي يعرفوا أنك تعمل على التطوير من نفسك وجعلها أكثر كفاءة. بدأتُ أشتغل في محل لتصليح السيارات تيسّرت الأمور وحاولتُ أن أنسى وجعي بالعمل. في كل مرة كانت تصلني مكالمة من السوسيال لإجراء لقاء واستأذن من مديري بالعمل. ذهبتُ مرة فأخبروني أنّ ابني يستفرِغ كثيرا، يرى أحلاما مزعجة، أخذوه إلى الطبيب وكان بوضع سيء. ثلاث سنوات لمْ أر فيها ابني، طلبتُ منهم أن أزوره أو آخذه إلى طبيب آخر فرفضوا رفضا قاطعا. سألتهم عن ما أستطيع فعله فقالوا لي: ''كلّ ما يعانيه بسببك وبسبب عنفك''!! . بعد شهر أو شهرَين اتصلوا بي مرة وأخبروني أنّ ابنتي قد خضعت لعملية جراحية لاستئصال اللوزتين، توسّلت لهم أن أراها فقالوا لي: ''لا، لا تستطيع رؤيتها لأنّ ذلك يشكّل خطرا عليها!''. اتصلوا بي مرة ليخبرونني أنّ ابني تبول على فراشه أثناء نومه وعندما عرضوه على الطبيب، قال لهم: إنه رآني وأمه بالمنام فخاف منا وتبوّل على نفسه! يتعمّدون استفزازك وحرق قلبك. لقد كنتُ أعاني في مقابلاتهم كثيرا، إذا ذهبتُ لهم بملابس العمل يقولون: إنني غير مهتم بأبنائي! إنْ لبست طقما رسميا وذهبت لهم يقولون: إنه متأنق ومرتاح في غياب أولاده! إن ضحكت في المقابلة يقولون: إنّ الأطفال لا يعنون لي شيئا! إن أبديت لهم حزني، يقولون: مكتئب وليس لديه اتزان نفسي ولا أصلح للتربية ووجب عرضي على الطبيب النفسي! ذهبت مرة لهم ولمْ أنزع معطفي من شدة البرد فكتبوا في تقريرهم أنني غير مثقف! وبسببهم وسبب اللقاءات الكثيرة طردني المدير من عملي.

بعدها حاولت الحصول على عمل، كنتُ أقدّم لهم سيرتي الذاتية فيقبلونني ويمنحونني موعدا للبدء معهم ثم ما يلبثوا أن يأتيهم بريد يخبرونهم فيه أنني مسجل عند السوسيال وأنّ أبنائي الخمسة مسحوبون مني. فيتصلون بي ليبلغونني بالرفض.

حملتْ زوجتي للمرة الثانية في السويد فسمع السوسيال بذلك، اتصلوا بنا وأمرونا بإجهاض الطفل عن طريق الأدوية، رفضتُ ذلك رفضا قاطعا وقلتُ لهم أنا لا أؤذي نملة في طريق، فما بالكم بجنين نُفِختْ فيه الروح!. بعد مدة اتصلوا بي مرة أخرى ليخبرونني أنهم أمّنوا عائلة لابني الذي لمْ يكن قد ولد بعد، وصروحوا لي أنه سيسحب عند ولادته! أرادوا بذلك إخافة زوجتي فتضطر للهرب من السويد، وبالتالي يتخلّصون منها وأبقى أنا فيلفّقون لي أيّ تهمة أو يتهمونني بالجنون وتنتهي القصة هنا.

التقيتُ بعد 3 سنين بابنتي الكبيرة وقد كانت قد بلغت عشر سنوات، استمر اللقاء لمدة خمس دقائق فقط، لمْ تكنْ تعرفنا ... لم تكنْ تعرفني لا أنا ولا أمّها، كانت كالسكران تسألنا: ''من أنتم؟ من أنتم''، كانت أكبر أولادي وعاشت معنا الفترة الأطول ولمْ تتعرف علينا في نهاية الأمر، فما هو مصير البقية؟ هل كانوا سيتعرفون علينا لو رأونا؟! حديثها مختلف، شكلها حتى نظرات عينيها تغيّرت. كانت ابنتي ولكنها لم تكنْ ابنتي!

خرجت العائلات المتضررة من خطف أولادها في السويد في مظاهرات لاسترجاع أطفالها وكنت معهم، صوّرتنا وسائل الإعلام العالمية وخرج لأول مرة صوتنا للعلن. وصف الإعلام السويدي ذلك الصوت الغاضب بالحملة المضللة التي تسعى لتشويه صورة السويد، ادّعت أننا مدعومين من جهات خارجية. لمْ يكنْ احتجاجنا تشويها وإنما صدحا بالحق من قلوب اكتوتْ بجحيم السوسيال، ولمْ تدعمْنا أيّ جهة خارجية وإنما تشجّعنا حينما طفح الكيل، جمَعنا الألم الواحد ودعمنا بعضنا. أظهرت هذه المظاهرات جزءا من الحقيقة لمن كان جاهلا، استغرب منْ علم وبدأ الوعي ينتشر في الداخل والخارج. قُمِعَت المظاهرات وهُدِّدَ الناشطون فيها فهرب من استطاع الهرب وبقي من تعذر عليه الهروب.

انصدمت وزارة التعليم السويدية نفسها من فراغ الصفوف بالمدارس، لمْ تنتظر العائلات دورها في طابور السوسيال وإنما ركضت بفلذات أكبادها إلى طوابير المطارات! بقيت العائلات المنكوبة تنتظر سن الرشد للقاء أبنائها. وأجرى السوسيال تحقيقات مع من تضامن معنا من المسلمين و العرب. بعد البلبلة التي أحدثتها مظاهرات العائلات العربية والمسلمة، كثف السوسيال جهوده أكثر لاختطاف أطفال الدول الإفريقية: كالكونغو، إريتيريا، الصومال. و قد صرحوا هم أنفسهم أنهم قد سحبوا _ كما يقولون _ أكثر من 25 ألف طفل سنويا أي حوالي 70 طفل يوم ! هذه إحصائياتهم و بياناتهم في مواقعهم هم و ليس كلامي و لا تضخيما مني. ففي 2020 تم سحب 27300 طفل، في 2022 تم سحب 26500 و في سنة 2023 تم سحب 25800 طفل. و لمن يلاحظ فالعدد في تناقص. يستبشر البعض بتناقص العدد مع مرور السنين و يظن أن السوسيال قد خاف و بدأ يتراجع عن سياساته القذرة لكن الحقيقة مغايرة. لقد تناقص العدد لأنه لم يعد هناك أطفال للخطف.

تواصلت مع أكثر من محامٍ لأوكله في قضيتي وكلّهم قالوا لي: ''ليس لديك قضية''. أقول لهم: اِستلموها من جديد، يقولون: القضية مغلقة، لمْ تعُدْ هناك قضية. أتصل بالسوسيال فيعِدُونني أنهم

سيتّصلون بي مرة أخرى، أنتظر شهرا أو شهرَين، يقولون: اِنتظر لنعيّن لك مترجما، أنتظرُ شهرا أو شهرين وأتصلُ بهم، يقولون: اِنتظر لنتحقق من معلوماتك. عندما أذهب إلى مقرّهم يتّصلون بالشرطة، يسألونني عن سبب الوقوف بجانب المؤسسة فأقول لهم: إنّهم قد خطفوا أطفالي، يقولون لي: ليس من حقّك المجيء فهذا مبنى عام، فليس لك الحق أن تقف بجانب أيّ مبنى في السويد أكثر من عشر دقائق.

تنازلنا عن الجنسية السويدية وهربتُ مع زوجتي لتنجب في بلد أوروبي آخر.... وما زال أملي بالله كبير كي يرجع لي أطفالي.

انتصار مزيف على النرويج

بدأت الحكاية سنة 2009، حينما هاجرت الأم الصغيرة _ ابنة السادسة عشر _ ماريا الصومالية برفقة رضيعها محمد المولود بكينيا إلى النرويج لتبدأ معه حياة سعيدة، قررت في بداية أمومتها أن تكافح من أجل ألا يعيش رضيعها حياة الفقر وشظف العيش. كان القرار صعبا والتنفيذ أصعب لكنها كانت مدفوعة بقلب الأم المضحي المغامر. وصلت ماريا إلى الجانب الآخر من البحر ووجدت نفسها بعالم مختلف عما تركته وراءها. طبيعة جميلة تخلب الفؤاد وتحفا معمارية متناثرة على مد البصر وبنى تحتية مبنية بإتقان.

لم تُترك ماريا لتستمتع بذلك العالم الجديد مطولا، فلم تلبث أشهرا بالنرويج حتى اختطف السوسيال رضيعها بحجة أنها لا تملك الأهلية لتربيته و أنها تشكل خطرا عليه! صُدمت ماريا صدمة عمرها ولم تكن تدري أن العذاب الذي تحملته في سبيل الهجرة إلى النرويج سيعقبه عذاب آخر. عذاب طويل ومرير في سبيل استعادة طفلها الذي قطعت من أجل سعادته البلدان والبحر.

بعد أشهر من وصولها تم اختطاف ابنها محمد، سمحوا لها في العام الأول من اختطافه برؤيته 4 مرات فقط، و في العام الثاني لطفوا بحالها و سمحوا لها برؤيته 6 مرات! بعد ذلك حكمت المحكمة بتسليمه لعائلة مسيحية متشددة. طعنت ماريا في قرار المحكمة فور صدوره و تم رفض طلبها مباشرة من قبل محكمة الاستئناف النرويجية، لم تجد مخرجا إلا اللجوء إلى المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان في عدة دول أوروبية.

مرت سنوات طويلة على كفاح ماريا و في الأخير تكلل ذلك الكفاح بالنجاح أو كما ظن الجميع في بداية الأمر. قضت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان في مدينة ستراسبورغ الفرنسية بأحقيتها في استرداد ابنها محمد من الأسرة الحاضنة. فبعد النظر في اعتراضها الذي تقدمت به، قالت المحكمة إن تسليم الطفل لأسرة حاضنة مسيحية ينتهك مادة الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان التي تنظم حق احترام الحياة الشخصية والأسرية .... حقوق الإنسان الذين يستميتون في تطبيقها علينا فقط!

خرجت وسائل الإعلامية العالمية والعربية تحتفي بنصر ماريا على النرويج وتم تداول الخبر على نطاق واسع وفرح معها المسلمون وغيرهم لأنها ستلتقي بمحمد بعد أكثر من عشر سنوات من الفراق، كأن أحدهما كان مسجونا بذنب لم يقترفه! انتظرت ماريا يوم اللقاء، عدت الأيام، الأسابيع، الأشهر والسنوات، سنة بعد الأخرى ولكنها لم تستعد ابنها لحد كتابتي لقصتها منتصف 2026 أي بعد 5 سنوات من صدور

قرار المحكمة الأوروبية ولم تتطرق نفس الصحف لجديدها بعد قرار المحكمة. كان احتفالا ضخما بنصر مزيف ثم خفتت الأضواء المسلطة تدريجيا وتُركت ماريا لتواجه مصيرها لوحدها.

لم تيأس ماريا بل خرجت في منصات التواصل الاجتماعي وعرضت قضيتها للمرة الأولى على الرأي العام. فسمع بها الناس وتعاطفوا معها ومن بين من تعاطف مسلم نرويجي، فعل المستحيل في البحث عن ابنها و علم عنه معلومات شحيحة لكنها كانت كفيلة بالمساعدة في الوصول له. وجد أن محمدا طالب بمدرسة مسيحية و يرتاد الكنيسة مع العائلة الحاضنة لا ليصلي فيها فقط وإنما ليغني بها ... لم يجد الرجل طريقة للتواصل بها مع محمد إلا أن بعث له برسالة من أمام مدرسته يخبره فيها بالحقيقة! بأن أمه تبحث عنه منذ أكثر من 15 سنة ....

لكن لم يكن هناك محمد بالمدرسة بل إسحاق أندرسون! لقد غيروا اسمه لأن المربية لا تحتمل سماع اسم محمد في بيتها! لماذا يا ترى لم يختطفوا لها منذ البداية طفلا باسم أدريان أو أكسل أو أدولف؟ لماذا لم يفعلوا ليختصروا عليها عناء تغيير الاسم بالسجلات! لم يكتفوا بالاسم بل بدلوا دينه بدون أن يعلم و أخبروه أنهم تبنوه من دولة إفريقية مباشرة ... اشتكت العائلة بماريا والرجل الذي ساعدها عند الشرطة بحجة التشهير لأنهم عرضوا معلوماتهم العائلية الشخصية على شبكات التواصل وتم حبسهما ليوم و ليلة.

بعد الحادثة تم التعرف على حسابات محمد على مواقع التواصل ولم يتوقف رنين هاتفه. تواصل معه الكثيرون ليؤكدوا له حقيقة ما قيل وحقيقة المعركة التي تخوضها أمه الحقيقية من أجل استرجاعه. بعد ذلك تم سحب الهاتف منه من قبل العائلة الحاضنة. تم التعرف أيضا على حساب المرأة المربية له و تم مهاجمتها في التعليقات من قبل الكثيرين يطالبون فيها بإعادة الشاب إلى أمه مما اضطرها إلى إغلاق حسابها.

قالت ماريا في إحدى فيديوهاتها : أنا أم عنيدة و لن أتخلى عن المحاربة من أجل استعادة ابني الذي أصبح شابا بعمر 17 سنة، لن أترك لهم ابني وهو حي يرزق. لقد مُنعت من نشر صوره لكنني نشرتها في حسابي لأنني أمه ولا زلت أنا أمه الوحيدة الحقيقية. خطفوه وأسقطوا عني حضانته انتقاما، أعطوه لعائلة تتبناه، غيروه كليا وحينما صدحت بالحق منعوني الاقتراب منه ورؤيته لمدة عشر سنوات لكنه سيبقى ابني حتى بعد موتي وعليه أن يعلم أنني لم أذق طعم الراحة مذ خطفوه من حضني.

تم التضييق على ماريا كثيرا و تم تهديدها من قبل الشرطة بأنهم سيركبون في قدمها جهازا يتتبعون به كل خطواتها إن استمرت في تتبع ابنها! اختفت عن الساحة لأشهر ثم ظهرت لتخبرنا أنها خائفة في بلاد الحريات، قالت: '' أخاف أن يخطفونني ولا يعلم أحد بذلك. أرجو من كل مَن يعرفني خاصة الجالية الصومالية بالنرويج أن تتفقدني بين الحين والآخر في حساباتي على منصات التواصل الاجتماعي ... رجاء لا تتركونني لوحدي ضدهم. لا تتركوا ابنكم المسلم محمد عندهم.....

هروب إلى الموت!

عائلة فلسطينية بغزة هاجرت أثناء حرب الإبادة الجماعية إلى فرنسا فرارا من القتل، من القصف، من التهجير، من الفقد، من الرعب اليومي، من التجويع، من مناظر الدم في كل مكان، من عذاب الخيم المرير. هرب الجد الذي كان يعمل بإحدى المؤسسات الفرنسية بابنه و أحفاده الصغار من الموت إلى ما كانوا يظنونه الحياة و تخلفت الأم عنهم فقد كانت في عداد المفقودين لفقدان الاتصال بها و هي في زيارة إلى عائلتها و أُعتقد أنها استشهدت .

سافروا بأرواح متعبة و حقائب مملوءة بالوجع و ألم الفقد، وجوه عابسة وصلت مطار شارل ديغول بباريس، كانوا عكس أغلب المسافرين فلا ابتسامات تعلوا وجوههم و لا حماس لرؤية برج إيفل أو تناول الكرواسون الفرنسي أو التجول في محلات العطور الفاخرة! كل الذي كانوا يريدونه أن يعيشوا بكرامة ريثما تضع الحرب أوزارها ثم يعودوا لإعادة إعمار ما محته الحرب الطاحنة.

استقرت العائلة في شقة صغيرة و حاول الأطفال الثلاثة التأقلم مع حياتهم الجديدة، كان أكبرهم يبلغ 11سنة، الوسطى 10 سنين و الصغير 8 سنوات. أجسادهم كانت في باريس لكن قلوبهم و عقولهم كانت بغزة الجريحة ... جراحهم كانت كثيرة لكن جرح فقدان الأم كان غائرا جدا و لم يكن ليندمل بسرعة، كانت الأخبار اليومية الواردة من القطاع تجدد الأحزان و تُقلب المواجع .

بدأت مأساة العائلة حينما تعرفوا على نساء عربيات من أصول مغاربية متطوعات بجمعية للدفاع عن قضية فلسطين. أبدت النساء تعاطفهن مع العائلة كونها من غزة و اهتممن أكثر بالأطفال. بعد مدة سمعوا أخبارا تثلج الصدر، لقد كانت الأم حية! بعد مدة طويلة و بحكم انقطاع شبكات الاتصال و الانترنت على أغلب قطاع غزة استطاعت التواصل مع من بقي من أهل زوجها و علمت منهم أن زوجها و أبناءها في أمن و أمان و لكم كانت فرحتها كبيرة حتى رغم تخلفها عنهم، فالأم تؤثر حياة أولادها على حياتها.

فرحت العائلة كثيرا و أصبحوا يعدون الأيام و الأسابيع كي تنتهي الحرب و يعودون لرؤية الأحباء و للإعمار. لم تدم الفرحة كثيرا حتى فوجئت أن أولادها الذين قطعوا بهم البحر خوفا عليهم من الأذى قد اختطفوا من قبل مؤسسة الرعاية الاجتماعية! زعمت المؤسسة أنهم يتعرضون للتعنيف من قبل والدهم، و بدون أي أدلة أو شهادات طبية تثبت زعمهم تم خطف الأطفال !و الصدمة الكبرى كانت أن بلاغ القلق صدر

من المتطوعات أنفسهن ! كان وقع الأمر ثقيلا على الأنفس، فالمتطوعات العربيات المسلمات اللواتي حظين بثقة العائلة و تقاسموا معهن أفراحهم و أتراحهم غدرن بهم في أول منعطف بالطريق! لم تجد العائلة ما تصدقه، أتصدق أن فرنسا التي تُقدم على أنها بلد الحريات قد خطفت صغارها أم تُصدق أن من كان السبب هن أمهات عربيات مسلمات!

لم يكن الجد ليعرف المتسبب إلا بعدما اتصل به حفيده و أخبره أنهم مع السيدة الفلانية و أنها أخذتهم معها إلى مخيم صيفي! بعد مدة اتصلت نفس السيدة بالجد و قالت له :

_إن أردت رؤية أحفادك فانزل إلى الشارع، لن أصعد بهم إلى الشقة .

تحمس الجد و نزل بسرعة البرق غير مصدق أنه سيرى زينة دنياه أخيرا لكنه صدم عندما وصل الشارع و وجدهم قد غادروا، اتصل بها فوجد هاتفها مغلقا. اتصل به مدير الجمعية بعد ذلك و وعده بمساعدته لكن لا نتيجة. رغم غياب الأدلة مددت المحكمة انتزاع الأطفال عاما آخرا و حرمان كل أفراد عائلتهم من التواصل معهم، حتى أمهم التي بقيت في خيام غزة المهترئة على أمل أن ترى أبناءها الذين نجوا من قصف دولة الاحتلال و لم ينجوا من سطوة السوسيال الفرنسي .

التقى الأحفاد ذات يوم مع جدهم و عمهم صدفة في الشارع فجرَوا نحوهم و تشبثوا بهم قائلين بصوت واحد:

_خذونا معكم .... خذونا معكم.... لا تتركونا.

لم يجيبهم .... في نهاية اللقاء السريع لم يستطع أحد فعل شيء لتغيير الواقع.

التقى بهم عمهم مرة أخرى صدفة و تشبثت به الطفلة و توسلت له بأن لا يتركها كالمرة السابقة و يأخذها، كان كمن قُيد و رمي به في اللج، لم يستطع حراكا و بدأت بعدها بالبكاء الذي يفتت الحجر، قهرته الدموع لكنه لم يجرأ حتى على النظر وراءه و هم يجرونها بعيدا عنه .

أما الأم المسكينة فقد خرجت في وسائل الإعلام العربية لتصرخ بالمجتمع الدولي الذي لم يُنصف أطفال غزة كلهم. مُنعت من التواصل معهم بعد مدة من خطفهم و علمت منهم قبل المنع أنهم يغسلون أدمغتهم و يعملون جاهدين على إقناعهم أن سبب كل مشاكلهم هو التمسك بفلسطينيتهم ! بعد ذلك

أصبحت تتوسل للموظفة المسؤولة عنهم كي تجعلها تتواصل مع فلذات كبدها لكن الموظفة كانت عنصرية فلم ترحم تلك الأم و لو برد بارد أو حتى بصورة جماعية لأبنائها. لم ترحم أمومتها، لم تشفق على حالها و هي تنازع من أجل البقاء في الخيمة البلاستيكية التي لا تقي المرء من برد الشتاء و لا حر الصيف، و لا تمنع عنه القوارض و الحشرات و حتى تلك الأفاعي الطويلة السامة. تبقى اليوم بأكمله تتوسل علها ترد عليها و لو برسالة طمأنة ثم تتذكر أنها في خضم الأمل الكبير نسيت موعد توزيع الطعام في التكية (نقطة توزيع الأكل) و أن وجبة ذلك اليوم قد فاتتها فتخرج لتبحث عن رغيف خبز من عند جارتها ثم تتذكر أنها حتى لو وجدت رغيف الخبز عند الجارة فستأكله جافا لأن الزيت بخيمتها قد نفذ .... تعطيها الجارة رغيفا و زعترا و عند العودة ترى أطفال المخيم و هم يلعبون بالرمل و يبنون به مساكنهم التي هُدمت، تتذكر أطفالها فتدخل الخيمة و تفتح حقيبتهم، تخرج منها ما نجا من ملابسهم و لعبة ابنها الأصغر، تشتم رائحتهم و تحضن اللعبة كأنها تحضن صغيرها، يزيد يقينها أن ثمن التشبث بالأقصى و الوطن كبير جدا .... تنام على هيئتها و بجانبها رغيف الخبز و الزعتر ... لا يعلمون أن مقدار تمسكنا بأطفالنا لا يُقارن بتمسكهم بدنياهم ...

انتهت بحمد الله وتوفيقه.

الفهرس

لا إهداء	3
رسالة خاصة	4
توضيح	5
أولادي رأس مالي	8
بلاغ ضد أولاد عقيم!	13
نظرات العداء!	18
سارة ابنتي .... كفرت!	23
الوحش أحق بابنتي مني!	26
افلات من الشباك	30
شجار بسيط قاتل!	48
طلب اللجوء .... فخ!	53
محمد الليبي	62
بطولة شيشاني	69
أوروبا أكبر كذبة	72
نور العراقية	77
فضيحة هولندا	81
العم حسين مفتار	90
لينا المغربية	92

سننقذك من أمك!	95
الهروب من إيطاليا	106
الشرف .... جريمة بالسويد!	110
التهمة .... وسواس النظافة.	113
تاجر مخدرات صالح!	115
السوسيال ببلجيكا	116
انتقام مبرمج	125
إنقاذ ابنتي من الحياة!	132
قصف بالقلب!	136
انتصار مزيف على النرويج	150
هروب إلى الموت!	153

بلاغ قلق!

مجموعة قصصية

الغرب بدون ~~مساحيق تجميل~~

بلاغ قلق ... مجموعة قصصية تخبرك عن آلاف الأطفال الذين اختطفتهم مؤسسات الشؤون الاجتماعية من أحضان عائلاتهم في دول الغرب. صرخ الأطفال لسنوات طويلة لكن لم يكن يصلنا صراخهم! ولم نكن نسمع عن صراع آبائهم المرير لاستعادتهم. مؤخرا بدأ صراخ الأطفال يعلو ليُسمع، ثم تشجع الآباء شيئا فشيئا وخرجوا للعالم ليخبروه عن حقيقة الغرب الخالية من المساحيق، الحقيقة التي لايصدرها لنا الإعلام. تجد بين طيات هذا الكتاب قصة تخبرك أن ثقافة الشرف جريمة بالسويد! و ثانية تجد فيها أن الإلتزام الديني جريمة بالنرويج! و ثالثة تحذرك من أن الدفاع عن مقدساتك جريمة بفرنسا! و رابعة تهمس لك أن معاداة الشذوذ الجنسي جريمة عندهم! و خامسة تبين لك أن المطالبة بحقك يعد أحيانا جريمة بكندا!

تجد في القصص كيف جعل الغرب التعنيف الأسري مطية لخطف أطفال المسلمين! تغيير أسمائهم! تبديل دينهم! محو هويتهم! ثم اغتصابهم إن أرادوا ذلك وأحيانا التخلص منهم والكتابة في الشهادة الأخيرة " سبب الوفاة : انتحار!"

الجميع بات يدرك هناك أن لا أحد يعلو عندهم فوق مؤسسات الخطف!